أحمد بن محمد الشامي

المتنبي

شاعر مكارم الأخلاق

كتاب
النادي الأدبي الثقافي
٢٤

الطبعة الأولى
عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

طبعت بمطابع دار البلاد
جدة ـ ص . ب : ٧٦١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

النادى الأدبى الثقافى
جدة ـ المملكة العربية السعودية
ص . ب: ٥٩١٩   ت : ٦٥٢٢٩٧٢
حقوق هذه الطبعة محفوظة للنادى

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على المصطفى محمد الأمين وعلى آله الطاهرين وصحابته الراشدين والتابعين بإحسان الى يوم الدين .

وبعد : فما كنت أحسب أن افكاراً خلتُها ستخطر فى بال المتنبّى ـ لو كان حيّاً ـ وقرأ كتاب الشيخ عبد العزيز التويجرى « فى أثر المتنبّى بين اليمامة والدهناء » وأردت أن أحاور بها الشيخ الصديق فى رسائل أترجمها عن لسان أبى الطّيب .. ستتطوّر الى هذا الحوار الذى استمر بضعة أشهر بينى وبين « الفيلسوف الشمّرى » . وما كنت أتوقع انه قد يؤلف كتاباً يخرج على الناس يوما تحت عنوان « المتنبى شاعر مكارم الأخلاق »

وما كنت أحسب أيضا ، ولا أتخيّل أن نقاشنا سيتطور بى من مدافع عن « إنسانية » المتنبّى ، وإيمانه بالله ، ومحاولة إقناع الصديق « ذيبان الشمرى » بأنه كان حنيفاً مسلما ، ولم يكن ملحداً ولا شاذاً ولا وحشياً .. إلى مؤرّخ يحاول إبراز المتنبى فى ثوب داعية على رأسه « عمامة إمام زيدى » !

وربما كان هذا مثار عجب عند قوم ! وقد بدأت قصة هذا الكتاب عندما قرأت ما كتبه الاستاذ ذيبان فى تقريظه لكتاب الشيخ التويجرى وقال عن أبى الطيب المتنبّى ما نصه :

« ومن العجب العجاب أن المتنبى لا يأتى فى معظم قصائده على ذكر الله وذكر العناية الإلٰهية ، وأنك لتَشْتَم فى ديوانه روائح شديدة من روائح الالحاد ، الأمر الذى يتفق ويوافق القائل بفلسفة القوة ، فمثل هذا الإنسان ملحدٌ بحكم فطرته إذ أنه مؤمن بشرعة الغابة وقوانيها : الشرعة الرافضة للتراحم والمرحمة ، والرحمة » (جريدة المدينة عدد ـ ٥٧٠٣ ـ ١٤٠٣/١/١٧ هـ .) .

وقد رأيت فى هذا القول ظلماً لشاعر الإسلام أحمد بن الحسين ، بل وتكرارا لما ردّده بعض المستشرقين وتلامذتهم ممن يستكثرون على « المسلم » فى كل زمان ومكان أن يكون عالما او حكيما أو فيلسوفا ، وكنت أعلم أن الصديق « ذيبان الشمّرى » يتمتع بأخلاق الحنيفيّة الغرّاء وقلت لنفسى : ربما وقع فيما وقع فيه من الخطأ لأنه لم يقرأ ديوان المتنبى قراءة مستوعبة فكتبت على لسان المتنبى رسالة الى الشيخ التويجرى أثبت فيها أن أبا الطّيب كان حنيفاً مسلماً يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأوردت من شعر المتنبى ما لا يحتمل رداً أو شكاً أو مكابرة .. وكنت أظن أن نشر ذلك فى ملحق « المدينة » الأدبى سيقنع الصديق الشمرى وأنه سيحد فيما أوردته من الشواهد ومن شعر المتنبى نفسه ما يقنعه ويغيرّ رأيه . لكنه ردّ على مقالى وكان هذا الحوار . الذى أصبح كتابا .

ولا بد أن أقول بأنى إذا كنت قد وفّقْتُ وأحسنت الدفاع عن شاعر الإسلام ومكارم الأخلاق : فالفضل الكثير يعود الى الاستاذ الجليل

محمود محمد شاكر ، فلولا كتابه عن « المتنبى » بسفريه .. لما أهتديت الى كلّ ما طرقته من أبواب ؛ وتوصلت إليه من تصورات وخواطر ، ولقد كان لكتابه الذى كتبه للمقتطف منذ ما يقرب من نصف قرن وقلمه فى عنفوان نشاطه وشبابه أعظم الأثر فى توجيه طريقة التأليف ، وأساليب الكتابة عن الشعر والشعراء العرب جميعاً وليس « المتنبى » فقط ! ولولا كتاب شاكر لما تمكن الدكتور طه حسين من تأليف كتابه « مع المتنبى » والذى لم يزد فيه على عكس الصورة الحقيقية التى وضعها « شاكر » للمتنبى ، ولولاه أيضا لما اهتدى الدكتور عبد الوهاب عزام الى الأسرار التى ذكرها فى كتابه النفيس عن « المتنبى » ..

وها أنا ـ وبعد أن كتب العشرات عن المتنبى ـ وبالرغم من انى قد توصّلت الى نتائج وحقائق قد لا يوافقنى عليها ـ أو على البعض منها ـ الاستاذ محمود شاكر نفسه ـ اعترف غير مجمْجمٍ أنه لولا كتابه بسفْريه .. لما توصّلت الى ما توصّلتُ إليه ؛ مما قد يُضيف جديدا إلى تاريخ حياة وشعر أبى الطّيب المتنبّى « الزيدى » أشْعر شعراء الإِسلام .

ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبى ونعم الوكيل .

بروملى ـ ١٤٠٤/٥/١٠ هـ . ـ ١٩٨٤/٢/١١ م .

أحمد محمد الشامى

تنبيه :

لقد اكتسبْت لفظتا « التشيّع » و « الشّيعة » مدلولات بشعة ، فاذا قيل « فلان » « شيعى » أو « يتشيّـــع » تبادر إلى الذهن أنّه « رافضى » ، « باطنى » أو « إسماعيلى » « قرمطى » : يشتم الصحابة رضى الله عنهم ، ويؤمن بالرجعة ويقول بالتقية ، وينتظر « المهدى » المختفى ، ويدين بعصمة غير الأنبيــاء ، ونحو ذلك ، وقد جنى هذا الفهم على « الزيدية » الذين ليسوا « غلاة » ولا « باطنيين » وإمامهم « زيد بن علي » هو الذى سمّى من تبرأ من « الصديقين » رضى الله عنهما « الرافضة » ولا فرق بين أتباعه وسائر أتباع أئمة المسلمين من « شافعيّة » و « مالكيّة » و « أحناف » و « حنابلة » إلاّ أنهم يوجبون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والخروج على الظلمة ، وتشيّعهم لا يزيد على تفضيل الإمام علي رضى الله عنه ، فإذا وصفتُ المتنبّى أو غيره بالتّشيّع فإنّما أعنى المفهوم اللغوى « الزيْدى » الذى لا يختلف دينا وعقيدة مع أهل السنة والجماعة إلا فيما يجوز الاختلاف فيه شرعاً وعقلاً .

وكلّهم من رسول الله ملتمس ∴ رشفاً من البحر أو غرفاً من الديم .

المؤلف

من المتنبي إلى التويجري

وصلتني رسائلك ـ ولو قلتُ قصائدك ـ لما أبعدتُ : فالشعر في عالمنا الروحاني لا أوزان له ولا قوافي ؛ ولغتُه نبضات ومضات ! وأسلوبك هذا الذي اخترعته في رسائلك إليّ تتحرّك في كل حرف من ألفاظه نبضة قلب ، وتتألّق في كلّ فقرة من جُمله ومضةُ روح !

يا أبا عبد المحسن : لقد كانت تتوافد علينا رسائلك فَوْرَ انتِهائِك من تحبيرها ، وكانت أحاسيسك الظامئة تتهادى معها كأسراب طيور الأصيل .!

ولا أدري هل ستصدّقني إن قلت إنّي كنت أعيش معك وأنت تَبْتَدِعُها معنى معنى ، وتنحتها حرفاً حرفا ، وتترنّم بها كلمةً كلمة ، وكنت أقفو أثر خيالاتك ومشاعرك ، وومضات تصوّراتك بأشواقي الشعريّة كما قَفَوْتَ أثر خطوات جَملي على مَطيتّك المِرقال . ! وكنتُ أرتعشُ حين يخُامرك ما كان يخامرني كإنسانٍ ينفعل بما حوله ، وبموروثاته ، وعواطفه : من سخطٍ ورِضى ، أو غضب لِعِرْقٍ وشيج ، أو لوعةٍ لفقد عزيز ، أو تحدّ لخصم عنيد ، أو كرهٍ للئيمٍ كنود ، وكنتُ

أرتجف حين تقف ساهماً مفكرا عند بعض قصائدي في « كافور » وفلانٍ وفلان ، وأخشى أن يجمح بك جواد يراعك ، أو تتقحّم بك مطيّةُ خيالك فيما سبق أن تقحّمْته نفسي من المهاوى حين كنتُ أسخط وأرضى ، وألتاع وأتحدّى وأحبّ وأكره .!

يا صديقى عبد العزيز : لم أكن وحدى الذى يطّلع على رسائلك فكلّ من تعلمهم من الشعراء ، ومن لا تعرف حتى اسماءهم : عربا وعجما : كانوا يقرأونها مُعجبينَ منفعلين : غير أنّى و « ابن جنّى » ، وصاحبنا « أبا العلاء » .. كنّا أكثرهم اهتماماً وانفعالاً ، وإعجابا بتصوّراتك الشاعرة ، ! و « أبو العلاء » هو الذى اقترح علي مراسلتك ، ورشّح « الشامى » سَفيراً إليك : إذ أنّه كما قال يقدرنى ، ويحبّ حُسن البداوة كما تحبُّها ، وقد انتصف لي من ذلك العتلّ الذى هجانى ، وصوّرنى وحشا كريها ، ونعتنى بأبشع الصفات ، وصبّ علي كل ما فى نفسه منْ أوساخ الشتائم ، وصديد الحقد والسخائم . ثم جئتَ أنت فضمّدت جراح كبريائى ، وأضفيت علي من صفات مكارم الأخلاق ما لَمْ يكرّمنى به أحدٌ قبلك : أيها الكريم الجِرِشّى ، البدَوي الأصيل .!

يا أبا عبد المحسن .. تقول فى رسالتك الأولى معلّقاً على بيتى :

إن القتيل مضرّجاً بدموعه مثلُ القتيل مضرّجاً بدمائِه

« لا لا يا سيّدى أبا الطّيب : إن من يقتله أنينه وبكاؤه ، إن مَن تمزّقه معاناته .

تفوق ميتتُه ميتةَ الانسان المضرّج بدمائه ؛ فهذا يموتُ فى اللحظة والتوّ .

وذلك غارق فى أعماق البئر السحيقة تنفجر داخل نفسه أنهارٌ من الدماء .

والدموع والحسرات ، وهنا تبطل المقارنات ، وتتراجع الصورة إلى حيث .

تَمحى بدموع قيس وليلاه ! هكذا أتصور ، وهكذا أرى ملامح الحقيقة » .

وتصوّرك يا سيّدى صادق ولم ترَ به ملامحَ الحقيقة فَحَسْب ؛ بل واسْتَكْنَهْتَ روحها ، ولولا نفاذُ بصيرتك ، وصحةُ فهمك ، ونقاوةُ طبعك ، ما تنبهتَ لشيء لم يتنَبّهْ له سواك من شرَّاحى وأنصارى وخصومى ، طيلة أحد عشر قرنا .. ! ،

ولكن .: ولكن يا صديقى ـ وإن كنت قد أصبتَ وأحسنت ـ فلا تظنّ انك قد علّمتنى ما لم أعلم ! ولا أدرى هل ستصدّقنى إذا قلتُ : إنك لم تختلفْ معى ، بل مع الذين حرّفوا شعرى ! نعم .. نعم يا صديقى لم تختلف معى ؛ ولكن مع الرواة الذين أجمعوا على أن يروا البيت :

إن القتيل مضرجاً بدموعهِ مثلُ القتيل مضرجاً بدمائِهِ

كما رويته ، وكما اعترضت عليه ، ولم يتنبّه أحدٌ لِما تنبهتَ له ...؛ لا من شرّاح ديوانى وهم ينيفون على الخَمسين ، ولا ممن تحدث عني ،

أو رحل معى من المتأخّرين .! ولو جمعت كلّ نُسخ ديوانى ما طبع منها وما لا يزال مخطوطا .. لوجدتها جميعاً تروى البيت كما رويتَه ، وكما اعترضتَ عليه .. ومع ذلك فها أنا صاحب البيت وهو أدرى بالذى فيه .! أزعم انك لم تختلف معى ، ولم تعلّمنى ما لم أعلم .! إذ كيف يكون قتيل السيف مثل صريع الهوى ؟! وذاك « يموتُ فى اللحظة والتو » وهذا « تمزقه معاناته » « وتنفجر فى داخل نفسه أنهارٌ من الدماء والدموع والحسرات » كما قلت يا أبا عبد المُحْسن . !

مرة أخرى .. لا أدرى هل ستصدّق ما أقول ـ وأنا أعلم أن الرواة كلَّ الرواة قد نقلوا البيت كما رويته ، واعترضت عليه ، حتى مخطوطة صاحبك الشامىّ وهى يمنيّة عتيقة عمرها ستة قرون .. قد سجّل صاحبها البيت ..إن القتيل ... « مثلُ القتيل » ! بالرغم أنّه تفرّد بتسجيل ما لم يسجّله غيره من شعرى الذى ضاع منه الكثير ، وعبث به أهل الأهواء والنزعات التى لا تخفى عليك ! أقول هل ستصدّق ما أقول . إنك لم تختلف معى ، ولا اعترضت عليّ ، بل على أذواق من عبثوا بشعرى أو صحّفوه أو حرّفوه ! أما أنا فقد قلت البيت هكذا :

ليس القتيلُ مضرّجاً بدموعه   مِثْلَ القتيلِ مضرجاً بدمائه

وهو ما ينسجم ومفهوم المعنى الذى زاولته فى البيت السابق : أنْهَىَ العذول أن يلوم العاشق ، وهو خلىٌّ لم تلسع أحشاءه لفحاتُ الغرام :

لا تعذل المشتاق فى اشواقه   حتى يكون حشاك فى أحشائه

بل ويتلائم مع البيت الذى أورده الرواة بعده والذى يعنى أن الممتحن

بالحب لا يملّ معاناة الهوى ، وأنه حلو لديه ، وإن أتلف نفسه ، وأنه لا ينتهى كمن يموت فى اللحظة والتو ، بل أنّه يستعذب العذاب ، ويتلمّظ بلذّة تمزّقه ، وحتى لو فدّاهُ غيره ، وحاول إنقاذه من تباريحه ، لأدركته الغيرة ضناً بقاتله ومعذبه :

والعشق كالمعشـوق يعـذُبُ قربه للمُبتلى ، ويـنــالُ من حوبائه
لو قلـت للـدنف الحـزين فديتُه ممّــا به : لأغرتــه بفدائِه !

ومع كل ذلك فقد استبعد الرواة ـ ولا أدرى لماذا ـ بيتا ينطق بما أدركَتْهُ فطرتُك الشاعرة ؛ وأستغفر الله إن كنت قد افرطت فى سوء ظنى بهم إذ ربما إنى أنا الذى ذهل عن إنشاده ؛ ولكنك لو تمكّنت من الاطّلاع على سَجَنجَل الغيب حيث تُرْسمُ وتُسَجّل كل صغيرة وكبيرة مما يتخيله الشعراء ، أو يفكرون فيه ، أو يزوّرونه فى أنفسهم ، أو يقولونه أو يكتبونه ، لقرأت ما يلى :

ليس القتيلُ مضرجــاً بدموعهِ مثـل القتيلِ مضرجـاً بدمائه !
يُشْفى قتيل السّيف ساعة موته ، أمّــا الهيُوم فلا شفـاءَ لدائه :!

وأما بعـد فلعلى قد أطلـت : لا عليك ؛ فأنـت رفيق الصبـر وابـن الصحراء ؛ لا تمل الخيال ولا المناجاة ؛ ولكن على « السَّفير اليمانى » وهو ابن الجبال السَّوداء حيث لا جمال ولا سراب يمور، بل الصَّخور والذئابُ والنمور .

١٤٠٣/٤/٢٠هـ / ١٩٨٣/٢/٣ م

من المتنبي إلى التويجري

صديقى أبا عبد المحسن .

مضت فترة زمنية لا أظنها طويلة فى حساباتكم البشريّة التى تقدّرون مواقيتها بنهارٍ تسطع شمسه ، أو ليل تتلألأ نجومهُ .. لم تتيسر لى أثناءها مناجاة سفيرى اليك .. ولو شئتُ لقلتُ : لم يحاول هو نفسه الاتّصال بى ! .

ولا أقول هذا اعتذاراً إليك ، ولا عتباً عليه ؛ فلا مجال لاعتذارٍ ، ولا مسوّغ لعتبٍ فى عالمنا بعد أن صرنا خارج الزمان والمكان المقيَّدين بحسابات البشر ، والذين تقدرون أوقاتها ، وتغيرات ظروفها بتقلب « شمسٍ » وغروبها فى حيث لم تشرق ، وطلوعها من حيث لا تمسى . وبتنقلات « قمرٍ » يتطور فى أعينكم محاقا .. فبدراً . حتى يصير كالعرجون القديم .. وبتلك التحولات والتغييرات تبنون وتهدمون الحياة ؛ فتشقون وتسعدون ، وتضحكون وتبكون ، وتأنسون وتطمئنون إلى ما تشتهون وتريدون ، وتنفرون وتجزعون مما تعلمونه ومما لا تعلمون .! وتتنقّلون بين الشدّة والرخآء ، والملل والاشتهاء ، وعواطف الحب والبغضاء ، والتسامح ، والاباء ، مما يلذّ ويؤذى ، ويسخط ويرضى ، ويُعزّ ويذلّ ، ويبدىء ويعيد ،

وتقاضون الحياة وتقاضيكم حسب موازينكم الترابية أو العقلية ، ومقاييسكم الحديدية أو الضوئية ، والتى لا تتعدى محيط الزمان والمكان « الشمسيين القمريين » الّذين قد نفذنا من أقطارها ، بسلطانِ خالقِ السَّموات والأرضين .

يا أبا عبد المحسن :

لا أقول هذا اعتذاراً إليك ـ لما ذكرت ـ ولأنك لم تنتظر منى مراسلتك ، ولا توقعّت ، بل لم يخطر ذلك لك على بال ! ولا أقوله عتاباً لسفيرى . لأنى كنت يوماً ما إنسانا مثله .. أكابد ما يكابده فأقول :

عيد بأيّة حالٍ عدت يا عيد بمـا مضى أم بأمـر فيه تجديد
أمّـا الأحبـة فالبيداء دونهم فليت دونـك بيدٌ ، دونهـا بيد

وأعانى ما يعانيه فأقول :

بمـا التعلل ؟ لا أهـل ولا وطن ولا نديم ولا خلٌّ ولا سكن ،

ونحن ـ معشر الشعراء ـ لا فضيلة لنا ـ أو قلْ : لا ميزة نتفرد بها عن سائر الناس ـ إلاّ أننا أوفياء للذّكريات : السعيد الجميل اللـذّ منهـا ، والقبيح المنكر المؤلم أيضا ، وما نرتاح إليه ، وما نضيق به ذرعا ، وما نتباهى ونفتخر إذا نشرناه ، وما نخجل منه ونخفيه ، ونبقيه « كالجياد فى مرابطها الذهنية ، « مما يشقّ على الانسان » ـ كما قلت ـ يا بن الصحراء ـ « أن يجريها فى السباق ، ويعرضها على المتفرجين » !

ومنذ أملْى « سفيرى » عليك ، رسالتى الأولى إليك .. وأنا لا أدرى هل أعجبتك أو أغضبتك ، والرضى والسخط من أحوال القلوب التى لا يعلمها

إلاّ علام الغيوب ! لم يتّصل بى السّفير ولا ناجانى ، وأخبار مجالسك ما تنفك تتوافد علىّ صباح مساء وأحاديثها ترفع ذكرى وتمجّد شعرى ، و « الشامى اليمانى » مشغول عنى فى شجار واعتراض وجدال مع المتحاملين على آداب قومه ، وتاريخ وطنه ، ومبادىء دينه ، أو يهيم فى مسارح الجمال ، أو يتلوى ندما يلعق نجيع طعنات غدر الزمان ، يندب من يُعزُّ ويحُبّ قبل الأوان ، ومن قمة هرم عزلته يتطلع فيرى صخرة الودى وقد تحطّمت ، فيصرخ ؛ فلا يستطيع أن يسمع صوته الذى إذا تجاوز شفتيه تناثرت كلماته صرعى تحت بصره كمدا أو ارتدَّت إلى قلبه طعنات حسرة وأسى ! والرقيب « فى أزرار ثيابه » يتخاوص ساخرا ، وسريرته قد أفضى إليها علم من يصنعون مأكله ومشربه ، ومركبه ، وكتابه ، وداءه ودواءه ..!

وصوت جهير يقرأ سطراً فى رسالتك الثانية يقول :

« وأشد الأشياء صلابةً لا يقى الإنسان سهم القدر ! فالدروع والبروج المشيدة لا تمنح الأمان » .

ويرتفع صوته بلا وعي : « رباه .. وهل قد رُمينا بسهم القدر » ؟ .

وبالأمس هام على وجهه وتحت « برج لندن » « قعد القرفصاء » يجتر آلامه وناجانى يقول : مالى وللتويجرى ؟ لماذا أقلق استقرارى وأزعج سكينتى ؟ لقد أفنيت أكثر من خمسين عاماً وأنا أقرؤك يا أبا الطّيب ؛ وكنت إذا تألمت تذكرت قولك :

سبحان خالق نفسى ! كيف لذتها فيما الأنــام تراه غاية الألم !

فيتلاشى ألمى ؛ وإن حزنت رجعت إلى قولك :

تحمّلـوا حملتـكم كلّ ناجية فكلّ بـينٍ عليّ اليوم مؤتمن
ما فى هوادجكم عن مهجتى عوض إن مت هماً ولا فيهـا لهـا ثمن

إن متّ همّاً ؛ ولا فيها لها ثمنُ !

فيذهب حزنى وهمى وأتّكىء أقهقه راضياً ساخرا ؛ وإن هممت بالشكوى تذكرت قولك :

ولا تشك إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم !

فلا اشكو بثى إلاّ إلى « الخالق » جلّ وعلا !.

وإن أنكرت ضيما أو ظلما أنشدت قولك :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّةٍ فلعلةٍ لا يظلم

فأهدأ وأتلمس الأعذار ! وهكذا ، وهكذا ، ما وقعت فى أمر ذى بال الاّ وجدتك أمامى معزّيا ، أو موسِيا ، أو مواسياً ، أمّا اليوم .. فأنّى لى أن لا أتألم ، وأن لا اذوب كمدا ؟ وأنى أن آمل .. بل وأنّى لى أن أيأس ، أو اطمئن أو اتلمس الأعذار ؛؟ وهذا « البدوى » الكريم الجرشى ، ربّ السيف والقلم ذو اللسان الذرب والقلب الذكى ، قد تتبع آثارك ، وكشف أسرارك ، وحلل بها مجتمعنا ومشاكلنا وماضينا وحاضرنا وكاد يرعبنا بما ينتظرنا فى مستقبلنا المجهول ! ولقد أقضّ مضجعى بقوله : « أما اليوم فقد تقاصر الطويل ، وتطاول القصير ، فتساوت الأنوف والهامات تحت السقف المعتم » .! نعم يا أبا الطّيب .. قبل الموت .. حشر أبو عبد المحسن .. الشاعر والشوّيعر ، والكريم واللئيم ، والعبقرى والأبله ، والأبطال

والجبناء ، والعصاة والأبدال تحت سقف واحد وسقفٍ معتم « يا أبا الطّيب » ! كيف يجوز هذا ؟ كيف يرسم واقعنا بهذا الاسلوب السّاخر المرعب ؟ وليس ذلك فحسب بل ويقول ؛ وما أصدق وأروع وأرهب ما قال :

« فالحضارة المادية التى نعيشها اليوم ـ وبعيدٌ عنك تصوّرها ـ قمقم ضخم ملىء بالآفات والوحوش ، لا ندرى متى تفترس هذه الحياة ؛ ونحن عرب الصحراء أو عرب دمشق أو بغداد ، أو القاهرة ، أو سواهم طوينا خيامنا ثم أحرقناها ! فالخيمة التى حملها الرجل الأول من يثرب ، وبناها فى ثلاث قارات من الأرض كانت الرمز الحضارى الأخلاقى ، يوم حلت محلها ناطحات السحاب ، جلسنا القرفصاء نجتر آلامنا ؛ فلا خيمة ولا ناطحات سحاب ! ومن هذه حاله يظلّ مكانه فى العراء .

وما اروع ، وما أصدق وما أرهب هذا الكلام يا أبا الطّيب إن فى كل فقرة نذيرا يحذر ، وفى كل كلمة قلبا يتوجع ، وفى كلّ حرف دمعة تنتحب !

وها أنا حقّاً أشعر أن لا مكان لى إلاّ فى العراء !

لقد أحرقت الخيمة أيضاً يا أبا الطّيب !

يا أبا عبد المحسن أبعث إليك برسالتى الثانية التى كنت أريد أن أناقش فيها مواضيع شتّى ؛ لكن .. « سفيرى » قد استدر عطفى ، ولعلك أنت نفسك قد هوّلت عليه ، وعلى القلّة من أمثاله الذين ما زالوا يفهمون ما يعنيه المخلصون ولم أر بُداً من إرساله إليك فعساه وهو الذى

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلاً إلاّ لخالقه حكما

كما فعلت يوما من الأيّام .. أن يجد فى رحابك ما ينسيه « كبسولة » التشاؤم التى أقفل على نفسه فيها لا ينادم ولا يحاور غير صديق الجميع أبى العلاء المعرى ـ الذى يقرئك السلام ـ ردحاً من الزمن وسلام الله عليك .

والى رسالة ثالثة إن شاء الله .

لندن : ١/جمادى الآخرة/١٤٠٣ هـ ١٥/٣/ ١٩٨٣ م

من المتنبي إلى التويجري

صديقى عبد العزيز : كنت أريد فى رسالتى الثالثة أن أجيب على بعض أسئلةٍ وجهتها إلي فى بعض رسائلك القيّمة حول الإنسان والحياة والموت والحضارة والبداوة والخير والشر ؛ وأن أتحدث عن بعض ما ورد فيها ممّا صعُب علي فهمه ، أو يفتقر إلى مزيد من التّبيين ؛ لأنّك كنت أحيانا تُغرِب موجزا ، وأحياناً تُوري مُعجزا ، وتارة ما تكاد تنفث بالمعنى حتى تغيب محلّقاً به فى أجواء هيهات لخيالِ ذى الفهم الثّاقب أن يحلّق معك فى آفاقها .. وأنت تعلم أنك لم تكن لي شارحاً ولا مفسرّاً ؛ بل محاوراً مُستنبطا حيناً ، وناقداً أو معترضاً حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تُضيف إلى أقوالى ما كان يمكن أن يخطر ببالى لو قدرّ لي أن أعيش زمنك وظروفك ؛ بعد أن جدَّ من العلوم والفنون . ووسائل العيش ما لم يكن فى حسبان البشر قبل أحد عشر قرنا .!

كنتُ قد نويتُ ذلك بل وأردته .. غير أنّ « سفيرى » لمّا أقبل عليّ اليوم كئيبَ الملامح مُطرقَ الرأسِ ، حزين النظرات ؛ قد صرفنى عمّا نويتُ وأردتْ ؛ ولمّا سألته عمّا دهاه ؟ أجاب بأنه يودّ أن يقدّم استقالته ، وأنه لن

يستطيع أن يستمر فى أداء مهمته « كسفير » أدبى ، لديك من قبلى ، أودِعُه أسرارى ، وينطق بلسانى ، وينقل إليك رسائلى ! وعندما قلت له : وما الذى جرى ؟ وما دفعك إلى ذلك ؟ قال : إنه اطّلع على مقالةٍ نُشرِتْ قبل ستة أشهر تقريباً : وبالتحديد يوم « الأربعاء » ١٧/محـرم ١٤٠٣ هـ فى جريدة « المدينة » عدد ـ ٥٧٠٣ ـ لكاتب يُدعى « ذيبان الشمرى » تحدث عن كتابك « فى أثر المتنبى » وجعل عنوانها : « تجاذب الضدين وتحـاور النقيضين » ؛ وقال السّفير : إذا كان ما ورد فى هذه المقالة عنى هو الحقّ فانه يستقيل من منصبه ؛ إذ لا يليق بمثله أن يكون « سفيرا » أو واسطةً بين ضدّين أو نقيضين .

ولقد طلبت منه الأناة ، وأن يطلعنى ـ أولاً ـ على ما قالـه الكاتـب « ذيبان الشمرى » ! فقال : إنه ـ وإن كان لا يعرف هذا الكاتب شخصياً ـ لكنه قد استنبط من اسلوبه أنّه أديب واسع الاطّلاع ومن « المثقفـين العصريين » ؛ وأنه قد كان ناقدا أمينا عارفاً حينَ قال عنك : « فالشيخ عبد العزيز التويجرى إنسان مؤمن بالله وبدينه وبرسوله ، ويرى أن الإيمان وحده الحافظ علينا ذاتيتنا الإنسانية الفاعلة فى الكون والمتسـامية نحـو بارئها ، وبانية كلّ « حضارة » .

فقلت : أنعِمْ بهذا الكلام ! فماذا أزعجك منه ؟ فاضطـرب السفـير ، وعلَتْ وجهه حمرةُ الخجل المشابَهَةُ بصفْرة الوجل ، وقال بلسان متلعثـم : اعذرنى يا أبا الطّيب ؛ فلو كنتُ أعلم أنك لم تطّلع على ما كتبه الاستاذ « ذيبان الشمرى » لما لمحتُ إليه ، ولا كدّرت خاطرك به ، ولا سيما ومقدمة

مقالته تدلّ على أنّه صديق حميم للشيخ التّويجري ، وبينهما كما قال : « روابط تقدير ومحبة » واسمح لي أن أبحث الموضوع مع « الشيخ » قبل أن أرفعه إليك !

قلتُ : كلاّ .. كلاّ .. يا سفيري ؛ ولا تحسبن أن ما تنفعل به أحاسيسك فى قفصها الترابى ، من غيظٍ ، أو حقدٍ ، أو حسد ، أو حزن ، يؤثر فينا نحن سكّان العالم العلوى .. بل إنّ من نعم الله علينا أن لا نطّلع - دون ارادتنا - إلاّ على ما ينسجم وظروفنا الروحية ، مما يزيدنا رضى وسعادة ، وغبطة وانشراحا ، إلاّ إذا ناشدنا الاطّلاع على غير ذلك فنجاب - فقل لي بربك ماذا قال « الشمرى » عنّى ، ولماذا جعلنى ضدّا ونقيضاً للشيخ عبد العزيز المؤمن الحكيم .. وما كنت يوماً من الأيام إلاّ مؤمنا بالله ؟

قال : لقد روتِ الصحيفة عن « الشمرى » أنه قال ما نصّه : « ومن العَجَب العجاب أن المتنبى لا يأتى فى معظم قصائده على ذكر الله ، وذكر العناية الإلّهية وإنك لتشتم فى ديوانه روائح شديدة من روائح الإلحاد ! الأمر الذى يتّفق ، ويوافق القائل بفلسفة القوّة ، فمثل هذا الإنسان ملحدٌ بحكم فطرته ؛ إذ أنه مؤمن بشرعة الغابة وقوانينها ! الشرعة الرّافضة للتراحم ، والمرحمة ، والرحمة ؛ وهذا ممّا يتناقض وجميع ما ورد فى كتاب الشيخ التويجرى »

والحق اقول لك يا صديقى أننى عندما سمعت هذا الكلام وتصوّرت تأثّر « الشامى » به وتصديقه له .. كدت أن أشك فى صلاحيته لمنصب السفارة بينى وبينك وكادت ثقتى به تتزعزع ؛ لولا أنّى تذكرت تزكية صديقنا « أبى

العلاء » له ، وثناءه عليه ؛ ففضّلت أن أكون قاسياً عليه ! فقلت له : يظهر أنك مثل الكثير من أبناء جيلك قد تأثرت بأقوال مؤرخى ومفكرى الغرب الذين يستكثرون على « المسلم » المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .. أن يكون عالماً ، أو حكيما ، أو فيلسوفا ..! ولم تعلم انهم إنّما تمرّدوا على « الدين » لأنهم ظلوا ـ ولأمد طويل ـ خانعين مضطهدين تحت كابوس الكنيسة الصليبية ، وتعاليم رهبنتها المبتدعة ، وكهنوتها الرهيب ، مما لا يقرّه عقل ، ولا يستسيغه ضمير ، ويجحد أوّل ما يجحد حرية الانسان وكرامته ، ويشوه فطرة الله التى فطر الخلق عليها .! أو أنك مثل الكثير ـ وربما كان احدهم كاتب المقال لم يقرأ ديوان شعرى كاملاً ؛ أو قراءة صحيحة !!

ولقد انزعج « سفيرى » وقال : لقد استظهرتُ معظم ديوانك فى عنفوان الشباب ، وقرأت معظم شروحه ، ولا اظن بيتا مما روى عنك قد غاب عني فلا تحكم علي بهذا الحكم الظالم يا أبا الطّيب .

فقلتُ له : وإذن فكيف تنفعل وتتأثّر بما قاله « الشمرى » وأنت تعلم أن فى شعرى ما يدلّ على أنى مثل الشيخ عبد العزيز أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ وفى وسعك أن تتحدّى أيّ كاتب يزعم غير ذلك ولا أدرى كيف ؟ ولا أين اشتمّ الاستاذ « ذيبان » روائح الإلحاد فى ديوانى ؟ أفيكون ملحداً من يأمل اللّطف من الله العزيز الحميد حين قال :

ما مقامى بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود !
ولعليّ مؤمّلٌ بعض ما أبلغ باللطف من عزيزٍ حميد ؛
أنا فى أمةٍ تداركها الله غريب .. كصالحٍ فى ثمود

أفيجرى مثل هذا الشعر على لسان كافر بالله ؟ وكيف وقد جعل لِكلِمةِ التوحيد حلاوة حين قال فى نفس القصيدة :

يترشّفن من فمى رشفات هُن فيه حلاوة التوحيدِ ؟

ولو لم أكن عارفاً بالضلال والهدى لما قلت :

يا عاذل العاشقين ؛ دعْ فِئةً أضلها الله .. كيف ترشدها ؟

ولو لم أكن مؤمنا يثق بالله لما قلت :

فثبْ واثقاً بالله وثبة ماجدٍ يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وهل يقول ملحدٌ مثل هذا القول :

لم يخلق الرحمن مثل « محمد » أحداً ، وظنى أنه لا يخلق !

أو مثل هذا البيت :

إلى سيّد لو بشر الله أمةً بغير نبى بشرّتنا به الرّسلُ

وهل لو كنت ملحداً كما قال « الشمرى » ؛ وكنت لا أؤمن بالله ورسوله والملائكة وعذاب القبر والنشور أستطيع أن أرثى أحد أصدقائى بمثل قولى :

انى لأعلم ، واللّبيب خبير ان الحياة وإن حرصت غرورُ ،
ورأيتُ كلاً ما يُعلل نفسه بتعلةٍ ، والى الفناء يصير !
خرجوا به ، وَلِكلٍّ باكٍ خلفه ، صعقات «موسى» يوم دكّ «الطور»
وحفيف أجنحة الملائك حوله ، وعيون أهل «اللاّذقية» صورُ ،
حتى أتوا جدثاً كأن ضريحه فى قلب كل « موحدٍ » محفور
فأعيذ اخوته « برب محمد » أن يحزنوا و « محمدٌ » مسرور !
أو يرغبوا بقصورهم عن حفرة حياه فيها « منكرٌ ونكيرُ » !
وكأنما « عيسى بن مريم » ذكره وكأن «عازر» شخصه المقبورُ

أو قولى من أخرى :

ألا إنمـا كانــت وفــاة « محمد » دليلا على أن ليس لله غالبُ

وعندما مدحت وأغرقت فى الإطراء لم اغرق ، ولم أبالغ ، إلاّ بما يؤكد إيمانى بالله ورسله وكتبه فقلت واستغفر الله :

لو كان علمك بالإله مقسماً فى النـاس ؛ مابعـث الإلـه «رسولا» !

لو كان لفظك .. فيهم ما أنزل «الفرقان» و «التوراة » و «الانجيلا» !

أو من يقول عن نفسه :

تغـرّب لا مُستعـظما غـير نفسِه ولا قابـلا إلاّ لخالقـه حكماً

هل من قال هذا يُعد عندك ، يا سفيرى ، أو عند الاستاذ « الشمرى » من الملحدين ؟؟ وإذن .. فقد كان لزاما عليك ـ لو كنت قد قرأتنى كما قلت ـ أن تدحض مزاعم الاستاذ وليس ذلك بصعب على مثلك ؛ ولو لم يكن لى غير هذين البيتين أعاتب بهما أحد الكبراء :

أبعـين مفتقـرٍ إليك نظرتنى فأهنتنـى ، وقذِفتنـى من حالق

لستَ الملوم ، أنـا الملـوم لأننى انزلـت آمـالى بغـير الخالق !

لَكَفَتا ؛ برهاناً لا يتطاول أمامه أحد على نبزى بالإلحاد .

يا أبا عبد المحسن . الحق أقول لك . إني لم أرد الدفاع عن ايمانى لدن الاستاذ « الشمرى » أكثر مما أردت اعادة ثقة « الشامى » بنفسه ؛ وأن لا يخاف على سمعتى أكثر مما يخاف على الحق الذى يعلمه ؛ ولقد وفّقْتُ فسرعان ما عاد ذلك البشوش المراح وقال : « جُزيتَ خيراً يا أبا الطيب : لقد ذكّرتنى ، والذكرى تنفع المؤمنين ولقد اثبت أن من يقول بأنك

لم تأت فى شعرك على ذكر الله .. لم يقرأ كل شعرك ، وأضيف بأن الاستاذ « ذيبان الشمرى » حين قال : « أن المتنبى متشائم الفطرة ويرى الحياة تنتهى إلى درب مسدود » وحين قال : أنك « ملحد بحكم فطرتك » ، لم يكن مُنصفاً ولا منطقياً ، فأنا كمسلم أعتقد أن فطرتك مثل فطرة « التويجرى » بل و « الشمرى » ومثل فطرتى ، وفطرة كل انسان .. قد فُطِرَتْ على الخير والإيمان بخالق الإنسان .. فى أحسن تقويم » ، وبذلك نطق القرآن بقوله تعالى : « فأقِمْ وجهكَ للدين حنيفاً ؛ فطرة الله التى فَطَرَ النّاس عليها لا تبديل لخلْق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يَعْلَمُون » .

كما أنه لم يوفق حين قال : « فالمتنبى كما أرى لا يختلف عن « الوجوديين » الماديين الجدد ، « كسارتر » ، و « البيركامو » الّذَيْن يريان أن الحياة لا تقدم إلينا إلاّ الفشل والحبوط ، ولكن المتنبى يتجاوزهما الى القول بأن القوة المادية العارية ، قوة السيف والمخلب ينبغى أن تكون دستور التعامل بين البشر وهكذا تسمعه يقول :

لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم

ويقول يضا :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

ويقول أيضا ، وأيضا :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانّما نحن للأسياف كالخدم

ولا تشك الى خلق فتشمته   شكوى الجريح الى الغربـان والرخم !

ولا خلاف أن المتنبى يدين بفلسفة القوة ؛ كنيتشه ، الذى كان له اعظم الأثرَ فى الوجوديين الماديين » .

وسألت « الشامى » : وما هى « الوجودية » ؟ ومن هو هذا « سارتر » ؟ ومن هو « البير كامو » ؟ وما هو مذهبهم ؟ وإلى أيّ فرقة ينتمون ؟ وهل هم من الأشاعرة أم من المعتزله ؟ أم أنهـم « قرامطـة » ؟ أم هم من بقـايا « المانوية » ؟

فقال : يا أبا الطّيب ؛ يظهر أن الكاتب «ذيبان » ذو اطلاع واسع ، وله إلمام جيّد بفلسفة وآداب الأمم اللاّ إسلامية ، فى هذا القرن الذى يسمونه « القرن العشرين » ، وسفيرك لن يستنكف أن يعترف بجهله وسيصْدقك القول إذا زعم أنه لا يعرف شيئاً عن « الوجودية الجديدة » ؛ ولم يقـرأ « سارتر » .. ولا « البير كامو » غير أنى قرأت « نيتشه » فوجدت فلسفته المادية فى واد ، وحكمتك الانسانية فى واد آخر .. فأنت لم تمجّد القوة التى تتنكّر لمكارم الأخلاق ؛ بل كنت تمجّد القوّة التى لا تعتدى على الضعف ، والشدة التى لا تعبث بالرحمة ؛ وفلسفتك ان القدرة أو القوّة الخالصة من العجز والتقصير ، هى الحِلْم المحض الـذى لو أردت أن تجعـل السيف والبطش مكانه لقدرْت ، ولذلك فأنت تمجّد العفو والحنان عند المقدرة وترى أن افضل ما تتغلب به على الكريم هو الإحسان إليه إذا قدرت عليه ، ثم عفوت عنه ؛ ثم أن لباب الخير الأسمى هو وضْعُ الشىء المناسب فى محله المناسب ، وقد صُغْتَ ذلك صياغة شعرية رائعة ينبغى لكلّ من يقرأ شعرك

أن يفسر بها كلَّ ما قلته فى هذا الباب كما يُرْجع تفسير الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات .

رأيتك محضَ الحلم فى محض قدرةٍ ولو شئت كان الحلمُ منك المهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحرّ الذى يحفظ اليدا ؟!
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا ..!
ووضعُ الندى فى موضع السيف بالفتى
مضرٌ كوضع السيف فى موضع الندى

فهذه الأبيات وأمثالها ـ يا أبا الطيب ـ مما يدلّ على أنك لم تكن فيلسوفاً مادياً لا يؤمن « إلاّ بالسيف ودموية المخلب » بل حنيفا مسلما ، وعربياً أصيلاً ؛ لا تحث على العنف والشدة ، ولا تحذر من الضعف والخور ، إلاّ مع من كنت تقاتلهم فى جيش « سيف الدولة » من الكفرة والصليبيين ، وأعداء الإسلام وهذا ما ينبغى أن يتذكره كل من يريد أن يتحدث عنك ، وأن يعود ويرجع إليه أولئك الذين لا يروون من أشعارك ، ولا يتداولون من أقوالك الحكيمة إلاّ ما قلته فى المناصبين للإسلام ودولته ، وفى الجبارين والمنافقين ، وكأنها إنما تصدر عن « وحش لئيم لا يقيم للإنسانية وزناً كما يقول « القصيمى » ! وكل ذلك باطل فى باطل لا يصور فلسفتك ولا نفسيتك ، يا فارس « الخيل والليل والبيداء » وأبياتك العالية أصدق برهان ؛ كما أن وقفتك الإنسانية الرائعة من سيف الدولة بعد غارته المظفرة على « بنى كلاب » فى جمادى الآخرة سنة **٣٤٣** هـ . تمجّد الإحسان ، وتشجعه عليه ، وتحثه على الرفق والعفو والحنان وتقول :

فقاتَــلَ عن حريمهــم ، وفروا ندى كفّيك ، والنســبُ القرابُ
وحفظــك فيهــم سلفــى معّدٍ ، وأنهــم العشائــر والصّحاب
وكيف يتــمّ بأســك فى اناس تصيبهــم ؛ فيؤلمك المصاب ؟!
تَرفــقْ أيهــا المولى عليهمْ فإن الرفــقَ بالجانــى عتابُ !
وعــين المخطئــين هم ، وليسوا بأول معشرٍ خطئــوا فتابوا !
وأنــت حياتهــم غضبــت عليهم وهجــر حياتهــم لهــو عقابُ
ومــا جهلــتْ أياديك البوادى ولــكن ربمــا خفــى الصّواب
وكم ذنــب مولّــده دلال ، وكم بعــدٍ مولّــده اقترابُ !
وجــرم جرّهُ سفهــاء قوم وحــل بغــير جارمــه العذابُ !

وما قرأت ـ وكثيرا ما قرأت ـ شعراً يحتال على كسب الرأفة والرحمة ، ويمجد العفو والإحسان ، ويذكر القائد القادر المنتصر المظفر بمكارم الأخلاق الإنسانية ، وبالتقاليد العربية الأصيلة ، مثل هذه الأبيات التى لولا أنك كنت حنيفاً مسلماً متشبّعاً بتعاليم القرآن الكريم ومواقف رسوله ﷺ حين وضع الندى فى موضعه يوم « فتح مكة » ووضع السيف فى موضعه يوم « بنى قُرَيْظَة والنّضير » أسلاف السفاحين فى دير ياسين » ، و « صبرا » و « شاتيلا » .. لما قلت ما قلتَ فأجدت وأبدعتَ وأحسنت وكنت منسجماً مع قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معَهُ أشدّاء على الكفار رحماء بينهم » ومع قوله تعالى : « فإن تَولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » ومع قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصد ، فإن تابـوا

وأقاموا الصّلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » إلى غير ذلك من الآيات التى تحث على « القوة » وتمجدها مثل قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » إلى غير ذلك مما لو ذهبتُ أعدّد بعض أمثلته وشواهده من شعرك لعرف الاستاذ « ذيبان » « أنك قد اتيت على ذكر الله فى شعرك كثيرا . وأنك لم تخرج عن دائرة شريعة الإسلام حين حذّرت من « العدو » ودعوت إلى « القوة » وأنك لم تكن ملحداً ولا وجودياً بل حنيفاً مسلما .

يا أبا عبد المحسن : هذا ما قاله « الشامى » وكنتَ قد لمحت إلى بعضه فى رسائلك إلىّ ، تلميحات موجزة فيها ، أو فى بعضها من الغموض ما كنت أود أن احاورك من أجل تبيينه ، كما قلت فى مطلع هذه الرسالة التى لابد قبل أن أختتمها من أن أهمس فى اذنك شاكياً من « الفتى العربى » الذى شكوت أنت نفسك من أهوال ظروفه ، وفظائع أحداثه ، وتخاذل قادته : وتكالب أعداء قرآنه ودينه على مصالحه : فانّه كثيراً ما يلمزنى بأبشع الصفات ، حين يقرأ قولى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

ويقول عنّي بأنى وحش أثيم لا تجد الرحمة إلى قلبي سبيلاً : وتراه يصدر عليّ هذا الحكم القاسى متأثراً بأفكار أقانيم الإلحاد والصليبية والصهيونية

الذين ظلّوا مئات السنين يتامرون ليخلقوا هذا المستسلم الخائر الضعيف الذى جهل أن الله يحب المسلم القوىّ ويكره المسلم الضعيف ، ويجعل العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين .. وليس ذلك فحسب ؛ بل ترى هذا « الفتى العربى » الذى لم يعرفنى حق المعرفة ولا استوعب أسرار دين الله الحق وقوانين شريعته يتجاوز البيتين اللذين مهدت بهما للبيتين المذكورين : « ومن عرف الأيام . الخ .. » وهما :

مِن الحِلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعتْ فى الحلم طرق المظالم
وان ترد الماء الـذى شطـره دمٌ فتسْقى إذا لم يسق من لم يزاحمِ

فأنا لم أدعُ إلى العنف والشدّة ، ولا حذّرت من الأناة والحلم ؛ إلاّ إذا كان الحلم داعياً إلى ظلم الناس لك ولم يبلغ إلى العدالة والسلام ، بل زاد عدوّك ضراوة عليك واستهزاء بك وامتهاناً بحقوقك كما يفعل أعداء الإسلام بالمسلمين فى « فلسطين » و« أفغانستان » بل وفى كل مكان ..! ثم أنّ هذا « الفتى العربى » لا يتذكر أنّنى كنت أخاف عليه ما وقع فيه بعد ألف عام فيتصوّرنى وحشاً شرساً متشائماً ملحداً لأني قلت : :

ومـن عرف الأيام معرفتـى بها وبالنـاس روّى رمحـه غـير راحم

دون أن يقرأ البيتين السابقين ودون أن يلتفت إلى قولي فى نفس القصيدة :

أرى دون ما بين «الفرات وبرقة» ضرابـاً يمشى الخيل فوق الجماجمِ
وطعـن غطـاريف كأن أكفهم .. عرفـن الـردينيات قبـل المعاصم
حمته على الأعداء من كلّ جانبٍ سيوف بنى «طغج» بن «جُف» القماقم

هُمو المحسنون الكّر فى حومة الوغى وأحسن منه كرّهم فى المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنبٍ ويحتملـون الغــرم عن كل غارم

وهذا « الفتى العربى » من أبناء زمانك ـ يا عبد العزيز ـ لا يلتفت أيضاً إلى قولى فى نفس القصيدة اعرّض بذلك المتخاذل القابع فى عقر داره أو امارته لا يشارك فى قتال الأعداء ولا يمدّ جنود الإسلام بمال ولا رجال ؛ غير معطٍ لنسبه الذى يفاخر به قيمة ولا مقدارا :

وفارقـت شرّ الأرض أهـلا وتربة بهـا « علـويّ » جدّه غــير هاشم

مستندا الى قولي من قصيدة أخرى :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فما ذا الذى تغنى كرام المناصب ؟
إذا «علويّ» لم يكن مثل «طاهرٍ» فما هو ألاّ حجــة للنواصب !

وانت تعلم ـ يا أبا عبد المحسن ـ أننا كنّا محاطين بأعداء الإسلام من « يهود » و « صليبيين » كما لا تزالون محاطـين ؛ فكنـت أحـارب دعـاة التخاذل ، وأحذّر من التوانى ، وأقول إذا كان الحلم والأناة سيؤدّيان إلى تغلّب « العدو » وهزيمة « المسلم » أمام جيوش البطش والعدوان فمن الحلم والحكمة والعزة والعدل أن نعاملهم بالقسوة والبطش ؛ لأن الحلم الذى لا يبلغ صاحبه حقه المشروع هو الاستسلام والذل ، والجهل معهما هو عين الحلم ؛ لأنه سيردّ العدوان ويقمع الطغيان ! وقد أذن الله للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والعدو ـ وهو ما كنيت عنه بالنّاس

- لن يرحم « المسلمين » إذا ظفر بهم كما فعل فى « دير ياسين » و « صبرا » و « شاتيلا » .. وكما لا يزال يمهد ويشحذ سكاكينه وخناجره لمذابح أخرى .. وما خرجت عن شريعة القرآن الذى يقول : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويُخْزهم وينصرْكم عليهم ويشْفِ صدور قوم مؤمنين ، ويذهِب غيظَ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . » ، ويقول : « لَئِنْ لمْ ينتَهِ المنافقون والّذين فى قلوبهم مرضٌ والمرجفون فى المدينة لنُغرينك بهم ثُمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا ، مَلعونين ؛ أين ما ثقفوا أخِذُوا وقُتّلوا تقْتيلا ؛ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنّة الله تبديلا . » وأين دعوتى الى الحزم والقوة والقسوة والشدّة على الأعداء من قول الله تعالى : « إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتّلوا أو يصلبوا ، أو تقطَّع أيديهم وأرجلَهُمْ من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خِزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم » .

يا صديقى عبد العزيز :

أنا على يقين أنك تعرف ذلك كلّه .. وإنى به كَمُهْدِي التمر إلى هجر : ولكن كأنّى بقوم ممن لم يقرؤا شعرى قراءةً جيّدة يقولون لسفيرى ساخرين : ومتى كان المتنبى من شعراء الإسلام الذائدين عن حياضه المنافحين عن راية دولته ..؟ فأودّ أن أذكرهم بقولي لأميري « سيف الدولة » وكنت معه نجاهد الصليبيين دفاعاً عن الإسلام ودولته الكبرى والتى « تشقى بها الروم والصلبان والبيع » :

أمـا لِلْخلافـة مَن مشفق على سيف دولتها الفاصل ؟

يعـــد عداهـــا بلا ضاربٍ ويسرى إليهـــم بلا حامل !
فهنّـــأك النّصر مُعطِيكه وأرضـــاه سعيك فى الآجلِ
فذى الـدّار أخـون من مومسٍ ، وأخـــدعُ من كفّـــةِ الحابل ؛
تفانـــى الرجـــال على حبها ومـــا يحصلـــون على طائل !

ولو لم أكن أؤمن بالخلافة الاسلامية ووجوب الذود عن دولتها وعزتها وقوتها لما قلت :

أن الخليفـــة لم يسمـــك سيفه حتى بلاك فكنـت عـين الصارمِ
فإذا تتـــوج كنـــت درة تاجهِ وإذا تختـــم كنـــت فصّ الخاتم
وإذا انتضاك على العدى فى معركٍ هلـكوا ، وضاقـــت كفـــه بالقائم

ولا قلت عندما أمدّ الخليفة سيف الدولة بالمال والرجال :

صان الخليفـة بالأبطـــال مهجته صيانـة الـذكر الهنـدى بالخِلَلِ ،
قد عرّض السيف دون النـازلات به وظاهر الحزم بين النّفس والغِيَلِ

وقلت فى ذلك أيضاً :

إمـــام للأئمـــة من قريشٍ إلى من يتّقـــون له شقاقا
يكون لهـــم إذا غضبـــوا حساماً وللهيجـــاء حـــين تقـــوم ساقا

ولقد كره منى ذلك اعداء الإسلام المتربصون بدولتـه وازدادوا كراهية وغيظاً وحنقاً حين سمعونى احذّر سيف دولة الخلافة الإسلامية بقولى :

وهـــل تُغْنـــى الرسائـــل فى عدوٍ إذا ما لم يكُن ظبـــى رقاقا
إذا ما النـــاس جرّ بهـــم لبيب فانـــى قد أكلتهـــم ؛ وذاقا ..!
فلـــم أر ودّهـــم إلاّ خداعا ولـــم أر دينهـــم إلاّ نفاقا

ولم أكن أقصد إلاّ من عناهم الله سبحانه فى كتابه العزيز بقوله محذرا نبيه ﷺ وأتباعه المؤمنين : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون » وقوله تعالى : « يا أيهّا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنتم ، قد بدتِ البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

وما كنت أرى فى سيف الدولة إلاّ مجاهداً فى سبيل الله فكنت أخاطبه بمثل قولى :

وانت حسام الملك والله ضاربٌ وأنت لواء الدين والله عاقد

أو قولى :

فعوض سيف الدولة الأجر انه أجل مُثاب من أجلّ مثيب

أو قولى :

فمن كان يرضى اللؤم والكفر مِلةً فهذا الذى يُرضى المكارمَ والربا

أو قولى :

وأخلص الله للاسلام نصرْته وان تقلب فى آلائه الأممُ

أو قولى :

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والإسلام انك سالمُ

ولمْ لا يقى الرحمان حدّيك ما وقى وتفليقُه هام العدى بك دائم !

وقلت من قصيدة :

أيا سيف ربك لا خلقِهِ ويا ذا المكارم لاذا الشُّطَبْ

سبقت اليهم مناياهم ، ومنفعة الغيث قبل العطب
فخروّا لخالقهم سجّداً ، ولو لم تغث سجدوا للصلب !
أرى المسلمين مع المشركين : إمَّا لعجزٍ ، وإما رهب
وأنت مع الله فى جانب قليل الرقاد ، كثير التعب

أفيجوز لقائل عرف شعرى أن يدّعى بأنى كنت ملحداً .. أو لم أذكر الله كثيرا وقد قلت هذا ! ؟ وقلت مستسلما خاشعاً راضياً بقضاء الله وقدره :

والأمر لله رب مجتهدٍ ما خاب إلاّ لأنه جاهِدْ

وهل يكون « وجوديا » متشائماً من يقول :

لابدّ للانسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربهِ
نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه ؟
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هى من كسبهِ
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه
يموت راعى الضان فى جهله ميتة جالينوس فى طبّه
وربّما زاد على عمره ، وزاد فى الأمن على سربهِ
مثلك يثنى الحزن عن صوبه ، ويستردّ الدمع عن غربه
إمّا لابقاء على فضله ؛ إمّا لتسليم إلى ربّه ؟

وحتى عندما فخرتُ بنفسى ، وتطاولت ، لم أتجاوز حدود ايمانى بالله فقلت :

أنا الذى بينّ الاله به الأقـ دار ، والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها ، وغصّةٌ لا تسيغها السّفَلَةْ !

يا أبا عبد المحسن ؛ لعلىّ قد أطلت ومع التطويل الملل ، ولا يزال فى الصدر ما لا يسعه المسطور ؛ وليسأل الآن الأستاذ « ذيبان الشمرى » نفسه هل كان سيقذفنى بالإلحاد و « الوجودية » والوحشية ، لو قرأ هذه الآثار ؟ بله فلسفتى عن الحياة والموت ، والحق والمساواة والشجاعة والخوف ، وسائر الطبائع والعادات ، مما لم يفرغ النّاس ولن يفرغوا من التحدث عنه .

يا صديقى عبد العزيز : على قارئى أن يعيد ما « تشابه » من أبيات شعرى إلى « المحكمات » منها ؛ وأن يمعن النظر فى كلّ ما كتبته عنّى ، ومن عاند وكابر ، فلن يستطيع « سفيرى » أن يجادله أو يحاوره بأبلغ مما قلته فى مقدمتك لما قلت :

« وما أنت يا أبا الطيب فى كلّ ما قلته ، وقرأناك فى صوره ، وألوانه ، وسورة الغضب فيه والرضا ، إلاّ إحساس وشعور لم يهدأ ، ولم ينم طرفه ، أو يثو على رمال البلادة ، وأتربة الذّات القاحلة . ومن لم يرك هكذا فقد أجبته يا أبا الطّيب ، والجواب سقى كلّ فمٍ مريض جرعةً لم تستطع يده أن تردّها عن فمه المريض ، وتريقها على الرمال ؛ بل ظلّت سائرة مع السائرات إلينا . » . ! وإلى لقاء آخر .

جدة : ١٥/جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣/٣/٢٩ م .

إلى الفيلسوف الشمري

قـرأتُ مقالتـك فى ملحـــق « الأربعـــاء » العـــدد الرابـــع عشر - ١٤٠٣/٧/٢١هـ وقد كنتَ منطقياً بارعا فى مقاطعها السبعة .

أمّا - أولاً - فحين حدّدتَ « مهمّة السفير » ؛ ولقـد صغتَهـا بلغـةٍ سياسية مرنة ، تضمّ شتّى فنـون « الدبلومـاسية » فى إطـار محـكم يمنـع « تسلّلَ » مايعيث أو يبعث بحقيقتها ؛ وقديماً قالوا : « الحدُّ هو الجامـع لأفْرادِ المحدود من دخول غيره فيه » . ولاشكّ أنَّك لّما قلتَ : إن السفير البارع يقرأ التعليمات بأسلوب ، ويفهمها بأسلوب مغاير ، ثم ينفّذها بأسلوب يختلف كلياً عن الأسلوبـين قد كنـت « دبلومـاسياً » ؛ يحمّـل الكلمـة مالاتطيق أحيانا ، وربّما أفرغها من كلّ معانيها ، ولكنّه دائماً يحقنها بالدهاء البـارع ، والحيلـة الخفيّة ، وهـو ماسمّيتـه - أوسماه علماء الدبّلومـاسية « التفسير » أو «التعليل » والذى يبيح « القراءة » بأسلوب ، و « الفهم » بأسلوبٍ مخالف .. ثم - وياللْهول - « التنفيذ » بأسلوب مغاير .! .. ولولا خبرتك ، وسعة اطّلاعك لما تمكنت من هذا التصوير المثير البارع .. وأعتقد أنك قد مارستَ الحياة « الدبلوماسية » ودرست فنونها ولاسيا فى عصرنا هذا

الذى كثر فيه الفلاسفة والعلماء والبارعون ؛ وقلّ أصحاب الشرف الذين لا أشك أنك منهم « بقيّةٌ » ؛ فى عالمنا العربى ؛ كما لا أشكّ أنـك قد ضربت فى سوق الدبلوماسية بسهم وافر وعرفت عُجَرَها وبجَرَها ، وذقت حلوها ومرّها ، وحلبْتَ خيرها وشرها ، ولو جاريتك فى لغتك الظريفة الناعمة المهذبة لقلتُ : إنك قد رقصتَ فى أرقى مسارحها رقصات متقنة ، وبرعتَ راقِصاً ومراقصا ؛ تلفّ وتدور ، وتشدّ وترخى ، وتندفع وتجذب ؛ وتتشامخ وتنحنى ، لا تضيق بك نبرة هوى ، ولاتتعثّر بنغمة عَتْب ، ولايطغى انفعالك بعزفٍ مهما كان مثيرا ، تستقيم باسماً بين الأضواء ، وتتمايل هامساً تحت الظلال ، ثمّ .. ثم .. وكما قلتَ ياصديقى رغم أنفى .. « تقطف الثمرة » حين « تبلغ الشجرة » غير أنك لاتخلّف مَن راقصتَه « دائخا » .. بل مرحاً سعيدا .

نعم ياصديقى الذى أنْسِيتـه .. لا أشـك فى أنـك أستـاذ فى علـم « الدبلوماسية أو أنك قد مارستها طويلاً حتى أصبحت ابن بجدتها ؟ بل أبوها وعمها وخالُها وحموها .

وسامحنى حين قلت ـ ياصديقى رغم أنفى ـ وهو ليس تعبير دبلوماسى ولكنك تكرمت وسمّيتنى « الصديق العزيز » ولا أشك فى صدق صداقتك ومعزّتها ولكنى لا أتذكر أنّى قابلت شخصاً معيّنا اسمه « ذيبان الشمّرى ؟ وليس من المعقول أن يَنْسَى المرء شخصاً له علمك وأدبك ؛ وإذن فلقـد أنْسِيتُ ، ولم يُنْسِنِى الشيطان .. بل قدرُ من أقدار الرحمن لأمر لا أدريه .: ومع ذلك فصدّقنى أنّى وبشعور غامض قد أنِسْـتُ بهـذه « الحـروف »

الشين ، والميم ، والياء ، فى « الشمرى » والتى تجمع بينها وبين اسمى « الشامى » مخارج لسانية وشفوية حبيبة .. كما يأنس الانسان برؤية وجه حبيب فوجىء برؤيته بعد غياب طويل .

أقول - ياصديقى - : لقد كنت بارعاً فى تحديد « مهمّة السفير » ولا أقول فى زماننا هذا بل وعبر العصور .. وهل الدبلوماسية الاّ بنت السياسة أو حفيدتها والسياسة .. وما أدراك ماالسّياسة !؟ ألم يقل أمير الشعراء « شوقى » :

حتّى إذا وسعت معاويةً ، وضاق بها على ،

نزلتْ على حكْم القوىّ ، وتحت رأى الأحيلِ

ولكنك كنت كريماً بل مسرفاً فى التفاؤل وحسن الظن أو الصداقة والاعزاز حين قلت : « إن أبا الطيب المتنبّى قد حالفه التوفيق حين اختار أحمد الشامى سفيراً لامبراطوريته فى دنيانا » ؛ كما تواضعت اكثر من الّلازم ، بل كنت ظالماً لنفسك حين اعتبرتها من المتطفلين على الأدب والنقد .: لا . لا . فأنا لا أوافقك « أنَّ المتنبى كان موفّقا عندما اختارنى له سفيرا » ورحم الله امرءً عرف قدر نفسه .. وقد جربتها ،وعرفت فشلَها فى ميدان الدبلوماسية أو سوقها منذ أن ندبنى الامام أحمد أثر خروجى من « المعتقل » ممثلاً له فى « القاهرة » سنة ١٩٥٥م/١٣٧٤هـ ، وكان القدر يهيّىء أدوار المسرحية الحزينة ، ويدرّب أبطالها .. فلم أتمكّن من تطوير العلاقات بين « العَاهِلين » إلى الأفضل .. بَلْه أفضل الأفضل .: وحاولتُ أن أرقص ، وأن أراقص وبموازين شتى الأنغام والأوتار وقوانينها

و « نوتَاتِها » المعروفة ـ! والتى تدريها وتُتْقِنُها ـ فلم أوفّق ، وكنت أفاجأ بأصوات « جُوقةٍ » لا يجدى معها لفٌّ ولا دوران ، ولا ابْتِعاد ولا اقْتِراب ، ولا تتناغم مع دقاتها مشاعرى ولا أعصابى ، ولم أستطع بطبعى وثقافتى مسايرتها .. وفشلت وضرب القدر ضربته .؛ وكذلك كان حالى حين انتدبنى الامام أحمد ممثّلا لليمن فى « لندن » سنة ١٩٦١م/١٣٨٠هـ وكان يريد منّى تحسين العلاقات ولكن كان الوقت متأخرا ؛ فخابتْ كلّ محاولةٍ فى أن أرقص أو أراقص ، وعضَضْتُ أصبع الخيبة وأنا أنشد :

تقلّدتنــى اللّيالى وهــىَ مُدْبِرةٌ   كأنّنــى صارمٌ فى كفِّ منهزمِ

وعليه فقد أسرفتَ فى كرمك وأطريتنى بما لا أستحق حين قلت اننى « أستاذ السفراء أسلوباً ونهجاً فى الرقص والمراقصة » بل وبالغتَ فى الكرم لّما قلت : « الشامى الوزير والسفير سابقاً ، وسفير المتنبى اليوم ، وعميد الدبلوماسية ماضياً ، وحاضراً ومستقبلاً » ؛ شكراً شكراً ؛ يا صديقى الفيلسوف ، ولكن لا .. لا .. لا أوافقك على كل هذا أما ماضيا فقد كنت فاشلا وأما حاضراً فلستُ غير سفيرٍ مرشّح لشاعر كبير هو « المتنبى » لدن أديب حكيم هو الشيخ « التويجرى » ؛ وعلاقاتهما المباشرة أفضل علاقات تقوم بين بارعين تفكيراً وتعبيراً .. ومَن يدرى فأنا حتى الآن لم أتلقّ الموافقة على اعتمادى سفيراً وهناك إشاعة أن أوراق اعتمادى ستُسْحَبُ ، وربّما يُغيِّر المتنبى رأيه ويفضل تعيين الأستاذ أحمد محمد نعمان سفيراً لدى « الشيخ » نظراً لِقِدم وعمق صداقتهما ؛ وأعود أدراجى منشدا :

أتَــى الزمــانَ بنــوه فى شبيبته   فسرّهُــمْ ؛ وأتينــاهُ على الهرمِ

وأمَّا مستقبلاً . فالأمر كما قال فؤاد الخطيب :

من مُبلغُ القوم شطّتْ دارهم ونأتْ   أنى رجعتُ إلى كتبى وأوراقى

إلى آخر الأبيات ..

نعم ولقد أسرفتَ فى تواضعك ؛ فمن يقرأ ماتكتب من مواضيع فلسفية ، وعلمية وأدبيّة يلاحظ أنك كاتب قدير متمكن تملك كلّ أدوات الفنان البارع حين تدبج بيراعتك الساحرة ماتتحف به قراء جريدة « المدينة » وملحقها « الأربعاء » من مقالات ، ويشهد بأنك من أفذاذ مفكرى العرب وأدبائهم .

وماذا عن المتنبِّى ؟!

أما الحيثيَّات التى قلت : إنها لاتقبل الجدل ، ولاتحتمل اجتهاداً لأنَّها من المسلَّمات فقد تعلمنا من التاريخ بل ومن واقع الجيل الذى عشناه ولانزال نساير أحداثه مايؤيد ماذكر تَ ، ولا أستطيع أن أخالفك أن ثمة انطباعات معينة تتشكل على مرّ السنين أو مع تكرار الاشاعة عن أحد الناس أو الأشياء أو الأحداث ، بحيث يغمر ذلك الانطباع بظلاله كلَّ شىء آخر أو صفة أخرى ، وأنت قد أيدت ذلك بالمنطق والفلسفة ، وبقوانين تداعى المعانى البديهية ـ أو التى أصبحت من المسلمات عند الناس ، ولا أخالفك أن « المتنبى » لا يُذكرَ الاَّ وذِكُرَتْ معه أبيات القوة والعنف مثل قوله الذى أوردته مستشهدا :

لايسلم الشرف الرفيعُ من الأذى   حتى يُراق على جوانبه الدم

أو قوله :

والظلم من شيم النفوس فإن تجدْ ذا عفّةٍ ؛ فلعلة لايظلمُ

أو قوله :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصَّوارم

لاأجادلك فى هذا ولا فى قولك : « لا أعتقد أنَّ ثمّة قارئاً أو محدثاً أو سامعاً يتذّكر المتنبى إلاَّ ويتذكرْ القوَّة والثورة والعنف » ولكنْ الذى أريد مراجعتك فيه ، وأحاورُ وأداور وأناقش ، محاولاً إثباته ؛ هو أن المتنبِّى قد صُوِر بغير صورته الحقيقية ، وأطلقت عنه اشاعات باطلة قديماً وحديثاً وفى حياته وبعد مماته ، ولأسباب شتى ؛ منها مايتعلْق به شخصياً كإنسان له حسبه المجحود ، ورأيه المحارَب ، وطموحه المظلوم ، ومواهبه المحسودة ، ومنها مايتعلْق بغيره من سياسةٍ أو مذهب أو مبادىء ولا مجال لذكرها الآن .. وقد تعمَّد الراغبون فى تشويه صورته - أو تغييرها حسب أهويتهم - إبرازَها بشتَّى الألوان المؤثِّرة ، واستعملوا كل وسائل الإقناع كى يجعلوها صورته الحقيقية حتى أصبحت كما قلتَ : « حيثيات أحكام لاتقبل اعتراضاً ولا مجادلة ولا تقبل حتى بالقاعدة القائلة بوجوب افتراض براءة الذمة » ؛ وهنا الخطورة والكارثة بل وصعوبة مهمتى كباحث يريد إقرار الحق وزحزحة الباطل ، أو كما قلت بتعبيرك الفنّى : « فالأستاذ الشامى لم يكن فقط لبقاً فى العرض بل وكان أيضاً البارع فى إعادة تظهير النسخة الايجابية POSITIVE من صورة المتنبى إلى نسختها السلبية : NEGATIVE حيث يبدو الأسود من صورته أبيضَ والأبيض أسود » نعم ياصديقى إننى

أريد اظهار صورة المتنبى الحقيقية ، لا إعادة تطهيرها ؛ أريد عكس ماقلته تماماً ، أى تطهير نسخته السلبية إلى نسخته الايجابية ان صح التعبير .. وهنا سيكون عكس ماتصوَّرتَه وأوْردْتَ المثل ببراعة من أجل إقناع القارىء به وهو قولك : « الأمر الذى كان سيجعل من المستحيل حتى على المتنبى التعرف عليها أو الاعتراف بها بأنها صورته الحقيقية أو التى يريدها لفلسفته فى الحياة ولذاتيته ؛ فِطرةٍ وأخلاقاً وسلوكاً » .. نعم الذى سيكون هو العكس فقد حاولتُ فى مقَالى الذى تردّ عليه أن ابرز المتنبِّى فى صورته الحقيقية .. ولو راجعت المقال لأنْصَفتَنى ، وأنْصفْت المتنبى ، ورفضتَ كل الحيثيات والأحكام السابقة ، وستقول معى إن المتنبى حينئذٍ لو رآها لقال ؛ هذه هى صورتى ، وهذه هى فلسفتى فى الحياة ، وفطرتى كانت فطرة المسلم الذى يؤمن بأن العزَّةَ لله ولرسوله وللمؤمنين .

إننى أعترف بأن مهمتى صعبة ، فقد وَقَّفَتْ الاشاعات والأهواء ، ولأسباب كثيرة فى إظهار المتنبي فى صورة لو رآها نفسه لقال : إننِي أبرأ إلى الحق من هذه الصورة .. إنْها ليست صورتى ، ولكنى قد حاولتُ ، وقد اتصل بى أدباء أعتز بشهاداتهم ، وأقدر أذواقهم وقالوا لى : لقد قرأنا مقالك عن المتنبى وتغيرت مفاهيمنا عنه وأحكامنا عليه وسأحاول وأحاول مستعيناً بك ياصديقى الفيلسوف ، وأنا على يقين أنَّ مثلك لايمكن أن يكون إلا من عشاق الحق والانصاف .

ثم ياصديقى ـ وأنت الناقد البارع ـ هل مانسمعه أو نقرأه من أقوال ؛ تدلّ بالضرورة على أنها تمثِّل طبائع وأخلاق وفِطر وسلوك قائليها

ولاسيا الشعراء ؟ وقد وصفهم الله سبحانه بقوله : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لايفعلون » هذا سؤال ولا أريد أن تكمل التلاوة فتقول : « إلاَّ الَّذين آمنوا » .. ثم تقول لى : ألم تزْعمْ أن المتنبى كان حنيفاً مسلماً ؟ فأنا لا أريد أن أقول إن المتنبى لم يكن يؤمن بالقوة أو يدعو إلى القتال ، ويَحْذّر من السفلة والمنافقين وأعداء الاسلام .. وقد فصلْت الشواهد من كلامه فى المقال السابق .. ولكنى فقط أتساءل لأخْرجَ إلى سؤال ثانٍ وهو : لماذا أخذ الناس ـ ولاسيا المستشرقون وخصوم نَسَب المتنبى ـ تلك الصورة المشوهة عن « المتنبى » ومثّلوه وحشا بشرياً حاقداً أثيماً لا يعفو ولا يرحم ولا يؤمن بالله ! ولم يأخذوها عن غيره من شعراء العرب ، وقد تلقوا وسمعوا عنهم مايشابه ويجارى تلك الأقوال وماهو أبشع منها ؟ ولن أذهب بعيدا فأستشهد بأشعارٍ لبشَّار بن برد أو أبى تمام أو البحترى أو الشريف الرضى بل سأختار الزاهد العابد الذى صام طويلاً ولم يقبل هدية ، وتحاشى مقامات الخلفاء والملوك والسَّلاطين ولم يطلب إمارة ، بل وكان رهين « المحبسين » ، يحث فى شعره على الرحمة والعدل واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فسُمِّى بحق « شاعر الاسلام » أبو العلاء المعرى . أليس قد جارى المتنبى حين قال :

ومن يك ذا خليل غير سيفٍ يصادف فى مودَّته اختلالا

وحين قال :

كفى بخضاب المشرفيِّةِ مخبراً بأنَّ رؤساً قد شفِينَ ، وهامُ
فلا قول إلاَّ الطْعنُ والضرب عندنا ولا رسل إلاَّ ذابلُ وحسامُ

ولَّما قال من قصيدة طويلة :

أرى العنقـــاء تكبـــر أن تصادا فعانـــد من تطيق له عنادا
لى الشرف الَّـــذى يطـــأ الثريَّا مع الفضـــل الـــذى بهـــر العبادا
جهـــول بالمناســـك ليس يدرى أغِيَّابـــاتَ يفعـــل أمْ رشادا

وسؤال ثالث : هل فلسفة القوّة لا تتّفق مع شريعة الاسلام ؟ والقرآن الكريم يقول : « وأعدُّوا لهم مااسْتطعْتم من قوّة ومن رِباط الخَيْل ترهبون بِهِ عدوّا الله وعدوكم » . ويقول تعالى : « وقاتلوا المشركين كافه كما يُقاتلونكم كافّه » ، و « يَا أيهُا النَّبى حرِّض المؤمنين على القِتال » إلى مئات الآيات فى هذا الموضوع ؟ فهل من جواب ؟

هذا ياصديقى الفيلسوف ـ أولا ـ تعليق على ماسميته فى مقالك الرائع « الشكل » أما ثانياً ـ وهو ماسمَيته « الموضوع » والحديث عن « المتنبى » الانسان ، وطموحه ، وآماله الخائبة ، وحقده على البشرية ، وقلقه العاطفى وإعادة صورته الحقيقية .. فلا أظن أنَّ ماسيخصص لهَذا المقال فى ملحق الأربعاء من مجال .. سيتّسع لما فى الخاطر فإلى العدد القادم وفيه سنتحاور ثانياً .. وثالثاً .. وحتى .. سابعاً إن شاء الله ، ولك تقديرى .

بروملى ١٤٠٣/٧/٢٦هـ ١٩٨٣/٥/٩م

إلى الفيلسوف الشمري

فى الاسبوع الماضى ناقشت الاستاذ « ذيبان الشمرى » حول ما كتبه عن « مهمة السفير » وفلسفة القوّة والعنف فى شعر « المتنبّى » ومُمالأة بعض القوى عبر التّاريخ على تشويه صورته ، وطرحتُ عليه ثلاثة أسئلة أنتظر ردّه عليها .

وأودُّ اليومَ أن أقول : وأمّا ثانياً .. فى الموضوع » فانّى كنتُ قد أدركت أنّه لم يتعمّد ، ولم يردِ الحديث عن المتنبّى الشاعر إذ أنّه - كما قال « ليس بحاجة الى مقالةٍ » من أحد ؛ فالأجيال قد تَوّجتْه امبراطورا للشعر » .. وأنا لا أخالفه فى هذا التقدير لشاعرنا الكبير . غير أنّى .. وقد قرأتُ قوله عنه بأن شعوره كانسان كان « يمتزج طموحه الجموح بالثورة اللاّهبة ، وتغترف أو بالأحرى تمتح خيبات آماله المرارة المسمومة من بحار مظلمة تتلاطم أمواجها بالنّقمة والحقد على البشريّة والبشر الذين هم جميعا أصنام ولكنّهم يفتقرون إلى عفّة الصّنم » أودُّ برفقٍ ولين أن أراجع كاتبنا الفيلسوف ، وأن أتظلّمّ للمتنبّى ، وأزعم بأنّ فى هذا القول ومِنْ مِثلِه شىءٌ من القسوة والاغراق والتجنّى !

لا أخالف الاستاذ الشمرى ان المتنبّى كان طموحاً ، وأنّ طموحة كان جامحاً ، وأنّه كان ثائراً ومعتداً بنفسه ، ومتعالياً ومتشامخاً .

فالخيلُ والليلُ والبيدآء تعرفُه والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

ومن تكن هذه صفاته ، ولم يُبَلْ أن يتبجّح بها أمام أمير العرب « سيف الدولة » ، وبحضور الفارس الشاعر « أبى فراس » يحقّ له أن يكون طموحاً ، بل لابد ان يكون طموحه جامحاً ، وعداه الذمّ إن تعالى وتشامخ فهو لا يفاخر بجاه ولا نسب ولا حسب ولا جمال ولا مال ، بَلْ بالفروسية والكفاءة والعلم والادب . وله من كل ذلك نصيبٌ وافر .

وقد قاسى « المتنبّى » من جرّاء ذلك الطموح الجامح ، والمواهب التى امتاز بها على أبنآء جيله من الآلام والأتعاب ما أجاد وصفه فى شعره الرائع .. كلّ ذلك معروف ولا جدال فيه .. ولكنْ .. هل يجوز لنا أن نحكم عليه ، أو على سائر العباقرة الطامحين ، وأصحاب الهمم العالية عبر التاريخ الذين شقوا وسعدوا ، وفازوا وخابوا وصارعوا وناضلوا ، وانتصروا وانهزموا ثم شكوا أو تبرَّموا ، وتوجّعوا أو تألّموا ، أو دعوا الى الثورة على من اعتبروهم طغاةً ظالمين ، بأنهّم قد افعمتْ قلوبهم بمرارة الخيبة المسمومة ، وتلاطمتْ دخائلهم المظلمة بأمواج الحقد على البشرية جمعآء ؟ هل يجوز لنا هذا وديوان آداب العرب شعرا ونثرا مفعم بشواهد وأمثلة ذلك فَنَصِمُ كلَّ من شكا ، أو تبرّم أو ثار بالخَطَل والنقمة والحقد والوحشية ؟؟ أظنّ ان الاستاذ سيوافقنى على أن فى هذا الحكم المطلق شيء من الظلم سواء كان المقصود به المتنبّى أو غيره فى كلّ زمان ومكان ! وإلاّ لما كان هناك تقديرٌ لنصح ، أو

نقد أو احتجاج ، أو تحسين أو تقبيح .

ثمّ هل يجوز أن نَجْتَزىء بقولِ شاعرٍ ما ، في لحظةٍ ما .. وهو مغتاظ أو ثائر أو متألّم فنحكم بمنطوقه على فطْرتهِ وفلسفته وسلوكه ، دون أن نُعطىَ بقيّة شعره الذى قاله وهو منشرح الخاطر مطمئنّا ، أو سعيداً مظفّرا أىّ اعتبار ؟ ودون أن نحسب له حسابا ؟ وهل من العدل .. بل ومن المنطق العلمىّ أن نكتفى بمَثَلٍ أو شاهدٍ يدلّ على غيظ ونقمة قائله ، فنجعله مثلا لعقيدتِه وفلسفته وأسلوب سلوكه ، دون أن نستقرى كلَّ آثاره وسائر أقواله ؟ وقد أشرت فى مقالى الذى يعلّق عليه كاتبنا الشمرى ، أىّ رسالة المتنبى الثالثة الى الشيخ عبد العزيز التويجرى بأن على قارىء المتنبّى « أن يعيد ويُرْجع « ما تشابه » من شعره الى « المحكمات » من أبياته ، وربّما انى أوّل من اهتدى الى هذه الطريقة التى بها سنحل بعض المشاكل ، وهى كثيرا ما تعرض لنا ونحن نقرأ لِلعباقرة الأفذاذ أمثال « الامام على رضى الله عنه » أو « الزمخشرى » أو « المعرى » أو « الغزالى » .

وقد استشهد الكاتب الكريم على حقد المتنبّى على البشريّة بقوله :

أسيرها بينَ أصنامٍ أشاهدُها ولا أشاهد فيها عفّة الصّنم

ولو تأملنا مليّا ، ورجعنا الى القصيدة التى ورد هذا البيت العنيف فيها لعرفنا ان الشاعر المغتاظ المتألّم ، لم يقصد جميع البشر بل قوماً معينين ، والاستاذ يعلم ان المتنبّى قد قال هذه القصيدة الرائعة يذكر مغادرته لمصر ومفارقته لكافور ، ويرثى صديقه « فاتكا » وأنّه قد قال فيها :

لا أبغضُ العيسَ ، لكنّـي وقيـتُ بها قلبـى من الحـزن ، أو جسمـى من السّقم
طردتُ من مصر أيديهـا بأرجلها حتّـى مرقـن بنـا من «جـوش» و «العَلَمِ»
فى غلمـةٍ أخطـروا أرواحَهـم ، ورضوا بمـا لقـينَ ، رضا الأيسارِ بالزَّلَمِ
بيض العـوارضِ ، طعّانـون من لحقوا من الفـوارس ، شلاّلـون للنّعَم
فى الجاهليّـة إلاّ أن أنفسهم من طِيبهـنّ به فى الأشهـر الحُرُمِ

واستطرد فقال عن صديقه « فانك » يبكيه :

لا «فانَكُ» آخر فى مصر نقصده ، ولا له خَلَفٌ فى النّـاس كلّهمِ
من لا تشابهـه الأحيـاء فى شيم أمسى تُشابهـه الأمـوات فى الرمم
عدمتـه ؛ وكأنـى سرتُ أطلبه ، فما تزيدنـى الدنيـا على العدمِ

فمن يمّجدُ رفقاءَه هذا التمجيد ، ويقول إنهم قد حملوا أرواحهم على الخطر وقامروا بها ، وانهم فِتيان ، قتّالون للفوارس شجعان ، تطيب أنفسهم بالموت فى سبيل الحرية ، وتأنس اليه وتسكن ، ثم يذكر صديقاً قد مات ، ولم يعدْ فيه ما يُرجَى أو يُخَاف ؛ ويقول انه لم يبق فى مصر آخر فى مثل جودِه وكرمه وشجاعته ، ويتحسرّ ملتاعاً كيف أصبح من لم يجد له نظيراً فى الدنيا شهامةً ونُبلاً .. تشبهه الرّمم البالية ! وإنّه قد عدمه ، وكلّما فكر فى مخلوقٍ يماثله لا يحصل الاّ على العدم ؛ هل يجوز أن نصفه بالحقد على البشريّة ؟!

أليس فى هذا التقديـر والتّمجيـد للرفقـآء والأنصار ، والبكـآء على الأصدقاء ، والإشادة بمن مات شيء كثير من مكارم الأخلاق ؟ بل والوفاء

النادر وجوده بين البشر ؟! أفلا يجوز له بعد ذلك أن يشكو وأن يتوجّع من بعض البشر الذين آذوه وظلموه وجحدوا مواهبه وفضائله فيقول :

مازلتُ أضحَكُ إبلى كلّما نظرتْ الى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفّة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيفِ ليس المجد للقلم

وهو بالطبع ، ودليلِ السّياق لا يقصد غير « كافور »"وجو الزتة"؟؟ أظن الصديق الفيلسوف بما أتعشمه فيه من تقدير للحق وإنصاف للبرهان ، سيعدّل حكمة القاسى ، بل ولو أمعن النظر فيما يعانيه العرب والمسلمون فى « فلسطين » و « أفغانستان » وفى بلدان كثيرة .. وراجع تاريخنا الطويل مع الأقلام والكلام ؛ نثراً وشعراً ، لضاق ذرعاً ورفع صوته مع المتنبى ومعى ومع سائر طلاّب الحق : « المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلمِ » الى آخر الابيات .

وأنا لا أتحدّث عن شاعريّة « المتنبّى » شأنى شأن الاستاذ الشمّرى ، ولم أسمح لنفسى بسرد بعض أبياته وشرحها ، والوقوف قليلاً عندها الاّ لتأكيد ما ذهبت اليه من أنّه لا يجوز الأخذ بمفهوم بيتٍ واحدٍ نختزله من قصيدة لشاعرٍ دون أن نتأملّها كاملة ، ولا يجوز الحكم على فلسفةِ وفطرةِ وسلوكِ شاعرٍ بمنطوق بِضْعَةِ أبيات دون أن نحسب حساب سائر شعره ؛ ولو كنت أتحدّث عن المتنبّى الشاعر لقلت أن قصيدته « حتّام نحنُ نسارى النجمَ فى الظلم » بنجواها المؤثرة ، ووزنها الوقور ، وقوافيها الطروبة ، وبما

تضمنته من فلسفة وحكمة وتجربة انسانية وتقدير للفتوّة والرجولة والشهامة ووفاء للأصدقاء ، واحتقار للظالمين ، وتمجيد للقوّة من أروع قصائد الشعر فى تاريخ البيان العالمى ، وقد وقف الشيخ الحكيم عبد العزيز التويجرى مع بعض أبياتها وقفةً فلسفيّة رائعة ؛ ولأمرٍ ما لم يتحدّث عن جَعْجَعة القلم وهذيانه ، ومَجْدِ السيف وصرامته ـ وهو ربّ السيف والقلم ـ بل ولم يُورِدْ الأبيات المتعلّقة بهما !! ولأمرٍ مَا ، لم يتحدّث عن الوفاء والصدق فى قوله :

غاض الوفـاء فما تلقـاه فى عِدَةٍ ، وأعوز الصدق فى الأخبار والقسم

وهو يدرى ـ ان الامّةَ ـ أى أمةٍ ـ لا قيمة لها إذا غاض الوفاء ،، واعوز الصدق فى أخبارها وأقسامها ، بل ولأمرٍ ما ؛ لم يحاور المتنبى فى قوله :

نوهّـم القـومُ أن العجـز قرّبنا وفى التقرّب ما يدعـو الى التّهمِ

ولـم تزلْ قلّـة الأنصـافِ قاطعةً بين الرجـال ولو كانـوا ذوى رحم

وما أبشع صلف القادر حين يتوهم أن دافع من يتقربّ اليه هو العجز !! وهل كان سبب كل بلاء حلّ بالعرب وبالمسلمين الاّ قلّة الانصاف !

لو سُئِلتُ عن قصيدة تصلح أن تكون نشيداً قوميًّا واخلاقياً وسياسيًّا للأمة العربيةَ وفى ظروفها الحاضرة لما اخترت غير قصيدة « حتّام نحن نسارى ِ النجم فى الظّلم » .

ولقد بلغ كاتبنا الشمرى قمّة التأمّل والتحليل لطبائع البشر والسخرية بواقعهم المرير عندما يكون اعجابهم بمن يشتمهم أكثر من اعجابهم بمن يبكيهم أو يستبكيهم ! أتراه قصد وعَنى أنّ الذى يشتمهم ، يضحكهم ويسليهم ، ولا يكلّفهم واجباً ، لا قومياً ولا دينياً ؟! وذلك الذى يعجبون به

إذا أبكاهم أو استبكاهم اكثر من اعجابهم بمن يمدح فضائلهم أو يمتدح أحوالهم .. أتراه فاز باعجابهم لأنّ من يمدح الفضائل يحث على مكارم الأخلاق ويريد من الناس الالتزام بها .. ؟

وكيفما كان الأمر فأنا مع كاتبنا بأن اعجاب الناس بمن يستثير نقمتهم على الزمان والمكان والانسان أشد بكثير من كلّ اعجاب ! ولقد كان المتنبى فذًّا فى قدرته على استثارة المشاعر ، للتخلّص من غبن ، أو للمطالبة بحق ، أو للثبات فى وجه عدوّ .

وأمّا الحديث عن القلق والطمأنينة وما يطرأ على الانسان من تذمّر وشقاء ، وشكر ورضى ، واستشعار الوجل دون معرفة مصدره .. وما قاله علماء النفس عن الاحساس المكبوت بالاثم وان المتنبّى قد « ظلّ طوال حياته فريسة لأشد أنواع القلق شراسة وجموحا » .. فكلّ ذلك فلسفة .. ولا شك أن حظّ الاستاذ الشمرى من معارفها كبير بل ان ما قرأت له ـ وليس فى مقاله الذى أناقشه فحسب ـ بل وفى كثير من المواضيع التى يكتبها عن الطبائع ، وادواء المجتمعات ، وبعض الشخصيات العالمية علماً وفلسفةَ وأدبا .. يدلّ على انّه من علماء النفس وأرباب الفلسفة .. وحظّى من كل ذلك نزرٌ يسير ، فلو ناقشته أو حاورته أو جادلته ، لخَصَمَنِى ، وألقمنى حجَجَه وبراهينه . ؛ غير أنى فِطرةً واعتقادا أكره القلق وأتعوّذ منه صباحاً ومساءا ، وقد تعوّدْتُ على الاطمئنان النفسى الى قضاء الله وقدره والرضى بالواقع والاستزادة منه ان كان خيرا ، ومحاولة التخلّص منه ان كان شرا ، مستعيناً بقوّة الارادة وتذكّر العبر والصبر والايمان » ..

ولأنى قد عرفت القلق كأفظع ما يكون شراسة وجموحاً ، واستطعت معه أن احافظ على يقينى وايمانى بثابت؟الوجود العزيز الحكيم فاطر السموات والأرض الذى يعلم السرّ وأخفى ...

واذا كان الكاتب من اصدقائى القدامى ، وانَّ اسماً كريما يختفى وراء اسمه الصحفى ؛ فلا شك انه يعرف انى حلبت الدهـر اشطـره نعمـى وبؤسى ، وخيراً وشراً ، وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه .. وحتى ما قاله عن « المتنبّى » من طموح جامح ، وثورة لاهبة وخيبة مريرة وتعرّضت للمنون مرارا ، ولذلك فمن حقى ـ لا كفيلسوف أو عالـم نفسى ـ فحظـى من الفلسفة وعلم النفس حقير يسير بل كانسان مجرّب لا يُطْلَب منى اكثر من أن اعبرّ عن تجربتى التى اصبحت عندى حيثيّة مسلّماً بها لا تفتقر الى برهان أو تدليل ؛ فمن حقّى أن أدّعى أن النجبآء والمؤمنـين وأصحـاب المواهب السامية والمعارف العقلية من المسلمين ـ وانا اعتقـد ان المتبنـى منهم ـ لا يهتز إيمانهم ولا يتشكّلون ـ أو بتعبير ادق لا ينجرفون لوساوس الشك واليأس والقنوط التى لا ينجو من غزوها أحد ـ إذا ما ظُلِمـوا أو عُذّبوا ، أو أوذوا أو سجنوا أو جلدوا أو شرّدوا أو اضطهدوا .. وأن نفثاتهم اذا شكوا أو تظلّموا لأنفسهم وللبشر غيرهم لا يدلّ على اهتزاز فى الايمان أو حقدٍ أو نقمة على الانسانية ؛ والذين يقعون فريسةً للشك المدمّر والحقد والاثم والالحاد ، هم ضعفآء النفوس ممن لا يعرفون الله حقّ معرفته ، ولذلك يقدم بعضهم على الانتحار كما فعل الاديب فخرى ابو السعود والشاعـر خليل حاوى وزميلى الاستاذ على الجنّاتى غفر الله له .

ومن اجل ذلك فأنا اعلّل تهويلات فلاسفة الغرب الماديين مثل « هوبز » الذى قال بأن الانسان شرير لا ضمير له ولا وجدان ، و « شوبنهور » واضرابه بأنهم شذّوا عن فطرة الله التى فطر الخلق عليها ، وانهم لو عرفوا القرآن لما ضلوا ..

ان المسلم ـ وقد كان المتنبّى مسلما ـ لا يضعف ولا يجبن ولا يهلع الى الحدّ الذى يظنّه « الملحد » ؛ وأذكر كلاما نفيسا قرأته منذ عشرات السنين لأخد أفذاذ المفكرين ولا أذكر اسمه ولا فى أىّ كتاب قرأت كلامه ؛ وفحواه انه ينبغى للمؤمن إذا داهمته الهموم لما يخاف حصوله أو فواته أن يعلم أن الواقع قد قضى له بما يسرّه أو يوءه فعلى تقدير ما يسرّه لا معنى للحزن وعلى تقدير ما يسوءه لا دافع له فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ثم انه بالرضا سيرجو الخير وبالسخط سيزداد همّا وقلقا ..

أظن انّى قد جاوزت الحدّ ، وأسرفت فى الاستطراد ، وكان علىّ أن أتحدث عن المقطع الثالث من مقال الصديق الفيلسوف وهو « قلق المتنبّى » ومناظير الأدب الثلاثة : التاريخى ، والسيكولوجى ، والمنظور النقدى ، ولا مجال اليوم فالى الاسبوع القادم إن شاء الله .

إلى الفيلسوف الشمري

هل كان « المتنبّى قلقا ؟! »

فى المقالين السابقين ناقشت الصديق الأديب « ذيبان الشمرى » عن « الشكل » و « الموضوع » فى تعقيبه على نقدى لمقالته عن كتاب الشيخ عبدالعزيز التويجرى : « فى أثر المتنبى بين اليمامة والدهناء » ، ووعدت القراء بأنى سأتابع هذا النقاش ، فأقول :

وأمّا ثالثاً ، ورابعاً ؛ حول ماقاله الأستاذ عن شخصيّة المتنبّى ونفسيّته ، وترجيحه لتهمة ادّعائه النبوّة على الرغم من أن الكثيرين من النقّاد والكتاب قد حاولوا نفى هذه التهمة الباطلة عنه ؛ فقد تحدث الأستاذ عن ذلك بلباقةِ المستوثق مما يقول ، وإيجاز العالم الحصيف ولكن دون رحمة ولا حذر ؛ وقال : « إن طريقنا إلى فهم المتنبّى » والتعرف على شخصيته لا تتم إلاّ « من خلال مناظير ثلاثة » : التاريخى ، و « السيكولوجى » ، والنقدى .

وفى نظرة عابرة ألقاها على الحقبة التاريخية التى عاشها « المتنبّى » ، قال إنها كانت « عاصفة » وذكّرنا بأنها كانت « عصر تدهور الدولة العباسية وانحطاطها » ، وتمزّقها إلى « أمارات ومقاطعات » ، ومذاهب

شتى ، وحركات « شعوبية » .. « من صفاريين وبويهيينّ وعلوج وزنوج ممن ضربوا العرب بالذلّة والهوان » حسب تعبيره . وقال : ان المتنبّى قد انفعل وتأثّر بتلك الحياة العاصفة ، وانّه لم يقف من أحداثها موقف المتفرّج واننا نستطيع أن نفهم « من شعره وحكمته وحياته » إنّه لم يعش مغتربا عن عصره ولا منسلخاً عن حوادثه وأحداثه » . هذا موجز نظرته التاريخية وقد حرصت على اقتباس تعابيره دون أى تغيير ؛ وأنا لاأخالفُ الكاتب الصديق فى نظرته هذه ، ولا فى وصفه لطبيعة الحقبة التى عاشها المتنبى ، ولاأنكر أنه قد تأثّر بأحداثها ، بل وأثّر فيها .

ولكنّى أخالفه فى النتائج التى رجع بها من نظرته التاريخية العابرة ، وفى الأحكام التى أصدرها على « المتنبّى » واستنبطها من تلك المقدّمات . ولاأستطيع أن أقول معه بأن نفسيّة المتنبّى كانت « مرهقة للغاية » وان « طموحها الأليم » هو الذى دفعه الى المشاركة فى صنع الأحداث وأن القلق وبالمفهوم السيكولوجى هو الذى انتهى به إلى النزوع إلى الوثوب على شىء من الفتات المتساقط من بنيان الدولة العباسية حتى ولو كان ضيعة يستجديها ، أو ولاية يستعطيها » .

لا أستطيع أن أقرّ هذا ولاأن أوافق عليه ، ولاأجيز أن يحكم به لا على المتنبّى ولا على العباقرة والأفذاذ الذين عاصروه ، وعاشوا تلك الحقبة التاريخيّة التى عاش أحداثها « أبو الطيب » ، وأميره سيف الدولة الفارس العالم السياسى الشاعر أيضا .. فأتصوّرهم قطيعاً من المعقّدين نفسيّاً ، الحاقدين الملتاثين تفكيرا ، وعقيدة وسلوكا ، وكيف يجوز لى إقرار هذا ، أو

الموافقة عليه و « المتنبّى » قد عاش النصف الأوّل من القرن الرابع الهجرى كاملاً (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ) وذلك القرن وبالرغم ممّا قاله عنه الأستاذ الشمرى فى نظرته التاريخية العابرة ، وبالرغم من موافقتى على ماقاله ؛ فاننى أعلم ـ بل وأعلم أن الأستاذ الشمرى يعلم ـ ان القرن الرابع الهجرى قد تميّز فى تاريخ الاسلام بنهضة علمية وثقافية وعمرانية تدعو إلى الاعجاب ، وإذا كانت الخلافة العباسية قد أصيبت بالوهن ، وسبّب ذلك ظهور الدويلات التى أشار إلى بعضها (حاشا الدولة الصفارية فقد نشأت سنة ٢٥٤ وانتهت سنة ٢٩٠هـ) . كدولة بنى بويه ، والسامانيين ، والحمدانيين والاخشيديين والفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس ، فقد ساعد قيام تلك الدول على التوسع فى الثروة والعمران وانتشرت الثقافة الاسلامية ، وازدهرت فى هذا العصر ، وبرعاية تلك الدول وقد كان بعض رؤسائها وأمرائها من الأفذاذ ، وكثرتْ الترجمة من اللغات الأجنبيّة ، ورحلات العلماء ، ونشط التأليف ، ونضجت ملكات الباحثين فى شتى حقول المعرفة . ونظرة عابرة ـ ومن هذه الزاوية ـ الى تواريخ تلك الدول وتراجم أقطابها وعلمائها وشعرائها وأدبائها وفنّانيها ، وجهابذتها ، الذين كانت تزخر بهم مجالس و « بلاطات » أمرائها فى فارس والعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس والحجاز واليمن تدعو المتأمل الى الاعجاب والاكبار .. وحسبك أن منهم : ابن جرير الطبرى ، وابن الخياط ، وأبوهاشم ، والهمدانى ، وابن دُريد ، والقالى ، وابن عبّاد ، وابن العميد ، والمعرّى ، والخيام ، وابن سيناء ، وابن هانىء الأندلسى ، وجوهر

الصقلى ، وابواسحق الصابى ، والشريفان الرضى والمرتضى ، والأصفهانى ، والخوارزمى ، وبديع الزمان والفارابى واخوان الصفا وثابت بن قرّه والرازى ، والجهشيارى ، والصولى ، والمسعودى ، والمئات غير هؤلاء من المفسرّين والمحدثين والأطباء والمهندسين والقادة العسكريين والثوّار الدعاة عدا الشعراء الذين يأتى فى طليعتهم « المتنبّى » أكبر شعراء العربيّة عبر العصور .

ولكن مالنا ولهذا ؟ ولنبق عند النظرة التاريخية التى نظرها الأستاذ الشمرى ووافقته عليها ؛ ولنتساءل هل كان « المتنبّى » قلقاً وبالمفهوم « السيكولوجى » الذى يعنيه علماء النفس والذى لاشك أن الأستاذ الفيلسوف قد عناه ؟

أما الأستاذ الصديق فقد حكم جازماً وبلا رحمة ولا حذر ، بأن المتنبى كان قلقاً فقال : « كانت للمتنبى نفسية مرهقة للغاية » و « كانت نفسيته فريسة للقلق الذى انتهى به الى استجداء ضيعة من كافور » ؛ و « ان تطلّعه الى الحكم كان محاولة من محاولات التخفيف من آلام القلق الذى يعذّبه » ، وانه كان « فى نفسه ثمّة نازعٌ جبّار ينهشه فى يقظتِه وسباته » ومعنى كل هذا ، وإلى جانب ماسبق أن ناقشناه فى المقال الثانى « من أن أبرز أمراض المتنبّى وأشدها إيلاماً هو القلق ، الأمر الذى يعنى الاضطراب العقلى والعاطفى الدائمين أى استشعار الوجل دون معرفة مصدره علماً بأن علماء النفس يجمعون على أن الاحساس بالقلق ينشأ عن احساس غامض أو مكبوت بالاثم والخطيئة » ! ومعنى كل هذا أن « المتنبى » كان مجنوناً

حاقداً آثماً ملحدا والسلام .

ولا شك أن القارىء إذا كان قد قرأ مقالتى التى ناقشها الأستاذ الشمرى والتى برهنتُ فيها وبأدلّةٍ من كلام المتنبى بأنه كان حكيما شجاعاً مسلماً حنيفاً لايحتكم إلاّ إلى الله ، ولا يعبد سواه ، وانه كان من حماة الاسلام المدافعين عنه بلسانه وسيفه ، وانه كان عالماً صبوراً كريماً يمجّد مكارم الأخلاق ويدعو الى وضع الأمور فى مواضعها ، وكنت أظنّ انى بذلك قد أعدتُ للمتنبّى صورته الحقيقية ، واقنعت الأستاذ الصديق ولا حاجة بى الى اعادة سرد تلك الشواهد والأمثال ، ومجرّد قولى المؤيّد بالبرهان ، ان المتنبى كان حكيماً مؤمناً بالله يكفى لدحض كل شبهة تدّعى انّه كان فريسة للقلق ؛ لأن الحكمة والايمان لايتركان فى نفس الانسان متسعاً ، ولا مجالا لهذا الوحش الناهش الذى يسميه علماء النفس « القلق » .. وتمادياً فى تبيين البينّ ارجع الى شعر المتنبّى وأطرح على الأستاذ ذيبان هذه الأسئلة :

١ ـ أيجوز أن يوصف المتنبى بالقلق وهو حين هجا اسحق بن؟كيغلغ وقد بلغه ان غلمانه قتلوه ، يصفه بالقلق ويذمّه بتلك الصفة أبشع ذم فيقول :

قالوا لنا : مات إسحاق فقلت لهم : هذا الدواء الذى يشفى من الحمق

مازلتُ أعرفه قرداً بلا ذنبٍ صفراً من البأس مملوءاً من النزق
كريشةٍ بمهبّ الريح ساقطة لاتستقر على حالٍ من «القلقِ»

أفيكون قلقا من يعتبر « القلق » عيباً يُسَبّبُ الحمق ، ويدعو إلى

النزق ، ويجعل صاحبه طائشا لايثبت على حال ، ممن يتصفون بهذا النقص المشين ؟ أم أن مثل هذا القول لايصدر إلاّ مِّن يمجد الحلم والأناة والثبات والوقار ؟؟ .

٢ ـ أيكون من يصف أبا العشائر بقوله :

ليس إلاّ أبا العشائر خلقٌ ساد هذا الأنام باستحقاق
ثاقب الرأى ، ثابت الحِلْم لايقـ ـدر أمرٌ له على «إقلاقِ»

لايعرف الحلم ونفاذ الرأى والأناة والتعقّل ؛ بل أحمق حاقد قلق النفس ؟

أيجوز هذا وهو الذى فتح باب الحكمة على مصراعيه بقوله فى هذه القصيدة :

إلفُ هذا الهواء أوقعَ فى الأنفـ ـس ان الحمامَ مرّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ والأسى لايكون بعد الفراقِ

وقد قال ابو العلاء المعرى « ان هذين البيتين يفضلان كتاباً من كتب الفلاسفة لأنهما متناهيان فى الصدق وحسن النظام ولو لم يقل شاعرهما سواهما لكان له شرف منهما وجمال » .. وفيهما من الحث على الشجاعة والتحذير من الجبن وتهوين الموت مالايوجد فى غيرهما ؛ أفيقول مثل هذا قلقٌ حائر النفس يأكل احساسه القلق فى يقظته وسباته أيها الأستاذ الكريم ؟

٣ ـ أيجوز ان نصف « المتنبى » بالاضطراب العقلى والعاطفى والاحساس بالاثم والخطيئة وهو القائل فى مدح سيف الدولة :

إمــامٌ لِلأئمــة من قريشٍ الى من يتّقــون له شقاقا
يكون لهــم إذا غضبــوا حساماً وللهيجــاء حــين تقــوم ساقا

فيجعله « الامام » الذائد عن خلفاء قريش من « العباسيين » يتقدمهم الى اعدائهم ؛ فهو سيفهم الذى به يبطشون وساقهم الذى يعتمدون عليه إن هاجت الحرب .. ثم .. ولِثِقَتِه بنفسه لايبالى ان يجعل من هذا الامام ؛ « ممدوحه سيف الدولة » حاملاً لرسالةٍ يريد أن يبعثها الى اعدائه وحاسديه فيقول :

فابلــغ حاســدىّ عليــك أنّى كبابــرقٌ يحــاول بى لحاقا
وهــل تُغنــى الرسائــل فى عدوٍّ إذا مالــم يكُنً ظِبــى رقاقا ؟
إذا ما النّــاس جرّبهــم لبيبٌ فأنّــى قد أكلتهــم وذاقا
فلــم أر ودّهــم إلا خداعاً ولــم أر دينهــم إلاّ نفاقا

وقد قال الواحدى : ان تحميل المتنبى لمدوحه الرسالة الى اعدائه قبيح لولا قوله : « حاسدىً عليكَ » ؛ ولا شك ان الأستاذ الشمرى سيوافقنى على انــه لولا الثقــة بالنفس ، والاطمئنــان والايمــان ماتجــرّأ على ذلك ، ولاتساءَل مطمئنا واثقا :

وهــل تُغنــى الرسائــل فى عدوٍّ إذا مالــم يكن ظبــىً رقاقا ؟

وهــذا البيــت « مــن محــكمات » اشعــاره التــى يلــزم أن تردّ اليهــا « متشابهاته » فهو لايعنى عندما يتحدث عن لغة السيف الاّ « العدوّ » حسب قانونه الأصيل وهو :

ووضعُ الندى فى موضع السيف بالفتى:مضر : كوضع السيف فى موضع الندى

وكل ذلك لا يقوله قلق النفس متخبط مُلتاث العقل والعقيدة بل مؤمن شجاع وقور .. ولا يقال أن « المتنبى » حاقد على البشرية بقوله : إذا ما الناس جربهم لبيبٌ ..إلى آخر البيتين فإنما يقصد أناساً معلومين بصفاتهم وسلوكهم واعمالهم وأقوالهم ، ومثل هذا القول يجرى على ألسنة الشعراء فى كل زمان ومكان وها أنا الذى أدافع عن فطرة المتنبى وإنسانيته ـ وإن كان يرى أن من الحزم سوء الظنّ بالناس ـ قد صدر عنى ما يشبه أقوال المتنبىّ .. ومن ذلك قولي فى « حصاد العمر » :

أسفى أنّى عرفتُ الناسَ ، والكون وسرّهْ
خيره الوارفَ قد جرّبتُ ، والشرَّ ، وضرّه ،
وشربتُ المرَّ ألواناً ... وأدمنتُ أمرّه ،
وتضجّرتُ على الأرضِ ، وأضجرت الأسرّهْ
لم أجد فى الخَلْقِ من أخلصَ لِلخالِق سرَّه !
دون أن يخشى عقاباً ؛ دون أن يطلب أجرَهْ !

أفيجوز أن أرْمى بالحقد على البشر وسوء الظن بالخلق لأنى قلت هذا ؟؟ مع أنّي أقول فى قصيدة أخرى أذكر محاولة الاعتداء على حياتى :

ولى من الحب صوتٌ فى الضميرِ إذا
ضَلَلتُ هَمْهم حتى أعرف الرشَدا ،
لا اعرفُ الحقدَ إلا حين أنكره
ولا أكاد أجافى فى الورى أحدا

حتـــى الأولى قد سَعــوا ظلما لِسَفــكِ دمى
سامحتهـــم ؛ والأُولى دَلُّـــوا ، ومـــن رصدا ،
لقـــد رأيتهـــمُ صفـــر الوجـــوه ، وفى
عيونهـــم يتـــوارى الذنـــبُ مرتعدا
سأســـأل الله فى الـــدنيا لهـــم رشدا
وأرتجـــى رحمـــة يوم الحســـاب غدا . ؛

والشواهد كثيرة ولو استرسلت لتعددتِ الأسئلة ولكن حسبى هذا .

ثم ، نحن نعلم أن أبا الطيب هو الذى جمع شعره وقرأه على الناس أو قرأوه عليه عدةّ مرات وفى بلدان مختلفة وهو الذى كان يُملى على من قرؤا عليه ديوانه ، مقدّمات بعض قصائده بتواريخها حسب الترتيب فى شرح ديوان الواحدى ، وبذلك نعلم أن المتنبى كان شديد الإحساس بالتاريخ ؛ اليوم والشهر والسنة ، ومن يكون شديد احِساس بالتاريخ لا يمكن أن يكون قلقا ! لأن الإحساس بالتاريخ من صفات ذوي الأناه ، والذين يعتنون بغيرهم أكثر مما يعتنون بأنفسهم ، أو مثلما يعتنون بها . وقد قرأت مقالةً للاستاذ ذيبان الشمرى فى عدد المدينة الاثنين ٢٦ رجب/١٤٠٣ هـ . ٩/مايو/١٩٨٣ م حول « مذكرات هتلر » قرّر الاستاذ فيها انها مزورة ، بل قال أنه يعتقد أن هتلر ، لم يخط ولو كلمة واحدة من كلماتها ، وعلل ذلك بقوله : « وكان هتلر أيضاً من تلك الشخصيات التى تعيش فى حالٍ من « قلق دائم وتحفز وثاب » ؛ وإذاً فهل من يصبر على كتابة ديوانه عدة مرات ويهتم بتاريخ القصائد : اليوم والشهر والسنة ، يعدّ فى حال « قلق

دائم »؟؟ .

أمّا : هل كان المتنبى وضيع النسب ؟ وهل ادعّى النبوة ؟ إلى غير ذلك فإلى العدد القادم إن شاء الله .

برومل ١٩٨٣/٥/١١ م ١٤٠٣/٧/٢٨ هـ.

إلى الفيلسوف الشمري

لم يدع المتنبى النبوة ... بل دعا إلى الاصلاح .!

إنها مصارعة غير متكافئة .. هذا الحوار الذى يدور على صفحات « ملحق المدينة » . بيني وبين الاستاذ « ذيبان الشمرى » عن أكبر شعراء العرب « المتنبي » .

يقف فى جانبٍ كهلٌ مُصْحِرٌ بوجهه المعروف ، وصلعته البارزة ، واسمه الذى ليس له غيره ؛ وكأنّه شيخ يتهادى بعصا الإرهاق منحدراً فى عقبة الحياة .. وآخر مدرّعٌ باسمٍ مستعار اشْتُقَّ من أصلٍ مخيف ، وانتسبَ إلى قبيلة عاتية ذات شهرة فى تاريخ الصراع والفتن .. يقفُ فى الجانب الثانى . !

فإن غلط أو أخطأ هذا المتنكّر ـ وكلّ بنى آدم خطّاؤون ـ لم يُبل ، ولم يفزع ، وبات قرير العين ، ثم أصبح بين خلاّنه يسرح ويمرح بل وقد يتحدّث ضاحكاً عن هذا « الشمّرى » الذى غلط أو أخطأ مستفيداً من النقد ما يستعدّ به لجولةٍ أخرى .. وإن أحسن أو جاد ـ وكثيرا ما يفعل ـ ومدحه القرّاء وحمدوه بات منشرح الصدر ، وأصبح يسرح ويمرح بين أصدقائه وزملاء صنْعتِه يتحدث معجباً بألمعيّة ولباقة هذا « الشمرى » وربّما

بالغ فى الثناء والإطراء . !

وإن أخطأ أو عثر ذلك المصْحِر بلا قناع ولا خوذة حرب ـ وما أكثر ما يفعل ـ وانتقده الأصدقاء مشفقين ، ولامه الخصوم متشفّيين ، بات ساهر العين يعضّ أصبع الحسرة ، وأصبح كاسف البال يتوارى من سوء ما انتُقدَ به ؛ وإن أجاد أو أحسن ـ وقليل ما يفعل ـ فما أقلّ ما يُحمدُ ذلك الإحسان ، وما أنزر من يمدحه عليه ، وبات غير راض ، وأصبح يتملّص من ثناء المنصفين تواضعا واستحياء وخجلا .

والنّاس عادةً يتبرّعون بعبارات الثناء وكلمات الإطراء على من لا يعرفونهم .. ولكنّهم جدّ ضنينين بها على من يعرفونهم .. هذا مع أن المشهور المعروف المصْحِر لا يعدم الحاسدَ والحاقد والجاحد .. ولا سيما إذا كان خارجاً من معركة ، وغبارها لا يزال فى تجاعيد جبينه ، وبين أشفار عينيه ؛ وأما الذى لا يعرفونه فهيهات أن يكون له حاسد ، أو يبتَلىَ بجاحد .

ولعلّ هذا هو السبب الذى دفع هذا الكاتب الأديب الفيلسوف إلى التقنّع وراء هذا الاسم التاريخى المخيف « ذيبان الشمرى » .

أقول هذا بعد أن فرغت من قراءة المقطع الرّابع فى مقالة الاستاذ « ذيبان » عن « أبى الطيب » تحت عنوان : « ادعاؤه النبوّة » .

وأقوله ؛ لأنّ ما قرأته قد أثارنى ، وكاد يخرجنى من وقارى ، أو على الأصحّ من هذا الوقار الذى أتصنّعه منذ بدأتُ الحوار مع الكاتب « الشمّرى » ؛ وهو ما لم يتعوده قرّائى ، ولا عهدوه من قلمى ، بل ولا من .

لساني ، والذى كثيرا ما حثّنى على التزامه الكثير من الأصدقاء الحكماء ، وندبنـى إلى اتّباعـه المشفقـون علىّ من الخصومـات الأدبية والمذهبيّة والسياسية . وخشيتُ بعد قرائتى لهذا الكلام الـذى أثارنـى أن يغلبنـى الإنفعال فيجمح القلم ، وينفث بما لا يرضى الأصدقاء والمشفقين ، ويغرى المتربصين من الخصـوم على إرسـال التُّهـم وصبّهـا على رأسى الأصلـع المصحر ، وقـد يقـول أقربهـم إلى الرحمـة والإشفـاق ، أمـا كفـى هذا « الرجعى » « الأنانى » أن يظل كذلك منسيّا .. حتـى يعـرّض نفسـه للدفاع عن إنسانية » المتنبي و « دينـه » ؟ ومـاذا سيضـيره أن يكون « المتنبي » قلقاً ، أو ملحداً ، أو وحشاً كاسراً ؟ ألم يكفه أن « الشمّرى » قد اعترف بتفوقه كشاعر عبقرى ثائر قلق شغل الدنيا فى حياته وبعـد مماتـه ؟ ولماذا يصرّ هذا « الأنانـــى » « الرجعـــى » على الدفـــاع عن « المتنبي » وإنسانيته ودينه ؟؟! إنه يستحق أن يوصم بالعناد والتعصـب والغفول . و ..

مَنْ لم تفـــده عِبـــراً أيامه كان العمـــى أولى به من الهدى

نعم .. المشكلة أن الصديق « ذيبان » قد أثنى على « المتنبي » الشاعر وقال : « المتنبيّ ليس بحاجةٍ إلى مقالة منّى أو كتاب ، أو عِدّة كتب أضعها لتكريسه أميراً للشعر العربى ، فالأجيال قد توجته امبراطوراً للشعر ، وكان كلّ جيل من الأجيال يزيد درةً فريدة فى تاجه كامبراطـور ، وعبقريتـه كشاعر » ؛ وهو بهذا قد أراد أن يجرّدنى من كل أسلحتى ، وأن يسلبنى كل ما أريد أن أتخذ منه وسيلة للدفاع عن « المتنبى المظلوم » ، وأن أزعم أو

أدّعى أنّ الاستاذ الشمّرى أو من يقول مثل قوله لا يقدّر المتنبى كشاعر ، بل ولا يعرفه حق المعرفة !! أليس قد جعله « امبراطوراً » للشعر فى العالم ؟! وماذا يريد حتى « المتنبى » نفسه أكثر من هذا ؟؟

هذه هى المشكلة ؛ وهذا هو الحصار الرهيب الذى أطبق به علىّ هذا المصارع المدرّع المتنكّر ؛ وهذا هو سبب قولى : « إنها مصارعة غير متكافئة » وليس فقط لأنه متنكر وأنا مصحر ، أو أننى أطمع فى الثناء أو أخشى الجحود ؛ فما طرّ شاربى إلاّ وأنا قريع الخصومات الأدبيّة والفكرية والسياسية . ولأنى خبير بحيل الخصوم المصارعين ؛ والأكفاء منهم على وجه الخصوص كالصديق الفيلسوف « ذيبان الشمرى » ، لا استطيع إلاّ أن أدافع عن « إنسانية » المتنبى و«إيمانه » بل وأن أدّعى أنها سرّ عظمته « الشعرية » ! وأن أقول بصرامة وحزم : إنه لو لم يكن سليم الفطرة ، صادق الحس ، كريم الجرشي ، شريف النسب ، مؤمنا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن ، والذى يجُير ولا يجار عليه ، صحيح العقيدة شجاع الرأى يقدّس مكارم الأخلاق ، ما بلغ الشأو الذى بلغه « شعريّاً » ولما قال :

أنا الّذى نظر الأعمى الى أدبى
واسمعتْ كلماتى من به صممُ
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ..
ويكره الله ما تأتون والكرمُ
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى

أنـــا الثـــريّا وذان الشيب والهرمُ !

بل ولو لم يكن كذلك لما استحق لقب « امبراطور الشعر » والذى وضع تاجه على مفرقه المهيب ، الصديق الأديب « ذيبان الشمرى » .

هل ادّعى أبو الطّيب أحمد بن الحسين النبوّة ؟ .

يقول الأستاذ « الشمرى » :

« على الرغم من أن الكثيرين من النقاد والكتاب يحاولون أن ينفوا عن المتنبىّ تهمة ادعائه النبوّة ؛ غير أنّ تأمّلنا ـ أولا ـ فى عصره ومن ثمّ ـ أى ثانياً ـ فى نفسه ولا سيما فى طموحـه الجمـوح ، وثالثـاً فى « نرجسيّتـه » الطّاغية ، ! ورابعاً فى الوسيلة الوحيدة لتجميع الأنصار من حوله ، وخامساً فى فطرته المغامرة ، وسادساً فى تحدّره من عائلة وضيعة ، الأمر الذى يستثير فى نفسه كوامن الشعور التّعويضى ، وزخومة كلّ ذلك يضطرنـا للتسـليم بإدانته بتهمة ادعائه النبوّة حيث أن طبيعة « سيكولوجيّته ، المتمثّلـة فى طموحٍ شرهٍ أكولٍ إلى السلطـة ، وظـروف عصره المغـرية لكل مغامـر أو طموح ، وكون الدعوات ذات اللون الدينى هى وحدها القـادرة على استهواء البشر وتحشيدهم من حول الدعاة : كل ذلك يجعلنا نعتقد جازمين بأن سجنه فى المرّة الأولى ، ومن ثم فى المرة الثانية إنما حدث بسبب ادعائه النبوّة ، ولا سيما بسبب ما زعمه لنفسه من قرآن » ! هذا نصّ كلام الاستاذ أوردته دون تغيير ، ولم أحاول حتى إيجازه أو اختصاره وكان ذلك ممكنا ومستحسنا ، ولكن لأنّه كلام خطير ، ولأنه قد أثارنى ، ولأنّنى أرى أن من واجبى مناقشته والرّد عليه وليس دفاعاً عن المتنبي فحسب بل ولأسباب

أخرى ستتحدّث عن نفسها ، فضلت إيراده بنصّه وفصّه كاملاً غير منقوص .

وحكم الاستاذ الجازم بإدانة المتنبى يرتكز على ست دعائم ؛

الأولى ؛ النظرة التاريخية فى عصر المتنبى .

الثانية ؛ التأمل فى نفسية المتنبى وطموحه الجموح .

الثالثة : « نرجسيّة » المتنبى الطاغية .!

الرابعة ؛ الوسيلة الوحيدة لتجميع الأنصار حوله [الدعوة الدينيّة] .

الخامسة ؛ فطرة المتنبّى المغامرة .

السادسة ؛ تحدُّر المتنبّي من عائلة وضيعة .!

وفى إمكانى أن أدّعى بأن الدعامتين الأولى والثانية قد انهارتا بما أوضحناه فى المقالات الثلاث السالفة والتى تثبت أن صورة المتنبى الأدبيّة قد شوهت بالإشاعات والأكاذيب وتشير إلى صورته الحقيقية ، وأن فلسفته عن القوّة لا تختلف عن الدعوة الإسلامية ، وحثّ الآيات القرآنية على التحلّى بالشجاعة والصبر والاستعداد بكل ما نستطيع من قوة ، وعلى الجهاد والقتال ، وأن طموحه الجموح كان طموح من يملك مواهب فطرية وعلمية وجسمانية من يملكها لابد أن يساهم فى أحداث بلده وقومه ودينه وسياسة دولته ، وأنه كان وفياً صبوراً ، شجاعاً ، يكره الظلم والجبن والنفاق ، ويمجّد العدل والإحسان ، ويدعو إلى الرفق ، ويقدس مكارم الأخلاق ومن تكون هذه صفاته ـ وقد أثبتناها من أقوال المتنبى نفسه ـ لا يمكن أن يكون طموحه غير مشروع ، أو طموح وضيعى النّسب

والمفسدين ! ولا أرى فى إعادة ذكر الشواهد والبراهين فائدة ، وفى إمكان الاستاذ أو القارىء مراجعتها .. أما بقية دعائمه التى ارتكز عليها حكمه الجائر على المتنبّى ، فسأحاول مناقشته فيها وعلى الله التكلان ومنه استمد العون .

نعم ؛ لقد قال الاستاذ « الشمرى » أن طريقنا إلى فهم المتنبّى لها ثلاث شُعب :

١ ـ المنظور التاريخى ـ ٢ ـ المنظور السيكولوجى ـ ٣ ـ المنظور النقدى ، وقد وقفنا مع منظُوره التاريخى ، ووافقناه على نظرته التاريخية العابرة ، ولكنا خالفناه فى النتائج والأحكام التى أصدرها وأثبتنا على أساس نظرته الجزئية أنه لم يكن حاقدا على البشر ، ولا قلقاً برِما بالحياة ، ولا مضطرباً عاطفياً أو عقلياً ، أو عقيدةً ، ولم يكن شرساً ولا ملحداً ولا منافقا ، وأن عصره الذى وصفه الاستاذ بأنه عصر تدهور وانحطط ساسى ، ومذاهب شتّى ، وشعوبيةٍ ضربت العروبة بالذل والهوان ، كان أيضاً عصر نهضة علمية وثقافيّة وعمرانية وأنه ـ أى القرن الرابع الهجرى ـ قد تميّز فى التاريخ الاسلامى بازدهار يدعو إلى الإعجاب ، وأوردنا أسماء جحاجحة من الإعلام الذين عاصروا المتنبّي؟وعاشوا نفس الأحداث التى عاشها ، وتأثروا بها وآثروا فيها ؛ وكلّ منهم قمّة فى علمه وأدبه وفنّه وعبقريته ،إذا نبغ أحدهم فى أمة من الأمم ـ غير العربية ـ ظلّت تفاخر به وتعتزّ وتهتم بتراثه عبر الأجيال والقرون . وبذلك اضمحلّ ، وتلاشى كلّما رآه من خلال ما سماه المنظور التاريخى وانهارت دعامته الأولى فى إثبات تهمته للمتنبى بأنه

ادعى النبوّة ؛ أو كان شاذاً .

السـيكولوجية :

ولكن الاستاذ « الشمرى » بلباقته ومعرفته لفنون الجدل والمصارعة الأدبيّة انتقل وبرشاقة المتقن لفنون المصارعة بل « والمراقصة » إلى منظوره الثانى الذى سماه « السيكولوجى » ؛ ونحن نعلم أن كلمة « سيكولوجى » ترجمة حرفية للفظة (Psychology) كما ينطقها الانكليز . ؛ وأن الفرنسيين ينطقونها (Phsychologie) ولا أعلم كيف ينطقها الألمان ، أو الروس ، أو الطليان ، فحظى من اللغات تعس ، ومواردى فيها ضحل ، ولا تلهج لسانى بغير العربيّة ولذلك ـ ولأسباب أخرى ـ أتجنّب استعمال ما قد أعرفه من الألفاظ والمصطلحات الأجنبية ، بل وأستثقلها وأضيق ذرعاً بها عندما أقرأها فى كلام غيرى ما لم يفسرّها عربيّاً ، وفى حدود معرفتى ـ فالسيكولوجيا ـ ؛ مذهبٌ يزعم أن النفس تتكوّن من عدد من القوى المستقل بعضها عن بعض وعن هذه القوى المختلفة تنشأ مختلف العمليات العقلية والتصرفات الخلقية والسلوكية ، وفى حدود علمى أن هذا المذهب أو العلم الذى كان له قيمته فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين « القرن الرابع عشر الهجرى » قد تلاشت أهميّته وهُجِرَ ، ولا يأخذ به علماء النفس الآن بعد ما تقدّمت بهم الأبحاث العلمية وتوغّلت تأملاتهم فى ملكوت السماوات والأرض ؛ وغاصت أبصارهم فى أعماق النفوس وأسرارها ، وأصبح هذا الذى كانوا يسمونه خبيراً « سيكولوجياً »

فى نظر عالم اليوم يبدو كما كان يبدو « المشعوذ » بالتمائم والرقى والطلاسم فى نظر المسلم العارف . وهذه « السيكولوجية » .. أو علم الشعوذة ليست جديدة على العرب ، فقد كانت معروفةً قبل الإسلام ولها أقطاب وخبرآء وحكايات وأساطير وهذرمات ، وقد حورب بها الإسلام من قِبَل أربابها وكهنتها الذين أنكروا الرسالة الإسلامية وكذّبوا محمداً ﷺ ، واستبعدوا إمكان تلقّيه للوحى ، وفى القرآن الكريم تصورٌ بديع معجز « لسيكولوجى » قرشِي . لو حاول أعظم فنّان يستلهم منها صورا يسجّلها فى « فيلم » متحرك لأخرج أروع مثال للعنيد اللدود ؛ فذلك الذى ذهل أمام بلاغة القرآن وقوّة تأثيره ، ونصاعة حجّته ، وشدّة أسرِه وحلاوة تعبيره ، وطلاوة بيانه ، وأراد أن يعلّل ذلك تعليلاً مادياً بحتاً لأنه لا يؤمن بالله ، ولا يؤمن بالوحى والإلهام ولا يعقلهما، ويربط المسبّبات بعلل مادية وتاريخية وتفاعلات الأحداث والأزمات والظروف الكونية والنفسية المختلفة ؛ ذلك القرشّي « السيكولوجى » الذى كانت « قريش » تلقّبه « الوحيد » و « ريحانة قريش » لرياسته ويساره وكثرة ماله وأولاده ووجاهته ؛ واسمه « الوليد بن المغيرة المخزومى » والذى أراد أن يحلّل ويعلل القرآن الكريم جاحداً مكذباً ؛ صوّره الله تعالى بالآيات التالية : « ذَرنى ومن خَلَقْتُ وحيدا ، وجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدودا وبَنِين شُهُودا ، ومهّدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلاّ إنّه كان لآياتِنا عنيدا ، سأرهقُه صَعُودا ، انّه فكّر وقدّر ، فقُتِل كيف قدَّر ، ثم قُتِل كيفَ قدّر ، ثم نظَرَ ثم عبس وبَسر ، ثم أدْبَرَ واستكبر ، فقال إن هذا إلاّ سحرٌ يُؤْثر ، إنْ هَذَا إلاّ قولُ البشر » .

وإذن : فكلّ دعوى باسم « التـاريخ » أو « السيكولـوجية » تحـاول تصوير « المتنبى » تصويراً لا يلتئم ولا ينسجم مع منطوق ومفهوم أشعاره التى توحّد الله وتمجده ، وتنوّه بمكارم الأخلاق وتوحى بمحبته للعدل والخير الأسمى ، وكراهيته للظلم بل وحقده على الظالمين ولا تتفق مع ما وصفه به معاصروه ومؤرّخوه من أنه كان آية فى الذكاء والفطنة ، ومن نجباء ودُهاةَ عصره ، وأنه نشأ فى بيئة صالحة بالكوفة ، ودرس طفلاً فى مدارس الأشراف الذين ينتسبون إلى أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ، وأن جدّته كانت من صلحاء الكوفيين دينا وخلقاً وهى التى أشرفت على تربيته وقد درّبته على الصدق والأمانة والوفاء وحب المجد ، وأوقدت فى قلبه الثورة على من ظلموه وظلموها ، كلّ دعوى من هذا النوع لا تثبت أمام النصوص ومنطق العقل والتاريخ . والذى أجزم به أن ذلك التدهور والانحطاط السياسى والاجتماعى الذى أشار إليه الاستاذ الشمرى ، وأن الفساد الذى عمّ المدن فاضطربت مقاييس القِيمَ ، وموازين الرجال ، وساد الأشرار ، وتوارى الأخيار ، ولم يعد الناس يكرّمون العقل والعلـم والفتـوّة والرجولـة وكرم العنصر ، بل يقدسون الجاه والمال ، ويعبدون البطش والجبروت ، هو ما دفع الشـاب الثائر الكريم الأصل ، الآخذ حظاً وافراً من علوم اللغة والأدب والفقه والفلسفة ، البليغ ، الخطيب الشاعر الأصيل أحمد بن الحسين المتنبي رحمه الله . إلى الثورة والخروج على السلطة مع أنه كان لما يتجاوز العشرين . وأنَّ الحاكم قد سجنه خشية من أن يتأثر الناس بدعوته إلى الإصـلاح والعدل والحكم بما أنزل الله تعالى ، وبعض أشعاره تدلّ على ذلك ؛ وقد

نأتى على بعضها ونحن نأتى على بقية القواعد التى ارتكز عليها حكم الصديق الكريم الفيلسوف ؛ ولا شك أنه يعرف جيداً سهولة تلفيق التّهم والقذف بالزندقة والخروج على الدين ، ضد الدّعاة والمصلحين ! وفى كل زمان ومكان ! وبهذا نكون قد اثبتْنا وبالمنظورين التاريخى و « السيكولوجى » أنّ المتنبّى كان من أفذاذ العرب والمسلمين عقلاً وحكمة وأخلاقاً وصحة عقيدة .

وأمّا « النرجسية » وما أدراك ما النرجسية » فلنا معها حديث قد يطول فى العدد القادم إن شاء الله فإلى اللقاء .

بروملى : ١٤٠٣/٨/١ هـ . ١٩٨٣/٥/١٣ م

إلى الفيلسوف الشمري

ولم يكن المتنبي « نرجسيا » ؛ بل كان بطلا مجربا أبيا

« النرجسية » لفظةٌ لم استعملها طيلة حياتى الأدبية لا شعراً ولا نثراً ، بل ولم أنطق بها فى حوارٍ أدبيٍ قط ، وما سمعتها فى نقاش ، أو قرأتها فى نقد ، إلاّ وضقت بها وبظلالِ مفاهيمها التى يحاول بعض الأدباء ـ ولا سيما من يزعمون أنّهم يجدّدون اللغة والشعر والتاريخ ـ فرضها على من يتحدّثون عنهم ، أو ينتقدون أعمالهم ، أو يحللون شخصياتهم .. ذلك لأنى أعرف أن بعض تلك الظلال لمفهوم « النرجسية » فى أذهان اولئك « المجدّدين » ، بعيدة عن واقع وصفات من يلزمونهم بها وبمفهومها « اليونانى » الأصيل ، ولا تنطبق على أيهّم فطرة وسلوكاً ، وتاريخا .

هذا كان حالى ، وأمّا اليوم وقد استعملها كاتبٌ عارف باللّغات يعنى ما يقول ، ناعتاً بها أحد عمالقة الفتوّة والشجاعة وإباء الضيم فى تاريخ الأدب فلابدّ أن أقف عندها أو معها .. لا منتقداً استعمال الصّديق الشمرى لها فهو عالم لغوي لاحظتُ إتقانه وبراعته حين يترجم الكلمات أو المصطلحات الفنّية والعلميّة إلى العربيّة فى كتاباته المتعدّدة الجوانب مؤرخاً أو سياسيّاً أو محلّلا نفسيا . ولا مُخَطّئِاً له فى نعت « المتنبي » بها إذا كانت صورته فى ذهنه

كما رسمها خصومه وأعداؤه ، وحاسدوه وذوو الأهواء والدخائل المريبة : ممّن تعمّدوا تشويهها وتلوينها برتوش منكرة على مرّ الزّمن حتّى كادت أن تصبح ـ ولا سيما فى عصرنا ـ صورته التى ليس له غيرها ، ولا يمثل أو يبرز إذا ذكر المتنبّي سواها كما فصّلنا آنفاً .

وإنّما أريد أن أؤكد وأثبت ما يعلمه كل من يعرف المتنبّي حقّ المعرفة أن طبعه وفطرته وأخلاقه وسلوكه وما نرويه من شعره وما عرفناه من تاريخ حياته طفلاً وشاباً وكهلا ، لا تلتئم ، ولا تنسجم ، ولا تتواءم ، مع هذه « النرجسيّة » بمفهومها الاخلاقى الذى عناه الكاتب الصديق ؛ وأن صورته الواقعية كإنسان مكتمل الرجولة ، ذكيّ الفؤاد ، واسع الاطلاع ، فارس طموح ، أبىّ مغامر ، مسلم شاعر ، مقاتل شجاع ، حكيم فيلسوف عرف الدنيا وخبر سرائر الناس ؛ وجربهم ألواناً وأشكالا ، وأكل طبائعهم وذاق ، وقاسى مرارة اليتم والظّلم والحرمان ، وجالس العلماء والملوك .. لا تقبل أن تنعت بصفة « النرجسية » وتأباها أشعاره والصفات التى نعتها به معاصروه وثقاة المؤرخين ، وشارحو ديوانه قديماً وحديثا .

وما هى « النرجسيّة » ?NARCISSISM

« والنرجسية » كما يعلم الاستاذ، قد فسرَّها بعض مؤلفى المعاجم العربية الانجليزية .. بالأنانية وحُب الذّات ، والشذوذ الجنسى ، وافتتان المرء بجسده . وهم مجمعون على أنها تعريب لكلمة : Narcissism المشتقة من : Narcissus « نارسِيسُوسْ » وهو شاب جميل تَزْعُم الأسطورة الأغريقية أنه افتُتِنَ بجمال صورته فى الماء ، فلَوَى جسده وتحوّل إلى « نرجسه »

[المورد تأليف منير بعلبكى الطبعة الثامنة] ، أما مجمع اللغة العربية فى القاهرة فقد عرّب الـ Narcissim النرجسية : « شذوذ جنسى فيه يشتهى الشخص ذاته منسوبٌ إلى « نارسيسوس » معبود عند اليونانيين يُزْعَم انه كان يعشق ذاته » . وهذا التعريب هو الأقرب إلى التفسير الانجليزى فى معجم « اكسفورد » للكلمة .

وإذن : فهل من المعقول أن نُلْبِسَ المتنبى وفيه من الفتوة والرجولة والتمرد والثورة والألم والفروسية ما نعرف ، هذه الصّفة : « النرجسية » التى تدلُّ على الغنج والتدلّل والنعومة ، وتراخى الطبع والشذوذ الجنسى ؟

ولقد استجسن الكاتب الكريم سكوتى عن اتهامه للمتنبى بالنرجسية فقال : « تجاوز الاستاذ احمد الشامى الردّ على اتهامي المتنبى بالنرجسية وحسناً فعل ؛ فالاستاذ الشامى يدرك تماماً أن النرجسية تلبس المتنبى روحاً ونفساً وفطرة ؛ فلقد تجاوز باستعلائه على البشر كلّ حد وأنشأ له هيكلا يعبد ويتعبّد فيه لنفسه » ! ثم استشهد مدلّلاً على اثبات اتهامه بأبيات يفتخر فيها بنفسه كقوله :

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأنّنى خير من تسعى به قدم

وقوله :

ولو لم تكونى بنت أكرم والدٍ لكان أباك الضخم كونك لي أمّا

وخلص الى القول بأن النرجسية « عندما تطغى كما طغت على المتنبى فإنه لا يعود يرى أى شيء فى هذا الكون إلاّ من خلال ذاته » ؛ « لأنه يصنع من ذاته مقياساً وميزاناً للكون والوجود . الأمر الذى ينتهى حتماً إلى

الاغتراب المتعالى والمهين للإنسانية والإنسان » وضرب المثل بقوله :

أنــا فى أمّــة تداركهــا الله « غــريب » كصالــحٍ فى ثمود

وقوله :

ما مقامــى بأرض نخلــة إلاّ كمقــام المسيح بــين اليهود

وقوله :

أسيرهــا بــين أصنــام أشاهدها ولا أشاهــد فيهــا عفّــة الصنم

ولقد كان الاستاذ الشمّرى متّهما بارعاً ولبقاً حين ادّعى أن المتنبى كان يعبد نفسه فلو صحت الدعوى وكان المتنبى قد جعل ذاته مقياساً وميزاناً للوجود والكون ، لكان افتخاره وتباهيه بمواهبه ومواقفه ، واعرابه عمّا يعتلج فى نفســه عن الوجـود وناسـه وهمــوم عصره « نــرجسيّة » وبالمفهــوم « السيكولوجى » المضاف إلى المفهوم الاغريقى القديم المستندإلى شذوذ الشاب الجميل أو المعبود الخرافى « نارسيسوس » ، ! ولو كان « اغتراب » المتنبّى صادراً عن « عبادة نفسه » لكان « مهيناً للانسانية والإنسان » . ؛ لكن شيئا من ذلك لم يكن .

وهذا يعنى أننى لا أختلف مع الصديق الشمرى فى الفكرة المنطقية أو القاعدة الأخلاقية وهى أنّ من يجعل من نفسه الأمّارة مقياساً للوجود وميزاناً للبشريّة يعتبر عند علماء السلوك أنانياً متعالياً متكبّراً والله لا يحبّ المتكبّرين ، وأنّ « اغتراب » من يعبد نفسه فى هيكله الأنانـى اغتـرابٌ « مهين للإنسانية والإنسان » ؛ كلاّ أننا لا نختلف فى هذا ، وإنّما أختلف معه فى صحة اتهامه للمتنبى ودعواه أنَّ تفاخره بنفسه وفضائله وتبـاهيه

بشرف نسبه وروعة شعره . كان لأنه يستعلى على كل البشر أو يعبد نفسه أو يريد أن يهين بنى الإنسان ، ودليلى هو نفس الأبيات التى استدلّ بها الاستاذ .. ولن أتناول الشاهد الأول وهو قول « المتنبى » :

ولـو لم تكونـى بنـــت أكرم والدٍ لكان أباك الضخم كونـك لى أمّا

فسأؤجل الحـديث عنـه إلى أن اتحـدث عن نسـب المتنبـى إن شاء الله ..ولكنى سأبدأ بالشاهد الثانى وهو قوله :

سيعلـم الجمـع ممـــنّ ضمّ مجلسنا بأننـى خـير من تسعـــى به قدمُ

وهو بيتٌ غريبٌ من قصيدة رائعة ، قالها المتنبى يعاتب أميره وصديقه سيف الدولة . لّما بدأ يضايقه متأثراً بمكائد الوشاة والحسّاد فى بلاط الأمير ومنهم الوزراء والأمراء والشعراء وقد أنشدها فى حفل حاشد يضمّ اولئك الخصوم وفيها إشارات حزينة مؤلمة إلى ضيقِهِ بالوشاة والحسّاد والمتشاعرين منهم ، وفيها توجّع من موقف سيف الدولة منه وتغيرّه عليه بعد ان قضى فى صحبته حوالى ثمان سنوات ، وهى أهنأ وأسعد فترة أمضاها مع أمير عربيّ أصيل امتزج به وخلطه بنفسه ، وشاركه فى محاربة الصليبيين والروم بلسانه وسيفه ، وكان يرى فيه صفات الفضائـل السـامية التـى يهواهـا ويريد تجسيدها فى العربى المسلم بعد أن عمّ الفساد اصقاع العالم الإسلامى ، ولابد أن يقدّر قارىء القصيدة شعور المتنبى بالمرارة والغيظ والأسى والحسرة وهو يعرّض لأميره الذى أحبّه وقَدّره بأنه لن يستطيع أن يتحمل أكثر مما قد تحمل من الكيد والجفاء ، وانه قد يضطر مكرها الى مفارقة هذا البلاط الذى ضاق به ذرعا ، مع أنه قد خدم صاحبه فى السلـم والحـرب ، والسيوف

مغمدة ، أو تقطر دماً ؛ فيقول :

يا من يعــزّ علينـــا أن نفارقهم وجداننـــا كلّ شيء بعــدكم عدمُ
ما كان أخلقنـــا منـــكم بتكرمةٍ لو أن أمـــركم من أمرنـــا أمَمُ

وكأنه يقول لأميره أنّنى جدير ببرك وتكريمك ، ولأننى أحبك وأقدرك فأنا أهل للتكرمة لا للجفاء وتصديق الوشاة والحاسـدين ؛ ثم يقـول معاتبـاً ومذكراً :

ان كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجـرح إذا أرضــاكم ألم !
وبيننا ـ لو رعيتم ذاك ـ معرفةٌ ؟ إن المعارف فى أهـل النهـى ذممُ
كم تطلبـون لنـا ذنبــاً فيعجزكم ويكره الله ما تأتــون والكرم !

وهذا تذكير بالذّمم التى لا يجوز أن تنقض ، واعتزاز بإخلاصه بل وتَحَدّ لسيف الدولة بأنه لن يستـطيع أن يجـد له ذنبـاً يستحـق عليه الجفـاء أو الاهمال ، وهو قول لا يستطيعه إلاّ الصادق القوّي الأمين ولو لم يكن المتنبي كذلك ، لقال له أميره : بل قد فعلت وفعلتَ !! والمتنبى لم يذكّر الأمير ويتحدّاه إلاّ بعد أن عاتبه بقوله :

يا أعــدل النــاس إلاّ فى معاملتى
فيك الخصـــام وأنــت الخصــم والحكم
أعيذهـــا نظـــرات منـــك صادقة
أن تحســب الشحــم فيمــن شحمــه ورمُ
ومـــا انتفـــاع أخـــى الــدنيا بناظره
إذا استـــوت عنـــده الأنـــوار والظلم

وبعد هذه النفثة الصادرة من قلب موجع صادق وبعد أن جعله أعدل الناس إلاّ في معاملته وعوذ نظراته الصادقة أن تخطى أو تغلط فتحسب الورم شحماً وسمناً ، وجعله الخصم والحكم ، ومجّد موهِبةَ التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والصدق والكذب ، والنور والظلام ، قال معتزا بنفسه وأدبه :

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صممُ
أنام ملءجفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

وما قال هذا الفخر إلاّ تمهيداً لضربته القاصمة التى قمع بها الحاسدين والوشاة بقوله :

وجاهلٍ مدّه فى جهله ضحكى حتّى أتته يد فرّاسةٌ وفمُ
إذا نظرتَ ينوب الليث بارزةً فلا تظنّن أن الليث يبتسمُ

ثم توطئةً لتعريضه بأنه لن يستطيع الصبر طويلاً ، وأنّه سيهاجر الى « مصر » وأن من سيتركهم ويودّعهم سيندمون ؛ فيقول :

لئن تركْنَ « ضميراً » عن ميامننا
ليحدثنّ لمن ودّعتهم ندمُ

وهو يأسف وسيحزن ولكن :

إذا ترحّلتُ عن قومٍ وقد قدروا
ان لا تفارقهم فالراحلون هُمُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديق به

وشرّ ما يكسبُ الانسان ما يصمُ

بالله عليك يا صديقي ؛ أيستطيع أن يبدع مثل هذا البيان شاذ « نرجسي » لا يعبد إلاّ نفسه ؟ أوَ يَخْطُرُ ببال « الأناني » المجنون بحبّ ذاته أن شر البلاد مكان لا يوجد فيه من يستروح إليه ويأنس بوده ، وأن شر ما كسبه الإنسان ما عابه وأذلّه ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أتصوّر ذلك !

وها هو بعد أن عاتب وافتخر وهدّد بالفراق ، يلتفت إلى « الزّعنفة » اللئام الأوباش ويقول :

بأيّ لفظٍ تقول الشعر زعنفةٌ تجوز عندك لا عربٌ ولا عجمُ !؟

وبمعرفة سبب نظم القصيدة ودافع انشائها ، وجوّ انشادها ، والانفعالات الوجدانية التى كانت تزخر بها نفس الشاعر ؛ نحكم بأنه كان طبيعيًا كأحسن ما يكون الإنسان الأبيّ القويّ الأمين . وانه لم يكن مستعلياً على البشر بل يتحسّسُ ويتلمسُ ويبحث عن مكانه الذى يليق بأدبه ومواهبه بينهم ، وفى بلاط أميره وصديقه الفارس العربى الكريم ، وكان يدافع عن نفسه ويتظلم لودّه ويعاتب أميره ، ويتألّم من مصير صداقتهما وسوء معاملته له ، وهو موقف انسانى رائع يقفه أيّ إنسان كريم صادق إذا شعر بخيبة أمل أو خوف أو جحود لم يكن يتوقّعهُ فى كل زمان ومكان ؛ وعندما هاجرت إلى « عدن » مع الصديق الشاعر « زيد بن علي الموشكى » ولحقنا بالاستاذين الصديقين « احمد محمد نعمان » ومحمد محمود الزبيرى تركتُ و « زيدا » رسالة لولي العهد الأمير أحمد [قبل أن يصبح إماماً] ليس فيها إلاّ هذا البيت :

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

أما الاستاذ « نعمان » ورفيقه الزبيرى فقد فضّلا بيت « البحترى » :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ جديراً أن أرى غير مُصبحٍ حيثُ أمْسِي

كان ذلك فى « تعز » قبل اربعين عاماً وبالتحديد فى جمادى الأولى سنة **١٣٦٣** هـ . **١٩٤٤** م والحديث شجون .

ولا شك أن فى البيت « بأنّنى خير من تسعى به قدمُ ـ رغم كل التبريرات التى أوردتها ـ مبالغة لا تُسْتَحَبْ ، وإغراق مشين ذوقاً وأدباً ، وقد قيل أن هذا البيت مدسوس عليه ، وهو غير موجود فى مخطوطة « ديوان المتنبى » التى بحوزتى وهى قديمة ، كما أن البيت لا يوجد فى النسخة التى اعتمدها العلامة عبد الرحمن البرقوقى فى شرحه للديوانُ ، ويقال أن الناقد الفذ امام الأدب العربى « مصطفى صادق الرافعى » هو الذى أشرف على شرح البرقوقى وأن معظمه من إنشائه ، وأنه كاتِبُ مقدماته ومن ألِفَ اسلوب الرافعى لا يستبعد أنه قد ساهم مساهمة ذات شأن فى مساعدة صهره وخال أولاده « البرقوقى » وأظن أن « العريان » فى كتابه « حياة الرافعى قد ذكر هذا ،ولو أن البيت للمتنبى لما أغفله مثل الرافعى ؛ ومهما يكن الأمر فإن الأدباء والنقاد العرب وعلماء البلاغة لا يسمّون هذا النوع من المبالغة فى الفخر والحماسة والمدح أنانية ، أو امتهاناً للانسانية أو « نرجسية » بل يسمونه إغراقاً ؛ وهو لم يقصد به إلاّ التباهى على اعدائه وخصومه وحساده الذين آذوه وظلموه وأفسدوا ما بينه وبين أميره وقالوا فيه

الأباطيل ، وللمتنبى مبالغات وشطحات فى الاغراق سواء عندما يمدح سيف الدولة أو عندما يتحدث عن طموحاته وأخلاقه ،ويفتخر بنفسه ؛ ولقد كان عندما يمدح يتمثل صفات الكمال الانسانى ويجسّدها فيمن يمدحه كأنه بذلك يريد أن يصوّر الحاكم المسلم المخلص لربه ودينه الحق ، السّليم الفطرة الكريم الأخلاق ، ولا سيما وهو يحسّ بها فى طبيعته ، وتخلق بها فى بيئته ، وتلقّنها من جدّته الصالحة ، وتعلّمها فى مدارس الأشراف ، وقرأها تاريخا ، وقَصَصاً ، وقرآناً : فى سلوك الأنبياء والأولياء والأبطال الذين يلزم على « المسلم » الاقتداء بأعمالهم : وبهذا الإحساس الفطرى ، والمعرفة الإسلامية ، والأسى والحزن على ما كان يعانيه العرب والمسلمون تحت حكم العبيد والشعوبيين قال :

غاض الوفاء فما تلقاهُ فى عدةٍ ، وأعوز الصدق فى الأخبار والقسم
سبحان خالق نفسى كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم .

فهو يستغرب خروج الناس عن « الفطرة » وحب مكارم الأخلاق ، ويتعجب من أن الله سبحانه جعل لذّته فى التزام تلك الأخلاق السامية ، ويسبحه ويحمده على ذلك ؛ فهو يلتذ بالدعوة إلى العزة ؛ وهى « لله ولرسوله وللمؤمنين » ، والأخذ بأسباب القوة ، وقتال الأعداء والمشركين والكفار ، والصّبر على معاناة الشدائد ومكابدة الخطوب ، ومقاساة الحرمان ، والأمر بالمعروف ، والاعتزاز والجهر بذلك والإعلان عنه ليس مكروهاً ، بل محبوباً كما قال محمد ﷺ عن تباهى « أبى دجانه » وتبختره فى ساحة الحرب : « إنما لمشية يبغضها الله إلاّ فى مثل هذا الموقف » ولو سمّينا شعر

الفخر والحماسة أنانية وحب ذات ، لحشرنا كل شعراء أباة الضيم والخوارج والصّعاليك والفرسان منذ عنترة بن شداد وحتى « البارودى » فى سرب « النّارْ سيسوسيين » وعشاق أجسادهم ، وعبّاد أشخاصهم . .

هذا ولعلي قد أطلت ، واستغرقت المساحة المحددة لمقال اليوم ، ولمّا افرغ من تفنيد اتهام المتنبى بالشذوذ ، و لمّا اتحدّث بعد عن دوافع طلبه للمال والضيعة والولاية ، ولا عن اسباب سجنه ، ولا عن شرف نسبه ، ولا لماذا اشتبه موقفه فى أرض نخلة بموقف « صالح » و« المسيح » عليهما السلام ، ولم اتحدّث بعد عن « اغترابه » واحتقاره لأصنام البغى والفساد من المماليك والشعوبيين ؛ فإلى الاسبوع القادم إن شاء الله .

بروملى : ٩/شعبان/١٤٠٣ هـ . ١٩٨٣/٥/٢١ م

إلى الصديق الشمري

« نرسسية » أم « نرجسية » ؟
« المتنبي » علوى النسب !
عمود صورة « المتنبي »

فى مقال الأسبوع المنصرم بينت أن « النرجسية » وبالمفهوم المتداول المأخوذ من اسم الشاب اليونانى الجميل الشاذ « نارسيسوس « لا يمكن أن تطلق على رجل كالمتنبى بفحولته وفتوته ، وطبيعة تربيته وبيئته ، ومصادر ثقافته ، وكنت أنوى أن اتحدث عن نسب « المتنبى » ومثله العليا وعلى من كان يحقد ، ولماذا ؟ وتأكيد إبطال الاتهام بأنه ادّعى النبوّة تاريخياً وانّه لم يتهم بذلك فى حياته ، وما قاله صديقه وشارح ديوانه « ابن جنى « عن تسميته بالمتنبى ، وما هى الأسباب الحقيقية للزجّ به فى السّجن ؛ لكن هذه التسمية « النرجسية » ما زالت تحز فى نفسى ؛ وهل سمّى العرب هذا النوع المعروف من الرياحين « نَرْجِساً » قبل اليونان أم بعد اليونان ،؟ وهل سمّى اليونانيون الشاب الجميل الشاذ الذى فُتِنَ بجمال صورته فى الماء ولوى جسده فتحوّل إلى زهرة بعينها ؛ وكانت معروفة لديهم ، كما هى معروفة لدينا الآن ؟ أم العكس هو الذى كان ؟ وهل اسم الزهـرة الأصيل هو « نَرْجِس » العربى أم « نارسيسوس » الأغريقـى أم أن له إسماً فارسياً آخر ؟

وبالعودة إلى « القاموس المحيط » للفيروزابادى نراه قد ذكر اللفظة فى مكانين :... فى مادة « رَجَس » فقال : والنّرْجس بفتح النون وكسرها معروف نافعٌ شمّه للزكام والصداع الباردين » ثم ذكر أن من غريب خواصه أن أصله إذا نُقع فى الحليب ليلتين ينفع « العنّين » ! وزاد فى « تاج العروس » أنّه معرّب : نَركس ِ ولم يذكر هل عرّب من الفارسية أم من اليونانية ، وكان « الفيروزابادى » قد ذكره فى باب الرآء فصل العين فقال « العَبْهَر » « النرجس والياسمين ، ونبتٌ آخر فارسيّته « بستان أفزُوزُو بهاء » وبهذا نفهم أن النرجس كان يسميه العرب أيضا « عبهر » وهم يطلقون العبهره على المرأة الممتلئة الجسم الجامعة للحسن فى الجسم والخلق . أمّا « القزوينى » فى كتابه عجائب المخلوقات ، فقد زعم أن النبي ﷺ قال : « شمّو النرجس فما منكم إلاّ من له بين الصدر والفؤاد شعبة من برص أو جنون أو جذام لا يذهبها إلاّ شم النرجس » ، ووصف الكثير من غرائب خواصه ، وعن « جالينوس » : الخبز غذاء البدن والنرجس غذاء الروح ؛ ولا يهمنى أن يكون الحديث الذى أورده « القزوينى » صحيحاً أو غير صحيح ، ونقده درايةً يدل على أنه موضوع ، والذى يهمّنى هو إثبات أن « النرجس » لفظة قديمة عرفها العرب وتتداولوها فى أشعارهم وأخبارهم قبل أن تترجم آداب وأشعار وأساطير اليونان إلى العربية حتى تسنّى لِعالمٍ أن يجد فيها حديثا شريفاً .. ومن التشبيهات التى شغلت علماء المعانى والبيان والبديع طويلاً البيت المشهور الذى أبدع به صاحبه صورةً فنيّة يعزّها النظير بين آداب الأمم لحِسْناء فاتنة مفتونة وقفت حزينة

حائرة تعض بأسنانها الناصعة البياض بنان كفّها .. الرَّخصة الناعمة ، ولآلىء الدمع تتساقط من عينيها الجميلتين على الخدّ الأسيل المورّد . فقال :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت وردا ، وعضّتْ على العنّاب بالبرد

والشاعر « البحترى » حين أراد اختلاس قبلة حبّ لم يخَفْ إلاّ مُراقبة « النرجس » فقال :

غضّى جفونكِ ياعيون «النرجس» كيما أفوز بقبلةٍ من «مؤنس»

وحين حاول أن يعرب عن انشراح صدره لحوار صديق ظريف قال :

ومفاكهُ عبقُ الكلام كأنّما يفضى اليك بلفظ فِيْهِ «النرجس»

وقد اعجب القدماء وتبعهم المحدثون بقول الحسين بن الحجّاج :

يا صاحبىّ استيقظا من رقدةٍ تزرى على عقل اللّبيب الأكيس
هذي المجرّة والنجوم كأنها نهر تدفّق فى حديقة « نرجس » ،
قوما اسقيانى قهوةً رومية من عهد قيصر ؛ دنهُا لم يُمسس
صرْفاً تضيف إذا تسلّط حكمها موت العقول ، إلى حياةِ الأنفس

ومن آخر ما قاله « المتنبى » قبل أن يفارق ابن العميد فى رحلته التى قتل أثناءها أبيات ارتجلها لما أحضر « ابن العميد » مجمرة محشوّة بالنرجس والآس حتى خفيت نارها والدخان يخرج من خلال ذلك :

أحَبُّ امرىءٍ حبّت الأنفس وأطيبُ ما شمّه معطِس ،
ونشر من الندّ لكنما . مجامره الندّ والنرجس
ولسنا نرى لهباً هاجَهُ فهل هاجهُ عزّك الأقعس ؟

ربّما أنى قد افرطت مستطرداً ، وأفضى بى فضول الكلام إلى ما هو بعيدُ

عن الموضوع ؛ وسأستغلّ هذا الفضول فأسأل الصديق اللّغوى المبين ؛ هل من الأفضل لو ابتعدنا بهذه اللفظة العبقة الشعرية الجميلة « النّرجس » عن ذلك المفهوم الاغريقى المستوحى من الكلمة : Narcissim « نارسيزم » ونترجمها ترجمة لاتشد بها عن أصلها الأسطورى اليونانى ونجعلها « النرسسية » بدلا عن « النرجسية » ؟ ونقول : فلان « نرسَسِى » أى مترف مدلّل شاذ يحب ذاته . ما رأيكم دام فضلكم ؟ وأنت خبيرٌ باللّغات أريب .

نسب المتنبى ، وعمود صورته :

جُلّ من تحدّثوا عن نسب « المتنبى » من القدماء يقولون إن أباه جعفى صحيح النسب ، وأنّ جدّته كانت همدانية ومن صلحيات النساء الكوفيات وقالوا : إن أمّه ماتت وهو طفل ، وأن التى أرضعته امرأة شريفة من آل على رضى الله عنه ، وقد خبط الرواة ـ وما أكثرهم ـ العشواء ؛ كلٌّ يزيد وينقص ، تمجيداً أو تحقيرا ، ومنهم الخصم والحاقد والمغرض والجاهل ، حتى جاء الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى فى جامعة القاهرة فزعم انه يريد أن « يداعب المتنبى » أو يداعب خصومه أو أنصاره ، ثم أفرط وأغرق فى مداعبته وعَبَثه ، وجاء من القول بما لا يقرّه بحث ، ولا يستند إلى دليل ، وإنّما هو محض التلاعب بالعبارات والألفاظ والآراء والخواطر ، كعادة الدكتور حين يريد أن يعبث أو يسخر ، وعندما كان عميداً للأدب فى الجامعة المصرية ، وقال ما قال فى محاضراته التى ألّبتْ عليه كتّاب المسلمين

والعرب .. وجرّت إلى صراع أدبيّ أُلّفتْ فيه عشرات الكتب ، وقد اعترف « الدكتور » نفسه بأنّه قد رجع عن الكثير من الآراء التى نشرها فى كتبه خلال تلك الفترة . ولات ساعة مندم ..

نعم لقد افرط وأغرق الدكتور طه حسين حين زعم بأن المتنبي « لقيط » لا يعرف لنفسه أمّا ولا أبا ، ولم يجد له حجّة يُسند بها تهمته البشعة ، إلاّ أن المتنبى لم يذكر أباه فى شعره ! وهى حجّة واهية ؛ فما كلّ من لم يذكر أباه فى شعره من الشعراء ـ وهم لا يحصون عدّا ـ لقيط ودعّى ! هل يعقل هذا ؟ ولو جاريتُ الدكتور طه حسين فى اسلوبه القديم الذى كان يخلب به عقول السذّج من تلاميذه حين يجحد مُتفلسفاً ، وينكر متعالماً الأنبياء والشعراء ويشكّك الناس فيهم وباسلوب سخِر منه مرّة الأديب الكاتب عبد القادر المازنى وانتهجه ؛ مُنكراً شخصيّة الدكتور طه حسين نفسه ومشككاً فى وجودها .. ولو أننى جاريت الدكتور طه فى طريقته وأسلوبه دون الرجوع إلى دليل تاريخى، أو رواية ثقة ، بل حدساً وتخميناً ، لزعمت أنّ ذلك العلوىّ الثائر الذى قُتل سنة ٣٠٣ هـ . هو أبو « المتنبي » وأن الحاكم العباسى أو عامله قد بطش بكلّ أسرة « الثائر العلوى » ومنع حتى ذكر اسمه ، ولم يبق لابنه الرضيع إلاّ جدّته « الهمدانية » التى هربتْ به إلى « الكوفة » وإلى حيّ المضطهدين من أرامل « العلويين » والفاطميين .. حيث أرضعته إحداهنّ ، وصارت له أمّا . أما قصة « العلوى الثائر » فقد رواها المؤرخ « الطبرى » فى كتابه « تاريخ الأمم والملوك » فى أحداث سنة ٣٠٣ هـ . وهو العام الذى ولد فيه أحمد بن الحسين « المتنبى » .. قال : ثم

دخلت سنة ٣٠٣ هـ . فيها ورد الخبر بأن رجلاً من الطالبيين ثار بجهة « واسط » وانضمّ إليه جماعة من الأعراب والسّود ، وكان للأعراب رئيس يقال له محرز بن ربَاح ، وذلك أنه بلغهم بأن صاحب فارس والأهواز والبصرة بعث إلى السلطان من المال المجتمع قِبَلَه ثلاثمائة ألف دينار حملت فى ثلاث شذوات فطمعوا فى انتهابها وأخذها ، وكمنوا للرسل فى بعض الطرق ففطن بهم أهل الشذوات ، فأفلتت منها واحدة ، ورجعت الاثنتان إلى البصرة ولم يظفر الخارجون بشىء ، فصاروا الى عقر « واسط » وأوقعوا بأهلها ، وأحرقوا مسجدها ، واستباحوا الحرم ، وبلغ « حامد بن العباس » خبرهم فوجّه من قبله « محمد بن يوسف » ، وضمّ إليه غلمانه وكتب إلى السلطان فأمدّه بلؤلؤ الطولونى فلم يبلغ إليه « لؤلؤ حتى قتل » الطالبى « ومحرز بن رباح » وأكثر الأعراب الخارجين معهما ، وأسر منهم نحو مائة أعرابي ، وكتب بالفتح إلى المقتدر وبعث بالأسرى فادخلوا « مدينة السلام » فى جمادى الأولى وقد البسوا البرانس وحملوا على الجمال فضجّوا وعجّوا ، وزعم قوم منهم أنهّم براء فأمر المقتدر بردّهم الى « حامد » ليُطلق البرىء فقتلهم أجمعين على جسر واسط وصلبهم » الطبرى ص ـ ٢٨ ـ جـ ـ ١٢ ـ .

فلماذا لا يكون هذا « الطالبى » الذى لم يجرأ « الطبرى » على ذكر اسمه لأن السلطان قد أراد ذلك ، هو والد « المتنبّي » ؟ ولماذا لا يكون أهل « المتنبي » وجدّته قد كتموا عن الناس أن « المتنبى » هو ابن ذلك الثائر العلوى خشية من أن تمتد إليه يد القائد القاسى الذى لم يفرّق بين

المذنب والبرىء ، وصلبهم جميعاً ؟ ولماذا ـ وبطريقة الدكتور طه حسين التشكيكية وأسلوبه الأدبى ، والتاريخى ـ لا نجعل من هذا « الطالبى » الثائر أباً « للمتنبى » ونعلّل به الغموض الذى اكتنف حياته الأولى إن كان ثمة غموض ؟ .

لقد كان الدكتور طه هو أول من طعن فى صحة نسب « المتنبى » فى كتابه « مع المتنبي » ووصمه بشتّى التهم البشعة ؛ وأخرج له صورةً قبيحة ، لا تمت إلى المتنبي بصلة فقال أنه « لقيط وشاذ لأمر ليس فيه بد ؛ يشعر بالضّعة والضعف ، متشيع للعلويين قرمطىّ يحبّ سفك الدماء حانق حاقد على المجتمع ، جبان ، فلسفته هراء ، مغرور بنفسه عبد للطمع والمال ، ذليل مهين لم يكن صاحب مذهب ولا رأى مضطرب متلوّن » .

وهذا هو خلاصة ما يخرج به القارىء من كتاب الدكتور طه عن المتنبي ، وقد فنده وردّ عليه العلاّمة الكاتب الناقد المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه القيم « المتنبى » الطبعة الثانية فى « سفرين » وهو أفضل ما قرأته عن شاعر الإسلام « المتنبي » .

ولا شك أن الصديق الكريم ذيبان الشمّرى قد استوعب « المتنبى » وقرأ معظم شروحه كما أنى لم أتجاوز السادسة عشر من عمرى إلاّ وقد استخرجت من ديوانه كل ما قاله فى « الحكمة » ، وعندما نشبت المعركة الأدبية بين الصديقين الأديبين الشاعرين زيد بن علي الموشكى ، وعلي بن عبدالله الديلمى على صفحات « البريد الأدبى » المجلّة الخطية التى كنا نصدرها اسبوعياً فى « صنعاء » و « تعز » و « ذمار » سنة ١٣٦٦ هـ/

١٩٤٧ م ؛ حول المتنبي وشوقي وكان « الموشكى » يتعصّب للأول والديلمى للثانى وطال بينهما الجدل والحوار حتى ارتضيانى لهما حَكَماً ، وكتبت مقالاً طويلاً عن الشاعرين ؛ وقد ارضاهما ما قلته معاً ؛ وكنت لا أزال فى مطلع حياتى الأدبية وهذا يدلّ على أننى وثيق الصلة بالمتنبي أدبياً .. لكننى لا أدّعى أننى أعرف عنه أكثر مما يعرفه استاذنا محمود محمد شاكر ؛ وأظنّ الصديق الفيلسوف ـ وهو ممن يؤمن بالاختصاصات ـ يوافقنى على هذا . وإذن فلماذا لا نحكم الاستاذ شاكر فى أبراز صورة المتنبي الحقيقية وربما ترضينا معاً وتكون خاتمة هذا المقال المتشعب . يقول الاستاذ شاكر ص ـ ٦٦ ـ المتنبي السفر الأول .

عمود صورة المتنبّي

« وإذا كان ذلك كذلك ، فينبغى أن أبين « عمود الصّورة » الذى بني عليه هذا الكتاب كيف جاء وكيف تم . فهذا هو « عمود الصورة » التى يتخلق من حوله تخطيطها ، ومعارفها وقَسِماَتها ، والذى تكمن فيه شخصيّة أبى الطّيب منذ مولده بالكوفة ، ثم تنمو سنة بعد سنة على مرّ الأيام والأحداث ، فتفصح هى عنه ويفصح هو عنها ، بعد أن صار شاعراً تراه يغدو بها ويروح حتى يفارق الحياة .

١ ـ غلامٌ « علويُّ » النسب يولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ . ويقيم بها حتى يصير فتى إلى أواخر سنة ٣٢٠ هـ . [من ص ١٣ ـ ٧٦] .

٢ ـ خرج إلى الشام ، وفى باديتها أظهر أنّه « علويّ النسب » فقبض عليه وسجن ، وأقام بالسجن فى أواخر سنة ٣٢١ هـ . إلى سنة ٣٢٣ هـ . وهذا معناه : إبطال « النبوّة » التى زعموها فى الأخبار [ص ـ ٧٧ ـ ١١٦] .

٣ ـ خروجه من السجن ورحلته بعد ذلك إلى الشام منذ سنة ٣٢٣ هـ . وعودته إلى الكوفة سنة ٣٢٥ هـ . ورجوعه إلى الشام مرة أخرى فى سنة ٣٢٦ حتى سنة ٣٣٦ هـ . [ص ١١٧ ـ ١٨٠] .

٤ ـ أوّل لقائه بأبي العشائر الحمدانى ، ثم لسيف الدولة من سنة ٣٣٦ هـ . إلى سنة ٣٤٦ هـ . [من ص ـ ١٨١ ـ ٢٢٣] .

٥ ـ حبّ خولة أخت سيف الدولة ، ثم فراقه سيف الدولة إلى مصر من سنة ٣٤٦ هـ . إلى سنة ٣٥٤ هـ . وكانت فيها وفاته [ص ٢٢٥ ـ ٢٥٠] .

٦ ـ مجيئه إلى مصر ، وبقاؤه عند كافور الأخشيدى ، ثم فراره من مصر ، ورجعته إلى الكوفة ، ثم إلى فارس عند ابن العميد وعضد الدولة ثم مقتله ص ٢٥١ ـ ٢٨٩] .

٧ ـ شخصيّة أبى الطّيب : منذ كان بالكوفة طفلاً ، ثم صبيّاً ، ثم فتىً يعرف طرفاً من أنه علوىّ النسب ، ولكنّه مرغمٌ على كتمان هذا النسب ثم ثورة نفسه واضطرامها فى هذه المدّة ، ثم يفارق الكوفة إلى الشام ، فينفّس عن ثورته بإظهار علويته ، فيقبض عليه العلويّون ، ويحبسونه ، فيبأس من أمر علويته ، فتنقلب هذه الثورة إلى ثورة عربى ثائر لعربيّته على حكم الأعاجم الذين يسيطرون على دولة الخلافة كلّها فيظلّ بقية حياته إلى أن

يموت تحرّكه هذه الثورة لعربيّته ، فأفصحت هذه الثورة عن نفسها ، وأفصح هو عنها فى أبيات كثيرة من شعره ، وأفصحت هى عن نفسها بأساليب مختلفة : فى تركه مدح كثير من رجالات زمانه ، ممّن التّف حولهم غيره من الشعراء ، كالخلفاء فى زمانه ، أو فى حركة وجدانه التى يحدّدها تذوّق شعره على مدى أربعين سنة من سنة ٣١٤ ألى مقتله سنة ٣٥٤ هـ . تخبو حيناً أذا لم يكن له فى الذى يمدحه رجاء يرضى هذه الثورة العربية الكامنة فى نفسه ، وتتألق حينا آخر تألّقاً ظاهراً حين يكون له فى ممدوحه رجاء يحرّك هذه الثورة أو يدنى من بلوغ اماله فيها ، هذا جانبٌ من شخصيّة أبى الطّيب الذى أظهره تذوق الشعر وبعض الأخبار .

٨ ـ أمّا الجانب الآخر من هذه الشخصية ، وهى العواطف التى لا يخلو منها بشر ، كحبّ الأب والأم والجدّة وحبّ الزوجة وحبّ الولد والعيال ، وحبّ إمرأة بعينها يغلب حبّ هؤلاء جميعاً وينفرد بسلطانه على النفس = فقد استعلن حب الوالدين فى حبه لجدته كما استظهرته بتذوق الشعر وبعض الأخبار فى مواضع متفرقة من الكتاب = واستعلن حب الزوجة والولد والعيال كما تذوقته من شعره [ص : ٢٠٨ ، ٢٠٩] = واستعلن حب المرأة فى حديثى عن « خولة » أخت سيف الدولة ، كما تذوقته فى مواضع متفرقة من شعره ، وإن لم يكن فى أيدينا عنه خبرٌ البتّة » .

هذا هو « عمود صورة المتنبى » فى كتاب الاستاذ محمود شاكر وقد شرحها وفصّلها فقرة فقرة فى سفرين كبيرين ، أحيل أليهما من يريد معرفة « المتنبى » حق المعرفة ومهما حاولتُ أن أعبر عما تذوقته من شعر المتنبي وما

تلقفته من أخباره فلن أقول جديداً . غير ما سبق أن استنبطته من قوّة إيمان المتنبي بالله وصحة عقيدته ، ومناصرته لدولة الإسلام ، وما قد أعود إلى الحديث عنه حول سجنه وعلويّته ، وحرصه على جمع المال وطلب الولاية ، وعن الصّور الجمالية والإنسانية فى شعره .. فإلى اللقاء فى العدد القادم إن شاء الله .

بروملى ١٩٨٣/٥/٢٤ م ١٢/شعبان/١٤٠٣ هـ .

إلى الفيلسوف الشمري

معظم أقاصيص « المتنبئين » موضوعه : شعر المتنبي هو مفتاح شخصيته

القاعدة الرابعة التى ارتكزت عليها « إدانة » الاستاذ « ذيبان الشمرى » للمتنبى بأنّه ادّعى « النبوّة » بيّنها بقوله : « ورابعاً فى الوسيلة الوحيدة لتجميع الأنصار حوله « والدعوات ذات اللّون الدينى هى وحدها القادرة على استهواء البشر وتحشيدهم من حول الدّعاة ، وكلّ ذلك يجعلنا نعتقد جازمين بأن سجنه فى المرّة الأولى ومن ثم فى المرّة الثانية إنّما حدث بسبب ادعائه « النبوّة » ولا سيما ما زعمه لنفسه من قرآن » .

وبتعديل طفيف ـ لا اقصد به تلطيف تعبير الصديق الكريم أكثر مما أقصد به تصوير ما فهمته من هذا الكلام ـ وما أظنّه إلاّ قد عناه أو تصوّره عندما كتب مقالته ـ وهو أن النّاس عادةً يستجيبون إلى الدّاعية الدينى ، ويحتشدون حوله ، ويتعصّبون له أكثر مما يستجيبون لأى داعية سياسى ، وأن تاريخ الإسلام مثل تاريخ سائر الملل والنحل مفعم بأسماء الدعاة الذين استهووا البشر بدعواتهم الدينية فاحتشدوا حولهم ، وأنّ بعض اولئك الدعاة كانوا مضلّلين ودجّالين مثلما كان الكثير منهم صادقين مخلصين ؛ ذلك ما لا نزاع فيه ولا خلاف وعلى الأقلّ بينى وبين الصديق الشمرى ؛

على أن يكون من المفهوم عند الجميع أن هذه الدعوة أو تلك ليس من الضروري أن تتقمّص مسوح « النبوّة » فما أقلّ من ادّعى « النبوّة » فى تاريخ الإسلام ؛ ومعظم ما رواه القصّاصون من حكايات « المتنبئين » وما نسبوه إليهم من معجزات ، وسجعات تجارى آيات القرآن الكريم ، أقاصيص موضوعة قصد بها التفكة أو التندّر ، أو محاولة النّيل من كتاب الله ؛ وقد فرغ العلماء والأدباء من تفنيد تلك الأباطيل والأسمار ؛ وما أكثر الدعاة الدينيون المصلحون ، وأئمة المذاهب المجاهدون فى تاريخ الإسلام وقد التفّت حولهم الجماهير ، مخلصين ، كما قاسى الكثير منهم من الاضطهاد والتعذيب والتقتيل والتشرد ما هو معلوم وتزخر به كتب التاريخ والأدب قديماً وحديثاً .

وإذن فليس من الضروري إذا كان أبو الطيب المتنبّى قد قام أو خرج داعياً إلى ما يراه اصلاحاً ضدّ من وصفهم الاستاذ الشمرى فى مقالته بأنهم « ضربوا العرب بالذّلة والهوان » وأنّ عصرهم كان « عصر تدهور وانحطاط مهين » « من صفاريين ، وبويهيين وعلوج وزنوج وباطنيين وقرامطة » ليس من الضروري أن لا تتمّ دعوته إلاّ إذا ادّعى « النبوّة » فقد خرج أمثاله من عباقرة المسلمين وأفذاذهم على تلك الدول وسمّاهم اتباعهم « أئمة » و « مجدّدين » ومنهم من انتصر وأسس دولا فى « فارس » و « مصر » و « المغرب » و « اليمن » وغيرها .

وإذن فموضوع بحثنا ونقاشنا وحوارنا هو :

هل ادّعى أبو الطيب أحمد بن الحسين النبوّة وقال « قرآنا » أم لا ؟ وهل

حُبِس من أجل ذلك أم لسبب آخر ؟

وبتعبير أوضح ؛ هل ثبت تاريخياً أن المتنبّي ادّعى « النبوّة » ولقّب « بالمتنبيّ » لأنه قد زعم أنّه نبي مرسل من عند الله بقرآن جديد ، وشريعة جديدة أم لم يثبت ذلك تاريخياً ؟ .

والأستاذ الجليل يعلم أن الناس قد اختلفوا فى أمر نبوّة المتنبي ولكنّ عرامة الاختلاف لم تشتدّ إلاّ فى قرننا من بعد أن جاء بعض المستشرقين والصّليبيين ودعاة الفرعونية وأعداء العروبة والإسلام وتلامذتهم من المستغربين أمثال « بلاشير » و« ماسينون » و« سلامة موسى » و« لويس عوض » وحاولوا أن يشكّكوا فى عقيدة المتنبى ويؤكدوا أنه تنبأ ، وأنه قد أنشأ « قرآنا » وليس تمجيداً للمتنبى أو تحقيراً ، بل كراهية للرسول المصطفى الأمين محمد ﷺ وتكذيباً له ، ولذِ تلك القطعة المسجوعة التافهة المنسوبة إلى أبى الطيب « النجم السيار ، والفلك الدوّار ، والليل والنّهار أن الكافر لفى أخطار » بآيات القرآن المجيد .

وأمّا المؤرّخون والعلماء والمحققون المسلمون الأقدمون فإن الثقاة منهم قد نفوا تلك التهمة وزيفوها وأثبتوا صحة معتقده وإيمانه العميق وبيّنوا أنّ سبب سجنه كان خروجه على السلطان وإظهار نسبه إلى أمير المؤمنين علي رضى الله عنه . وأن الذين روّجوا لتلك التهمة وأشاعوها من خصوم المتنبّي السياسيين وحاسديه ومنافسيه .

وآخر جدلٍ طويل متشعّب حول نبوّة المتنبى دار على صفحات مجلة « الرسالة » لصاحبها « الزيات » قبل سبعة وثلاثين عاماً بين الاستاذين

محمود محمد شاكر وسعيد الأفغانى وكان الاستاذ الأفغانى قد قال أن تنبّؤ المتنبى أمرٌ لا شك فيه وأن الذين يميلون إليه ويتعصّبون له ، لم ينكروها ، بل التمسوا له المعاذير ، واستدلّ على ذلك بأن المتنبي نفسه قد قال عندما سئل عن اللّقب : « إنّه شيء كان فى الحداثة » ، كما استدل أيضاً بكلمة كافور المشهورة : « من ادّعى النبـوّة بعـد محمـد أمـا يدّعـى الملك مع كافور » ؟ ، وبأن المعرّى روى أمر هذه « النبوّة فى رسالة الغفران وهو حجّة ثبت ؛ وقد ردّ الاستاذ شاكر دعاوى الاستاذ الأفغانى بأن فى الروايات الكثير من الكذب والبطلان حتى فيما روى من معجزات عن الرسول ﷺ ولم يثبته أهل العلم بالحديث ؛ وأن تداول وذيوع أيّ رواية ، وتصـديق العامة لها ، وورودها فى بعض كتب العلماء لا يؤيد صحّتها ؛ وقال : إنّ مجرّد سؤال « المتنبي » عن سبب اللقب ـ لو صحّ ـ دليل على أن الناس كانوا لا يعرفون من أمر نبوّته شيئاً ، ولو أنه قد ادّعى فعلاً لما احتاج أحـدٌ إلى سؤاله ؛ فالمسألة موضوعة ، ولم يسأل أحدٌ المتنبّي ، ولا أجاب بما زعمه الوضّاعون ، كما أن كلمة « كافور » مفتعلة موضوعة تافهة ؛ والمعرّى لم يُشهِد كتبه أنه لا يروى إلاّ الصّحيح من الأخبار ، وتركه للشك فيها أو تكذيبها ليس دليلاً على صحتها ؛ وليس المعرّى بمنزّه عن الخطأ ؛ وهُوَ هُوَ .. وقد ردّ الأفغانى على شاكر بمقالة طويلة محاولاً تأييد وجهة نظره وردّ شاكر بمقال طويل أيضاً أورد فيه كلما يتعلّق بهذا الأمر ، فلْيراجعْـه من يريد الإحاطة .. وخلاصته تنفى آتهام تلقيب أبى الطيب بالمتنبّي لأنّه ادّعـى النبوّة .. ومقالات شاكر والأفغانى فى السفر الثانى من كتاب « المتنبّى »

للاساذ محمود شاكر . ولا أدرى لماذا لم يتنبّه أيٌ منهما إلى ما قاله أبو العلآء المعرّى فى رسالة الغفران يدافع عن « المتنبّى » ردّاً على « ابن القارح » ويصفه بالتألّه والتدلّه فقال : « وأمّا ما ذكره من حكاية القطربُلى وابن أبى الأزهر فقد يجوز مثله ؛ وما وضح أن ذلك الرجل حبس بالعراق [يقصد المتنبّى] فأمّا بالشام فحبسه مشهور . وحُدّثْتُ أنّه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أيّ المرتفع من الأرض . وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من هو دونه [يقصد السلطة والحكم] وإنّما هى مقادير يديرها فى العُلوِ مدير ، يظفر بها من وفّق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق .

« وقد دلّت أشياء فى ديوانه أنه كان متألّهاً ، ومثل غيره من الناس متدلّها ، فمن ذلك قوله : **ولا قابلاً إلاّ لخالقه حكما** .

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزى بريّته ولا يصدّق قوماً فى الذى زعموا

ص ـ ٢٨٦ ـ رسالة الغفران « دار صادر »

ولعلّ ابن جنى أخبر الناس بحياة المتنبي وأعرفهم بشعره ، أدرى الناس بسبب هذا اللقب وقد نقله عنه المقريزى فى ترجمته لأبى الطيب قال :

« وقال أبو الفتح عثمان بن جنّى : سمعتُ أبا الطّيب يقول : إنّما لقّبت بالمتنبي لقولى :

أنا فى أمةٍ تداركها الله غريبٌ كصالح فى ثمود
ما مقامى بدار نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهودِ

وقيل له : على من تنبأت ؟ فقال : على الشعراء . فقيل : لكلّ نبيّ معجزة فما هى معجزتك ؟ قال : قولى :

ومن نكدِ الدّنيا على الحرِّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقتــه بدُّ

والنبوّة فى حياة المتنبى - كما قال الاستاذ محمود شاكر - هى أبرز الحوادث التى عرف بها الرجل ثم نُبِزَ بها بعد ، وقد اختلف الناس فى أمرها اختلافاً كبيراً ؛ وقد استعرض الاستاذ شاكر كل الروايات التى تزعم انه ادّعى النبوة كما اوردها الرواة ، ثم تَعقَّبها ناقداً مُفنّداً مقرّرا أنّ كلّ تلك الروايات موضوعة ملفقة « وأنها وضِعَتْ على الأرجح بعد وفاة المتنبّي بزمان » . ص - ٧٧ - ٩٠ - السفر الأول من « المتنبى » .

ثم قال : « أمّا معجزات المتنبّي فلا نتكلم فيها لأن بطلانها بينّ وفسادها مكشوف ، ولقد علمت بهذه الأحاديث التى رويناها لك ، انهم كانوا يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه براء فأولى أن تكون المعجزات التى رواها أبو العلاء ضربا من الكيد له ، وتأييداً لاتهامهم الرجل بدعوى النبوّة » .

أما قرآنه ، فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنّما هو ضربٌ من الهذيان ، والعجب أن يبايع له اللّاذقى ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول : « ما مرّ بسمعى أحسن منه » ثم الأعجب أن تعمّ بيعته كل مدينةٍ بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلاّ هذه الحماقة الصغيرة التى رووها .» !! ص - ٩١ - « المتنبي » سفر أول .

على أنّ الطف تعليل قرأته لهذا اللقب هو ما قاله أحد معاصرى المتنبى

أبو القاسم المظفّر بن علي الطّبسى ؛ فقد قال يرثيه لما قتل :

لا رعـــى الله سرب هذا الزمان اذ دهانـــا فى مثـــل ذاك اللسان
ما رأى النّـــاس ثانـــى المتنبي أيّ ثان يرى لبـــكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيشٍ ، وفى كبـــرياء ذى سلطان
هو فى شعـــره نبـــيٌّ ولكن ظهـــرتْ معجزاتـــه فى المعانى

وهذا ينسجم مع ما رواه ابن جنى عن المتنبى فى سبب اللقب ويؤكّد أن اتهامه .. بادعاء النبوّة قصة موضوعة لفقتْ بعد وفاة المتنبي بزمان .

على أننى ورغم تقديرى واحترامى لأقوال وآراء المؤرخين الثقاة والأدباء الفطاحل من قدامى ومحدثين ، أرى أنّ أهم مرجع لمن يريد أن يؤرّخ للمتنبي الثائـر والعالـم والشاعـر ، والشريف النسـب ، والمؤمـن بالله ، والداعية إلى الإسلام ، إنّما هو ديوانه ؛ ومن شعره نستطيع أن نتعرّف على نفسيّته ومشاعره وعقيدته وفلسفته فى الحياة ، بل ونستخرج فصول حياته ، لأنه قد سجّل فيه كل أحداث حياته وبينّ ما قاله فى صباه وما أنشأه كهلاً ؛ راصداً اليوم والشهر والسنة .

ولقد عاشرت المتنبّي خمسين عاما ، فلم أجد شاعراً عربياً فحلاً تأثر بالجملة القرآنية لفظاً وصياغة وأسلوباً مثله بين شعراء الإسلام ، وأكاد أجزم بأن المتنبّي خرّيج مدرسة الأشراف ، ونهج علي ، لم يتأثّر شعريًّا وفصاحةً وتصويراً بيانياً ، بكتاب ما ، مثلما تأثّر بالقرآن الكريم ؛ فقد صقل لسانه بآياته ، واستولى إعجازه على كلّ قواه العقلية ، ومواهبه الفنيّة ، وطموحاته السياسية ، وانفعل ، انْفعالاً وجدانياً وبلاغياً ، بروعة معـانيه ، وحسـن

قصصه ، وبديع استعاراته وكلّ ذلك واضح أشد الوضـوح فى قصائـده وأشعاره ، ولو ذهبت استعرض الشواهد والأمثلة لأطلت وربما أوردت الكثير من شعر أبى الطيب ولكنّى سأضرب للقرّاء بعض الأمثال ، والبعض يدلّ على الباقى .

١ ـ فهو عندما قال يرثى « التنوخى » .

خرجـوا به ولـكُلّ باكٍ خلفه
صعقـاتُ موسى يوم دكّ الطور

كانت تتجلىّ فى ذهنه الصورة الرهيبة التى استوعبها عندما قرأ قوله تعالى :

« ولما جاء موسى لميقاتِنا وكلّمه ربّهُ ، قال ربّ أرنى أنظرْ إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ؛ فلما تَجَلىّ ربّه للجبل جعله دكّا ، وخرّ موسى صَعِقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك ، وأنا أول المؤمنين » . الاعراف : ١٤٢

٢ ـ ولمّا مدح محمد الطوسى بقوله :

أو كان لجّ البحـر مثـل يمينه ما انشـقّ حتـى جاز فيه موسى

كان يتذكر آيات انفلاق البحر لموسى فى قوله تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن اسرْ بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبسا » طه ـ ٧٧ ـ او قوله تعالى : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحرَ ، فانفلق ، فكان كلّ فرق كالطود العظيم » ـ الشعراء ـ ٦٣ ـ

٣ ـ وعندما قال :

وفى جود كفيك ما جدت لى
بنفسى ، ولو كنت أشقى ثمود

كانتْ صورة عاقر الناقة ماثلةً أمامه فى قوله تعالى : « كذبت ثمود بطغواها ، إذِ انبعث أشقاها » الشمس ـ ١١ ـ ١٢ .

٤ ـ وفى بيت واحد وهو قوله :

كأنى دحوت الأرض من خبرتى بها
كأنّى ، بنى الأسكندر السدّ من عزمى

استوحى آيتين : « والأرض بعد ذلك دحاها » النازعات ٣٠ ـ وآية بناء ذى القرنين للسد فى سورة الكهف .

٥ ـ ولا شك أنه حين قال :

لو كنت بحراً لم يكن لك ساحل
أو كنت غيثاً ضاق عنك اللُّوحُ
وخشيت منك على البلاد وأهلها
ما كان أنذر قومَ نوحٍ نوحُ

كان يتذكر متأثراً بقصة نبيّ الله نوح عليه السلام وقوله تعالى: « إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذرْ قومَك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم » ـ نوح ـ ١ ـ وقد استعمل الألفاظ القرآنية استعمالاً شعرياً متقنا .

٦ ـ ولما قال فى « كافور » :

كأن كلّ سؤالٍ فى مسامعه قميص يوسف فى أجفان يعقوب

كان ينظر إلى قوله تعالى : « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ، وأتونى بأهلكم أجمعين » يوسف ـ ٩٣ ـ .

٧ ـ وقد استمدّ من قصة السامريّ وقول موسى عليه السلام له فى قوله تعالى : « قال فاذهب فإنّ لك فى الحياة أن تقول لا مساس » طه ـ ٩٧ ـ

قوله فى « العجلى » :

تحايده : كأنك سامريّ : تصافحه يدٌ فيها جذامُ

٨ ـ وعندما قال :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم
إذا رأى غير شيء ظنه رجلاَ

كان يتمثل وصف القرآن للمسلمين يوم حنين « وضاقتِ عليكم الأرض بما رحُبَتْ ثم ولّيتم مدبرين » التوبة ـ ٢٥ ـ .

٩ ـ واقرار جلده بنعَمِ المحسن إليه فى قوله :

أقرّ جلدى بها علي فلا اقدر حتى الممات أجحدُها

مأخوذ من قوله تعالى : « حتى إذا ما جاءوها شهدَ عليهم سمعُهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » فصّلت ـ ٢٠ ـ .

١٠ ـ وكذلك قوله :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت منّي كحبل الوريد

مقتبس من قوله تعالى : « ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد » ـ

ق ـ ١٦ .

وحسبى هذه الشواهد العشرة ، ولست أنا الذى اكتشف هذا التأثر عند المتنبي بلغة القرآن ومعانيه والفاظه واستعاراته وتشبيهاتـه فقـد ذكر ذلك ناقدوه وشارحو ديوانه ولا سيما العكبرى ولم أشرْ إلاّ إلى ما ظلّ عالقـاً بذهنى منذ أيام الطّلب . ومن يراجع ديوان المتنبي سيرى كثرة استعماله للألفاظ القرآنية ، وأسماء الأنبياء كالمسيح ، وموسى وعيسى ويوسف ويعقوب وداوود وسليمان وذى القرنين وعازر والحواريين ومـريم وصالـح وثمـود إلى الفاظ : الإسلام والمسلمين والمشركين والتوحيد والصليب والبـراق والجنّـة والسامرى وإلى ما ذكرته فى المقالة الأولى من كثرة تكرار اسم الجلالة فى قصائده .

واذن :

فهل يمكن لشاعرٍ عارفٍ يستحضر الصّور والألفـاظ والاستعـارات والقصص والمعانـى القـرآنية فى ذهنـه مثـل هذا الاستحضـار أن يكون « نرسَسِيًّا ، تافهاً ، أو دعيًّا كذّاباً ، أو منافقاً ، أو ملحدا ؟ وهل يهمّ عارفٌ بالقرآن مثله أن يعارض القرآن ؟ أسألك يا صديقى الذى أُنسيتُه وإن لم اجحد ألمعيته وحكمته .. ! والسّهم الذى صوّبه خصومُ المتنبي ـ وهم دائماً خصوم الحرية والحق والحكمة ـ لِيْ مِنْهُ وَلكَ أيها الفيلسوف الشمّرى كلومٌ دامية . والحديث شجون . وإلى رسالة أخرى فى ظلال دوحة المتنبى : دوحة الحريّة والحق والحكمة .

بروملى : ٣/رمضان/١٤٠٣ هـ . ١٩٨٣/٦/١٣ م

إلى الفيلسوف الشمري

المتيم بالحكمة هو الفيلسوف . كان المتنبي يعشق الحرية والحق والحكمة . أنا حزين . وأنت حزين أيضاً ..

أ ـ المقدمة :

صديقى الفيلسوف : أنا طبعاً وثقافةً ، لا أحبّ « التقليد » غير أنّى هذه المرّة سأحاول أن أقلّدك فأنتهج فى صياغة جوابى على رسالتك إليّ ، والتى ظهَرتْ على صفحات « الأربعاء » العدد ١٨ ـ ٢٠ شعبان ١٤٠٣ هـ . ، طريقتَكَ ، وأجعل لها مقدمة ومدخلا ، ولو شئتُ أن أبرّر موقفى لقلتُ إنّه ليس « تقليدا » بل « اقتداء » ، وهو محمودٌ من طالب المعرفة ، ومن يتحرّى الأفضل والأحسن والأجمل ، وقد قال الله تعالى : « اولئك الّذين هَدَى الله فَبِهُداهم اقتدِه » . ولو شئتُ أيضا الابتعاد عن هذه اللّفظة « التقليد » وأنا أكرهها ؛ طبعاً ، وثقافةً ، ومذهباً ، لَسَمّيتُ انتهاجى الجديد « تَشَبُّها » وقد قال الشاعر :

فتشبهوا : إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاحُ

أو كما قال .. فقد أنْسِيتُ قافية البيت ، ولا بأس ـ وبالمناسبة ـ أود أنْ اشكو إليك « آفة النسيان » فقد اصبحت تأكل معارفى شيئاً فشيئاً ، وتقضم حتى أعزّ ذكرياتى وأجملها ، وصرتُ أنشد :

ونسيتُ الزّمان حتى كأنى قد نسيت النسيان من نسيانى !

وأصل المعنى للشاعر محمود حسن اسماعيل فى ديوانه « أين المفرّ » ؟ .

تقول فى « مقدمة » مقالك النفيس إنى قد رفعتك إلى « مرتبة الفيلسوف وأحطتُكَ بهالات وبريق ذلك اللّقب كأنّك تستكثره على مثلك ! وأنا لم أمنحك إيّاه ، ولم أضفه عليك مجاملةً أو تزلّفاً ؛ فكل أسباب ومسببات المجاملة ، والتزلّف مبتورة ، مقطوعةٌ بينى وبينك ، ولم أسمّك فيلسوفاً إلاّ لأنى قرأت - كما قرأ غيرى - ما يكتبه « ذيبان الشمرى » فى الأدب والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع ، وترجماته ولطائفه ، فلمست فيما تكتب الرّصانة والاصالة ، ووجدت اسلوب طالب الحق ، وعاشق المعرفة ، والمتيّم بالحكمة ؛ وهذا عندى هو الفيلسوف .

وقد لا توافقنى إذا قلت لك أنى لا أسمّى من يأتى بنظريّة جديدة أو مذهب جديد « فيلسوفاً » ، وإنما اسمّيه - وأرجو أن لا اكون مخطئاً - « عالماً » .

و « العالم » قد يكون فيلسوفاً ، وقد يكون شاعرا ، كما قد يكون خيرّاً ، وقد يكون شرّيرا ، وقد يكون سَجْحاً برّا تقياً ، أو لئيماً شقيّا ، وقد يكون ... وقد يكون !!

وأما طالب الحقّ ، وعاشق المعرفة ، والمتيم بالحكمة فهو الفيلسوف ، ولابد أن يكون شجاعاً كريماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مؤمناً بثابت الوجود ، ولذلك قال الحكيم الفيلسوف علي بن أبى طالب رحمه الله : « فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين ؛ ولو أن الحقّ خلص من لَبْسِ الباطل ، انقطعت عنه ألسنُ المعاندين » .

وأنت تعلم أن الرأى الفاسد ، والمراء فيه لا يأتيان إلاّ من قِبَلِ اتّباع الهوى أو التعصّب لمذهب أو عشيرة أو غرض شخصى ، والحقيقة هى العلم المحض والخير الخالص ، وليس الوصول إليها سهلاً ، ولا سيا فى عصرنا ودنيانا ، وقد امتزجت القضايا الصادقة بالقضايا الكاذبة ، ووقع الاشتباه ، واختلط حابل الأمر بنابله ؛ ومن هنا قال عليّ أيضاً لما سمع « الخوارج » يهتفون : « لا حكم إلاّ لله » : « أنهّا كلمة حقٍ أريد بها باطل » وقال : « ليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه « . وأنا وأنت لا نطلب إلاّ الحق ونرجو أن نناله .

نعم يا صديقى لقد عَنَيتُ بلفظة « الفيلسوف » محبّ الحكمة ؛ وما دمت عاشقها المتيم ـ كما قلت ـ فأنت تشرّف هذا اللّقب ، ولقد أوجَعَتْنِى شكواك من أشواك دروب المعرفة تسعى إلى « الحكمة » اربعين عاما ، هرولةً وعدواً حينا ، وبأناة ووقار أحيانا ، أوجَعَتْنى شكواك يا صديقى ؛ فتذكرت قول أمير الشعراء احمد شوقى :

أيهّا الصّارخ من بحر الهموم ما عسى يغنى غريق عن غريق ؟
إنّ هذا السّهم لى منه كلومْ كلّنا : نازح أيك ، وفريقْ

وأما ما قاله الحكيم الفيلسوف سقراط عن الحكمة فقد نظمه شاعر عربى فقال :

وكلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلى

أتمنى يا صديقى الشمرى أن أعرفك ؛ وأجلس معك طويلاً ، ولا أدرى لماذا أقول هذا ؟ أنا الذى قطعتُ فى درب المعرفة خمسة وأربعين عاماً أفتّش

وابحث عن « الحكمة » و « الحقيقة » وقاسيت ـ ولا أزال » من أشواك ذلك الدّرب ما تعلمه ، وعاشرت المئات من الفطاحل ، وزاملت المئات في « الدرب الشاق الطويل ، ومع هذا لم يصف لى منهم إلاّ عشرة ، عشت معهم في السرّاء والضرّاء ؛ فلم يعدّوا البؤس بؤساً ، ولا النعيم نعيما ، ولم يأسَوْا على ما فاتهم ، ولا أبطرهم الفرح بما أوتوا ، وقد كتبت عنهم كتابا اسمه « عشرة فى حياتى » ولا يزال مخطوطا ، وعندما يخرج على الناس سيُنْصِف اولئك الأبرار ، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » وأكاد أجزم بأننى لو عرفتكَ وعاشرتك لأحبَبْتُكَ ، وكنت الصديق « الحادى عشر » لأننى قد لمست فيما تكتبه ، أنك تعشق الحرية ، والحق والحكمة ، وأنا إنّما أحببت « المتنبي » واكبرته لأنه كذلك ؛ وقد ضحى من أجل ذلك العشق ، بأهله ووطنه ، وتغرّب وتشرّد وجاهد ، وحُبِس ، وصادق وعادى ، وعاش بلا وطن وقتل بلا قبر ! أليس هو القائل :

بمَ التعلّل ؛ لا أهــلٌ ولا وطنٌ ولا نــديمٌ ولا كأسٌ ولا سكن
أريد من زمنـــى ذا أن يبلّغنى ما ليس يبلغـه من نفسـه الزمن
لا تلـق دهـرك إلاّ غــير مكترثٍ مادام يصحب فيه روحـك البدنُ
فما يدوم سرورٌ ما سررت به ، ولا يردّ عليك الفائــت الحزنُ ،
ما كل ما يتمنـــى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن،
إنى أصاحب حلمى وهو بى كرمٌ ولا أصاحب حلمى وهْوَ بى جبُنُ !
ولا اقيم على مالٍ أذلّ به ، ولا ألــذ بمّــا عرضى به درنُ

وهذا نشيد رائع يردّده عشّاق الحرية والحقّ والحكمة فى كل زمان ومكان

وبشتى اللّغات .

نعم يا أيها الصديق الذى أنسيته ؛ كان لا بد أن أقلّدك ، أو أقتدى بك ، أو أتشبه ، فاجعل لرسالتى إليك « مقدمة » .. ولـكن من أين لي براعتك و « منهجيّتك » وأنا « الرّجعىّ » العنيد ؟ فلعلى قد أطلت مُهْدِياً التمر إلى « هَجَر » . ومع ذلك فسأختم هذه « المقدمة » بكلمة للحكيم العظيم الأمام علي عليه السلام عن الحكمة وهى قوله : « الحكمة حياةُ للقلب الميّت ، وريُ للظمآن وفيها الغنى كلُّه » . اليس فى هذا نعم الزّاد فى درب المعرفة الشاق الطويل ؟

ب ـ المدخل :

وقبل أن أناقش اجوبتك الثلاثة على أسئلتى ـ وقد كنت فيها لبقـاً حازما ـ لأعرب عمّا أوافقك عليه ، وأحاورك فيما أخالفك فيه ، أو لم يطمئن إليه قلبى ، ما دمنا نتعاون على بلوغ الحقيقة مسلما بما اشترطته وهو أن نتفق « بادىء بدء على أن للحقيقة الموضوعية وجهاً واحدا » ، وأن « الحقيقة ليست نسبيةّ بل مطلقة ثابتة الجوهر فى كل زمان ومكان » .

لابدّ أن اعترف بأن شعوراً بالغبطة والثقة والاطمئنـان قد غمرنـى ، عندما احسست بأنك تريد أن تعيد إليّ الإيمان بقوّة الحق والخير ، وضعف الباطل والشرّ ؛ وكأنك وبإحساس الصديق المخلص ، قد أدركت شيئاً من الضعف أو الخور ، أو الشعور بالهزيمة فى كلامى ولا سيما عندما استشهدت بقول الشاعر :

تقلّدتنـى اللّيالى وهـى مدبرةُ كأننـى صارمُ فى كفّ منهزمِ

كما اردت أيضا أن تعزّينى فى حصاد الخيبة والمرارة الذى أبْتُ به من رحلتى السياسية بعد صراع شرس خضت فيه معارك شتّى لم تكن متكافئة فى نظر من لا يؤمنون بقوة الحق .. فوصفتَ ظروف المنطقة العربية « ابتداء بأواخر الأربعينيات وحتّى أواسط السبعينيات من هذا القرن » ـ الميلادى وهى توافق أواخر الستينات حتّى أواسط التسعينات من قرننا الهجرى الرابع عشر ـ وصفاً دقيقاً حين قلت إنها « لم تكن بالظروف الملائمة للأخيار من أمثالك » وأنّ تلك « الحقبة المشئومة » كانت « حقبة العدمية والعبث » ، ورفعتنى ـ رفعك الله إلى اعلى الدرجات فى الدّارين ـ الى مرتبة « الأخيار » وقلت : « إن فشلك فى ميادين الدبلوماسية والسياسة خلال تلك الحقبة الدنسة لهو الدليل القاطع على نجاحك كلّ النجاح فى ميادين الفضيلة والشرف » .

ووصفك للحقبة ، وصفُ مراقبٍ حصيف ، وشاهدٍ أمين ، ومؤرّخ منصف ، وشهادتك لي بالنجاح فى ميادين الفضيلة والشرف أعتزّ بها وسأحتفظ بها كأغلى وسام ؛ وحين أؤيّد وصفك الدقيق لتلك الحقبة فليس لأنك حشرتنى ضمن الزمرة الممتازة من جميع الأقطار العربية الذين نكبوا أثناءها رغم ما يتمتعون به من قدرات ومواهب ، ولكن لأننى شاهد ومراقب ، بل ومسئول مارس أحداث تلك الفترة الرهيبة وعاش فى قلب دوّامتها ثائراً وسجينا ومشرّداً ووزيراً وسفيراً ومحارباً ومسالماً ؛ والحق اقول ـ يا صديقى ـ أن وصفك لها كان دقيقاً أمينا ، لا يهتدى إليه إلاّ مجرّبٌ لا يُلْقِى الكلام على عواهنه ، ولا يحابى فى الحقّ أحدا .

كما أنّى أؤيّد قولك : إن ما كان من جانب الخير من تراجع واعتبره البعض هزيمة إنما كان « تراجعاً تكتيكياً محضاً قام به الحقّ أمام الباطل » ؛ غير أنّى لا بد أن أضيف وقد قلت بصرامة الفيلسوف والمؤرخ الأمين : « أن الحق سيكتسح الشرّ ، وسيصرع العدميّة والعبث » مذكرا لك ولرعيل الحقّ والخير : بأن القليل من أهل الخير يومذاك هم الذين ادركوا أهمية ذلك « التراجع التكتيكى المحض ، وأن الكثير منهم عارضوه ، وتقوقعوا فى أهدافهم ، وخصوصياتهم ومخاوفهم ، بل وحاربه بعضهم ؛ وأنت تدرى وتذكر أن معظم دعاة الشر وأنصاره قد فهموه وأدركوه فعارضوه أيضا وحاربوه .

وأرباب الشر ـ ومع الأسف ـ ولا سيا فى عصرنا ـ أكثر إدراكا ، وأدقّ فطنةً ؛ وأعرف « بالتراجعات التكتيكيّة » .. ولذلك فقد كانت المعركة طويلة وشرسة والحديث شجون وله فى « كتاب حياتى » حديث شيق طويل .

وأنا اعلم أن استشهادى بالبيت الذى استشهد به الإمام محمد عبده فى إحدى رسائلة إلى أحد أصدقائه بعد فشل ثورة « عرابى » وهو :

تقلّدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

[ومن الناس من يقول انه من شعر الإمام] . هذا الاستشهاد قد جعلك تظن أنّنى اعتبرت ما كان « هزيمة » ؛ وحُقَّ لك أن تظن ذلك ، وأن تأسى له وتألم ، وأن تفزع الى تعزيتى ، واثارة عزيمتى وتشجيعى ، بكل ما تستطيع من قوة ، وبكل ما لديك من محبة للحق والحرية والخير ؛ وبناء عليه أودّ أن

أطمئنك يا صديقى بأنى لم اقصد إلاّ التعبير عن ألمى وحزنى على عدم فهم وإدراك بعض أرباب الحق والخير لأهمية ذلك « التكتيك التراجعى » الذى كان هدفه الخير المحض ، وشيوع السلام ، وارتفاع راية الحرية والوحدة والاستقرار على ربوع البلاد . وهو ما كان ؛ ويتطور تطوراً وئيداً نتمنّى له الاستمرار والاطراد ، ولو أن كل فئات الخير والحقّ قد تآزرت ، ومنذ البداية التى لا شك انك تعلمها ، وأخذت بتوجيهات ذلك الخبير الحكيم الملك فيصل بن عبد العزيز رحمة الله لكان للحقّ اليوم صولة أقوى ، ولتجنّبنا الكثير من العقبات .

ولا ريب أنّ زخومة الاشفاق فى قلبك الكبير الشجاع قد بلغت حدّ الحماس لّما قلت : « فالحقّ يطلب لا بل يأمرك بالعودة إلى الساحة ، وبامتشاق حسامك ، وإسقاط شعارك الذى أوردته فى مقالك الأوّل والقائل :

من يبلغ القوم شطّت دارهم ونأتْ
أنى رجعت الى كتبى وأوراقى

وأطمئنك يا صديقى أنى ما فكرت يوماً ما فى الانسحاب من الساحة ، وأنى لا أزال فى المعمعة غير أنى قد حطمت الحسام ، وأشرعت القلم ، ولكلّ معركةٍ أسلحتها ، والمعركة الآن فكريّة ، والرأى قبل شجاعة الشجعان كما يقول المتنبى العظيم ، وأنا ادعو فى الساحة إلى « التحاور » بالحجج ، و « التجالد » بالبراهين ، وأن يكون « المنطق » نهج حوارنا ، و « الحوار » وسيلة تعبيرنا عن مبادئنا وآراءنا ، وعن كل ما نعتقده خطأ ،

أو نظنه صواباً ، وكما قال شوقى :

فى الــرأى تضطغــن العقول وليس تضطغــن الصدور

وأنا ادعو فى السّاحة الى المحبة والرحمة والحوار ؛ فالمحبة ظل الحرية الوارف ، والرحمة عرض الحرية المقدس ، والحوار شعار الحـريّة وحاميهـا الأمين . ولكلٍّ حقّ فى « الحرية » ونصيب فى الحياة ، وهناك « قسطاس » للعدل لا تميل شوكته حين تطغى الأمزجة ، أو يؤوله الهوى .. لأن العدل هو « الحرية » ؛ وميزانه .. وبمعاييره الدقيقة نعم الوازع ، والرادع ، والحارس .

وأوِّكد لك أنّى قصدت برفع شعار : « من يبلغ القوم » رعيل الخير والحقّ أحثّهم على المحبّة والرحمة والحوار والدعوة إلى الله على بصيرة ، والجدال بالتى هى أحسن ، وهو ما عنيته فى قصيدتى السينية « حداء بلا قافلة » عندما قلت :

من رســولى الى سفــوح « أزال »
حيث أنسى وحيث أصحــاب أنسى ،
قل هــم : قد حطمــت سيفــى ، ولم
يبــق بكفــى إلاّ يراعــى وطرسى ،

أمّا أن ثمة فارق هائل بين القوّة كوسيلة والقوّة كمذهب فلا ريب فى ذلك ، ، وأما أن ثمة فارق أيضاً بين الحزن والغضب فلا شك أيضاً وأمّا أنّى أصارع حزناً شرساً ناهشا ؛ فنَعَمْ ، وفراستك صادقة ولا حيلة لى إزاءه إلاّ الاستعاذة بالله والصبر ، ومحبّة الخير الأسمى ، وأنت نفسك تكابد ما تكابد ؛ ألم تقل فى مطلع رسالتك « ويرهف حسّى بالمأساة التى نعيشها

على ظهر هذا الكوكب ، والتى لولا إيماننا العميق بالله وبدينه لما كان للحياة أىّ مغزى أو مفهوم ولدفعت بنا العبثية إلى الانتحار » . ! أحُزْن هذا أم غضبٌ يا صديقى ذيبان ؟ وثق أن صديقك لن تدفعه أحزانه إلى « الانسلاخ عن البشر والنقمة على الحياة » وأنه سيحقق حسن ظنّك ، ولن يقول ما قاله صاحبه المتنبّى :

تحمّلوا حملتكم كلّ ناجية
فكلّ بينٍ علىّ اليوم مؤتمن
ما فى هوادجكم عن مهجتى عوض إن مت همّا : ولاً فيها لها ثمن !

بل سينشد مع ذلك الشاعر الحزين :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة وأهلى وإن جاروا علىّ كرامُ

وكأنى بك تقول ، أو أن بعض من يتابع حوارنا سيقول : وها هو المصارع المتنكّر قد هَزَمَ ذلك الأصلع المصْحر ؟! وها هو « الشامى » يتراجع ويعترف بأن « المتنبى » كان غضوبا » ، والغضب كثيرا ما يتفجّر بالأنانية والنقمة والحماقة كما قال « الشمرى » !

ومهما يكن فأنا لا أستطيع أن أنكر أن المتنبى كان غضوبا ، وكان يحقد على ظالميه ، ومن جراء ذلك قاسى ما قاسى . ولكن هذا شىء وما نتحاور فيه ونتجادل عليه وهو انه كان مؤمناً بالله حنيفاً مسلما ، شريف النسب ، لم يدّع النبوّة ولا عارض القرآن ، ولم يسجن بسبب ذلك ؛ شىء آخر . وأما هل كان « المتنبى » يؤمن بالقوّة كوسيلة أو كمذهب فسأحاورك فيه فى مقالة أخرى إذ قد أطلت ؛ ولعل القرّاء سيلاحظون أننا نتقارب رويداً رويدا ؛

وأن وجه « المتنبّى » الحقيقى بدأ يتجلىّ ، وأننا ربما قدّمنا خدمة لشاعرنا العظيم ؛ ولا اكتمك يا صديقى أن رسائل كثيرة قد وصلتنى من عدّة أدباء . وأصدقاء ، ومنهم المؤيّد والمعارض و « البَيْنَ بَينِ » وآخر رسالة وصلتنى البارحة من صديق فطن ، ذى ذوق رفيع ؛ كنيتُهُ « أبو أيْمَنْ » ولعلّك تعرفه فهو من اصدقاء صديق الجميع صاحب الإثارة الشيخ عبد العزيز التويجرى . يقول « أبو أيمن » فى رسالته : « قرأت البارحة ردّكم فى الأربعاء ، على الاستاذ ذيبان الشمرى كما قرأت ردّه على ما سبق فى رسالة شيّقة وجّهها إليكم ؛ والحقّ يقال أنه سيصعب الحكم لأىّ منكما إلاّ بعد شوط طويل ؛ فكلٌ له حجِجه فى دعم وجهة نظره ، وفى تصوّرى أنه ليس من السهل على كليكما تغيير رأى من له رأى مسبّق فى أبى الطيب سواء كان متفقاً أو مغايرا لأحدكما ، اللهم إلاّ إذا كان سينتج من هذا الحوار العميق الشيّق رأى معتدل يصوّر إيجابيّات المتنبّى وسلبيّاته ، وإذا استمرت طريقة الحوار كما هى عليه من العمق والرقة والتقدير المتبادل فستكون المقالات مهما طالت وتضاعفت من المتع التى سينتظرها الكثيرون مع إطلالة كلّ أربعاء . هذا ما قاله « أبو أيمن » فما رأيك ؟

وإلى رسالة اخرى إن شاء الله .

بروملى ٤/رمضان/١٤٠٣ هـ . ١٩٨٣/٦/١٤

إلى الفيلسوف الشمرى

غضب المتنبى لم يكن طيشا ولا حماقة .. والمتنبى هو شعره ؛ وكان يؤمن بالقوة وسيلة لا مذهبا !

جـ ـ التعليق على الأجوبة :

١ ـ غضب المتنبّى :

لم أخالفك أيها الصديق أن « المتنبّى » كان « غضوبا » ، ولا بأن « الغضب كثيرا ما يتفجّر بالأنانية والحماقة » ولم أجادلك فى ذلك ؛ وكيف وقد ورد فى الأثر : « لا يَقْضِ القاضى حين يقضى وهو غضبان » ، وجاء ما معناه : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ؛ فإذا لم يذهب الغضب فليضطجع » ؛ كأن الحركة اليسيرة مهما كان زمنها قصيرا تعطى الغضبان فرصة تأمل ليراجع حلمه وإنسانيته ؛ لأنّ العجلة من الشيطان ، والأناة من الرّحمان ، ولقد روينا أن النبىّ ﷺ قال لما سمع قول أخت النّضر بن الحارث :

ما كان ضرّك لو مننت وربّما   منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ

« لو سمعت هذا قبل أن آمر بقتله لمَنَنْتُ عليه » ؛ والسؤال الآن : هل كان « المتنبى » يخرج عند انفعاله بغضبه ، ومزاجه النارىّ عما تعوّده البشر وألفوه ، منذ غضب هابيل على أخيه قابيل فقتله .. وإلى أن أخذ موسى عليه السلام بلحية ورأس أخيه هارون يشدّها غضبا ، وحتّى قال رسول

عائشة لمعاوية بن أبى سفيان بعد أن قتل حجر بن عدى : وأين ذهب عنك حلم أبى سفيان ؟ فأجاب عندما غاب عنّى أمثالك ؛ وإلى يومنا هذا ونحن ننفجر غيظاً وغضباً إذا نازعنا أحدٌ فى رأى أو فى قول ؟! وهل كان فرداً فى « غضبه » بين البشر فنسمّيه « نرجسياً جهولاً شرّيراً « ؟! وهل إذا هجا إنسانٌ عدوّه ، ومن أساء إليه ، أو شتم ظالمه ومن تجنّى عليه ، يكون « منسلخاً من البشرية ناقما على الحياة » ؟ وهل كلّ من تعكّر مزاجه وضاقت به ظروفه وانفعل بإساءة من احسن اليه وجُوزى بالشر من قبل من قدّم إليه خيراً ؛ فضاق بالناس والحياة والكون وقال شعراً أو نثراً يائساً قانطاً ، أو فضلّ الموت على الحياة ، كان وباء على الحياة ، وذئباً بشرياً ، وعدواً للإنسانية ؟

لا أحسبك يا صديقى تجيب بالايجاب ، ولا أظنك ترى أنه من العدل والإنصاف أن نختصّ المتنبّى بتلك الصفات البشعة التى كالهالـه « بلا شير » و « ماسينيون » و « طه حسين » و « القصيمى » من بين فلاسفة وشعراء وحكماء البشر عبر العصور ! وأنت تعرف أن الكثير من الأنبياء والأولياء والشهداء والفلاسفة والشعراء قد هجوا الاعداء والكفّار والأشرار والمكذّبين بيوم الدين وبمكارم الأخلاق ، والبغاة والفساق والمنافقين والظالمين واللصوص ؛ وحسبك أن « نوحاً » عليه السلام ناجى ربّه كما قال الله : « وقال نوحُ ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّارا ، إنّك إن تذرهُمْ يضلّوا عبادَك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا » .

وربّنا جلّ وعلا وهو الرحمن الرحيم العفو الغفور العزيز الجبّار المتكبّر

المنتقم قد لعن وشتم أحد أعداء الرسول ﷺ فقال ـ عزّ من قائل ـ « ولا تُطِعْ كلّ حلاّف مهين همّاز مشّاء بنميم ، منّاع للخير مُعْتَدٍ أثيم ، عُتِلّ بعد ذلك زنيم » وهى لعنات باطشة ؛ و « الزّنيم » هو الدعىّ الملصق ، ولو ذهبت استكثر من الشواهد لما اتسعت الأسفار ؛ وإذن فغضبُ المتنبّى على من عادوه وآذوه ، وسبّبوا له الآلام والمتاعب وأنكروا نسبه ، وافتروا عليه ، وهجْوُهُ لهم لم يكن بدْعاً ؛ ولا شذوذاً ، وغضب المسلم لانتهاك الحرمات ، وانتشار الفساد وشيوع الظلم ؛ غضبٌ مشروعٌ بل محمود ؛ وإنّما الشذوذ والعدوان ، هو أن يعمد الانسان إلى محاربة الفضيلة لذاتها ، وأن يجهر بالسوء افتئاتاً ، وأن يسبّ أو يشتم أو يهجو أرباب العلم والفضل لأنهم أهل علم وفضل ، والله سبحانه قد قال : « لا يحبّ الله الجهْر بالسّوء من القول إلاّ من ظُلم ، وكان الله سميعاً عليما » . نعم لقد روينا من الآثار والأحاديث « ان المؤمن ليس بلعّان ولا طعّان « ، وروينا الحديث الشريف . « اتقوا الغضب فانّه جمرة يتوقّد فى جوف ابن آدم » وقوله ﷺ : خيار أمتى هم الذين إذا غضبوا رجعوا » ولكنا أيضاً سمعنا أيضاً وفى حديث شريف أن من أهل الله الذين يظلّهم يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه : « الّذين يغضبون لمحارمه إذا استحلّت كالنمر إذا طرد » ! ، ولو استطعنا التخلصّ مما قد رسب فى أذهاننا عن المتنبى ، وما أشاعه عنه خصومه من حاسدى فضله ؛ أو من أقانيم الصليبيّة والكفّار الذين حاربهم بسيفه ولسانه تحت راية الاسلام ومع أميره العربى سيف الدولة الذى كان « تشقى به الروم والصّلبان والبيعُ » .. ورجعنا إلى شعره فى ديوانه والذى

تقول عنه بأنه « مذكرات شخصية كتبها باسلوب اعترافى » والذى لا أظنك تخالفنى ـ أيها الصديق ـ بأنه أصدق المراجع وأدق المصادر تصويرا لنفسيّة الشاعر وأخلاقه وسلوكه ، وفتّشنا عن شتيمة أو سبّ مقذع ، أو هجو فاحش فى سيف الدولة أو أبى فِراس ، أو أبى العشائر ، أو حتى ابن خالويه استاذ سيف الدولة والذى ضربه بالدواه فى حفل حاشد ، يشبه الأقذاع والفحش من القول الذى سلّطه على « كافور » أو كَيَغْلَغ أو اضرابه من الجهّال والشعوبيين والمماليك : مع أنه قد خاصمهم ، وغضب عليهم ونابذهم العداء وحاولوا الاساءة إليه ، لكن لسانُه ظلّت معهم تحترم مقاماتهم ، وإذا عاتبهم كان شريف العبارة نزيه اللسان ! أليس فى هذا ـ وفى هذا وحده يا صديقى ـ الدليل القاطع على أن المتنبّى كان عفيف اللسان ، لا يلقى القول جزافاً ، ولا يضرب الكلام على عواهنه ؛ بل يَضَعُ الهناء مَواضِعَ النَّقْبِ ، ويعرف من يستحق الشتيمة ، ويضعها فى مكانها ؛ ؟!

ثم أليس هو القائل :

إنــى لأجبــن من فراق أحبتى وتحس نفسى بالحمام فأشجعُ
ويزيدنى غضــب الأعــادى قسوة ويلم بى عتبُ الصديق فأجزع

أفيكون من يسبّب له فراق الأحبة الخوف والهلع والجبن ، وهو الشجاع الذى لا يخشى الموت الزؤام شرس الطبع بذىء البيان ؟؟ أليس أن من يزيده غضب الأعادى قسوة عليهم ، وهو فى نفس الوقت يجزع أشدّ الجزع إذا ألمّ به عتبُ صديق يمثل الإنسان الفطرى السليم الطبع الكريم

الخلق ؟؟

أليس هو القائل :

خلقــتُ ألوفــاً لو رجعــت الى الصّبا
لفارقــت شيبــى موجــع القلــب باكيا ؟

أيجوز أن نصف مثل هذا الانسان الرقيق الألوف بأنه « منسلخ عن البشرية » « ناقم على الحياة » وهو لو فارق حتى شيخوخته لفارقها موجع القلب باكيا ؟! .

وأنا لا أقرّ ،ولا أستسيغ ذلك الاقذاع الذى صبّه على من آذوه وظلموه ، ولكنّى أظنّ أنه كان يعتقد بأنهم يستحقّون ما قاله فيهم ، بدليل أنّه لم يتسغلَ لغوياً وبيانياً مع الشرفاء والأماثل ممن خاصمهم وناوؤوه ، وآذوه كسيف الدولة وأبى العشائر وأبى فراس وبعض « العلويين » بل كان يلمّح ويكنّى ويكتفى بالتعريض الذى هو أحيانا ابلغ من كلّ تصريح كأن يقول :

إذا « علوىّ » لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلاّ حجّــة للنواصب

أو يقول وكأنه يؤدّب من يعاتبه ويبصرّه بطرق مكارم الأخلاق :

رأيتكم لا يصون العرض جاركمُ ولا يدرّ على مرعــاكم اللبن
جزاء كلّ قريب منــكم ملل وحــظ كلّ محــبٍ منــكم ضغن
وتغضبــون على من نال رفدكم حتــى يعاقبــه التنغيض والمنن

وعندما غضب عليه أبو العشائر وأرسل غلماناً له ليقتلوه قال معاتباً :

ومنتســب عنــدى الى من أحبه وللنبــل حولى من يديه حفيف

فهيّج من شوقى ؛ وما من مذلّة حنفت ؛ ولكن الكريم ألوف
فان يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللّائى سررن ألوف

ولا يصابر نفسه مثل هذه المصابرة ، إلاّ الرجل الكريم .. وهو قد أوضح فلسفة الغضب ، كأنه كان يدرى أن قوماً سيختلفون فى تفسير مدحه وهجوه ، وحمده وقدحه ، وستتمرس ألسنتهم تأييدا وتفنيدا ، واستحساناً واستهجاناً ، فلم يتركنا فى ظلمة طخياء حائرين بل أبان مواقفه ، لماذا يسخط ولماذا يرضى ، ومتى يغضب ومتى يحلم ، ولم يشذ أو يندّ عن فلسفته حول الرحمة والقوّة واللّين والشدة ، والغفران والعقاب فقال :

إذا قيل رفقاً ؛ قال : للحلم موضعٌ وحلم الفتى فى غير موضعه جهلُ

وقال :

كلّ حلم أتى بغير اقتدارٍ حجّةٌ لاجىءٌ إليها اللّئام

وقال :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

بل وقال وما أروع وأصدق وأسمى ما قال :

وأحلم عن خلىّ ؛ وأعلم أنّه متى أجزه حلما عن الجهل يندم

وإذن ـ يا صديقى ذيبان ـ فقد كان أبو الطيّب يمثّل الإنسان الحنيف المسلم المعتدل الذى لا يجهر بالسوء إلاّ مظلوماً ، بل ولا ينفجر غضبه بالسّب والشتيمة ، ولا يصبّ جام مقته إلاّ على من يستحقون المقت والشتم والسباب ، أمّا إزاء الأخلاّء والأصدقاء والكرماء والنبلاء والعلماء فقد كان يصابر نفسه ، ويحزن إذا أوجعوه ويتألّم بصمت ، وأحياناً يقول :

إن كان سركم ما قال كاشحنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ

بل وقد يلجأ إلى أرق وألطف عبارات العتاب ويصوغه فى شعر هو فى نظرى من اروع ما يستطيعه شاعر! ولنستمع إليه يعاتب أميره وصديقه ومن كان يرى فيه نفسه :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويلُ السلام اختصارا ،
تركتني اليوم فى خجلة ؛ أموت مراراً ، وأحيا مرارا ،
أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر فى الخيل مهرى سرارا ،
واعلم انى إذا ما اعتذرت إليك ؛ أراد اعتذارى اعتذارا !

بالحق ، بالانصاف يا صديقى ، أسألك : هل قرأت مثل هذا الاعتذار رقّةً وعذوبة وتساميا وصدقاً وإخلاصاً فى بيان ساحر ، وشعرٍ شاعر ؟ المتنبى الفارس العالم المعتزّ بنفسه وخُلُقِه ونسبه وحسبه وكفاءته ينفعل من الازورار الذى خدش القرب والأخاء ، والتحية المختصرة التى ما تعودها إلاّ بشاشة عريضة طويلة ، فيذوب خجلاً من الناس ومن نفسه بل ومن مهره ، فيحس بأنّه يموت مراراً ويحيا مرارا ..! هل قرأت يا صديقى وأنت ـ فيما يخيّل إلىّ ـ أديبٌ عالمى مثل هذا الشعر إلاّ لأكابر شعراء البشر أمثال « شكسبير » ، و « دانتى » ، و « فولتير » ، و « بيرون » و « جوركى » و « تاغور » ؟ ! ولو لم يكن أبو الطيب رقيق المشاعر لما سارق أميره الصديق الشهم اللحظ فى استحياء ، ولا اطرق بجفنه يساررُ مهره فى استخفاء ، ومع ذلك يتشامخ مع الحق والصدق ويقول مخلصا لأميره العظيم : لو اعتذرتُ إليك وأنا لم اقترف ذنباً لجاء اعتذارى متعثّراً خجلاً

يطلب منك اعتذارا !

أنّى اصاحب حلمى وهو بى كرمُ ولا أصاحب حلمى وهو بى جبنُ

ولا أخالك يا صديقى ـ وأنت العالم ـ ونحن لا نتمارى ، ولا نتبارى . بل نطلب الحقّ ، ونتحرى الانصاف ، ونحاول معرفة إيجابيّات وسلبيّات المتنبى كما قال صديق الجميع « أبو أيمن » .. ما أخالك بعد هذا إلاّ متراجعاً عن بعض آراءك السابقة فى ذلك الشاعر « الإنسان » ولا سيما قولك فى مقالك الأخير : وقد استعدتْ عليه نرجسيته الجموح الجهل والغرور والكبرياء على البشريّة ، وهذه بطاشة حقود لا تتسامح ولا تسامح أبداً من يتحدّاها ويسفّهها جهاراً نهاراً ، الأمر الذى قرّر مصير أبى الطّيب وحدّد نوعيّة نهايته » . لا .. لا .. يا صديقى الشمرى ورفقاً رفقاً .. فهذا كثير على مثل أبى الطيب .. بل ولا يقوله مثلك .. وليس فى الاستشهاد ما يشين !

٢ ـ المتنبّى هو شـــعره

بالرغم من أنّنى كمسلم ، وكمجرّب ألّف عشرة دواوين شعر وجالس وعاشر المئات من الشعراء لا استطيع إلاّ أن أؤمن ـ عقيدة وتجربة ـ بقوله تعالى عن الشعراء : « وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

وبالرغم من أن الشاعر الفيلسوف قد اعتذر للمتنبّى فى رسالة الغفران بقوله : وإذا رُجع إلى الحقائق ، فنطْقُ اللسان لا ينبى عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبولٌ على الكذب والنفاق ، ويحُتمل أن يظهر الرجل

بالقول تديّنا ، وإنّما يجعل ذلك تزيّنا ، يريد أن يصل إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء ، ولعلّه قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبّدون ، وفيما بطن ملحدون » .

وبالرغم من اعترافى بأن سؤالى الأول لم يكن دقيقاً ولا كاملاً ، وأن عبارات منه قد سقطت سهوا من قبلى وغفولاً ؛ إذ قد كان فى الأصل ، أو كان ينبغى أن يكون هكذا : وهل كلّ ما نسمعه أو نقرأه من أقوال تدلّ بالضرورة على أنها تمثل طبائع وأخلاق وفطرة وسلوك قائلها ؛ أم أن الإنسان قد يجرى على لسانه أو يخط قلمه ما لا يقصده ولا يريده ، وأنه قد يرسل القول أحياناً تزيّدا ، أو تقليداً ، أو رياء أو نفاقا أو على سبيل الرياضة البيانية ؟

نعم أيها الصّديق الشمرى - بالرغم من كل ذلك فسأرضى بجوابك على سؤالى الأول واقتنع به وهو قولك : « نعم أيها الصديق العزيز ؛ أن ما نقرأه ولا أقول ما نسمعه من أقوال المتنبى بالذّات تدلّ بالضرورة على أنها تمثل طبائع المتنبّى وفطرته وأخلاقه » .

إننى راض كل الرضى بهذا الجواب مقتنع به كل الاقتناع وعلى أساسه سأحاورك على أن تكون أقوال المتنبى - وأقواله فقط - هى مقومات كل حكم نصدره عليه ، أو نستخلصه منه ، أو ندمغه به . لا ما قاله خصومه ، ولا ما نمقه انصاره ولا مانتناوشه من تخرّصات « سيكولوجية » ، واستنتاجات ظنية يختلف الناس فى تصورها عادة باختلاف ميولهم وعاداتهم وثقافاتهم .

ولو رجعت يا صديقى الكريم الى مقالى الأول والثانى « الأربعاء العدد الحادى عشر ١٤٠٣/٦/٣٠هـ . والعدد الثانى عشر ١٤٠٣/٧/٧ هـ . لوجدتنى قد التزمت فى حوارى معك منذ البداية الاعتماد على اقوال المتنبى والاستناد الى شعره الوضح الصريح فى دفع التهم التى وجهتها إليه فى مقالك القيم عن كتاب الشيخ عبد العزيز التويجرى « الأربعاء ١٧/محرم/١٤٠٣ هـ .» .

إذ قد أثبت أن المتنبى لم يكن زنديقاً ولا ملحدا ـ كما زعمت ـ وليس بأقوال المؤرخين بل بنصوص شعرية قالها وأثبتها فى ديوانه ولا حاجة تدعو إلى اعادتها وهى تنطق بأنه يؤمن « باللطف من عزيز حميد » ، وبأنه « موحّد » مقر بكلمة « التوحيد » وبأن « الهدى والضلال من الله » وبأنه لن « يثب إلاّ واثقاً بالله » « الرحمن الخالق » « المبشر بالأنبياء والمرسل لهم » .. ويؤمن « بالموت والحياة » و « البعث والنشور » وعذاب القبر و « منكر ونكير » وبموسى « وصعقاته » و « اندكاك الطور » وعيسى و « إحياء الموتى » وابتلائه باليهود ، ورسالة « صالح » إلى « ثمود » وبمعجزات الأنبياء « وحفيف أجنحة الملائكة » وبأن « ليس لله غالب » ، ولا « يقبل لغيره حكما » و « إذا انزل آماله بغيره » ندم واستغفر .

اثبت كل ذلك من شعر المتنبّى ، وكنت أظنّ أنّى قد أنصفتك وأنصفت « المتنبّى » بل وحببتُ لى ولك سبيلاً إلى لقاء حين قلت أن فلسفة القوّة عنده هى القدرة الخالصة من العجزوالتقصير أي الحلم المحض الذى لو أردت أن تجعل السيف أو البطش مكانه لقدرت لا يمنعك من ذلك إلاّ العقل

الذى يحسّن ويقبح الأفعال ويميّز بين الخير والشرّ ويمجّد المروءة والنفع العام ويحقّر الغرور والأنانية الجوفاء والعبث والاستعلاء وإن لباب الخير الأسمى فى هذه الفلسفة عند المتنبى هو وضع الشيء المناسب فى مكانه المناسب . وحين نبّهت إلى أن ما يرد على لسانه من نفثات وشطحات قد تدل أو توحى بأنه يمجّد القوّة لذاتها هو أشبه بالمتشابه من الآيات وَالتى يحتّم علينا العقل والشرع والمنطق أن نردها إلى الآيات المحكمات ،وقلت أن المتنبّى من العباقرة الذين قد يرمزون ويغمضون ولكنهم لا يناقضون أنفسهم وأنّ اقتفاء هذه الطريقة : إرجاع المتشابه إلى المحكم هى الطريقة المثلى لمعرفة ما غمض من كلام العباقرة أمثال الإمام علي أو الزمخشرى أو المتنبّى .

وأثبت ـ ومن شعر أبى الطيب ـ أنه كان حنيفاً مسلماً لا يحثّ على العنف ولا يحذّر من الضعف إلاّ إزاء من كان يقاتلهم مع سيف الدولة من الكفّار والصليبيّين واعداء الإسلام ، أمّا ما عداهم فإنه كان يدعو إلى الرفق بهم والعفو عن مسيئهم ، وأثبتّ أيضا من شعره انه كان شاعر الإسلام المنافح عن العروبة من بين شعراء عصره ، والذائد عن حياض الخلافة الاسلامية وانه كان يرى فى سيف الدولة « حسام الله » ، وحامل « لواء الدين » والوحيد الذى كان « يرضى المكارم والربّا » بين أمراء زمنه قد أخلص « نصرته للإسلام » وهو« سيف ربه لا سيف خلقه » ، و« سيف دولة ذى الجلال » لا « دولة الخدم » المشغول بالذب عن مجد الإسلام لا بالملاهى والجوارى والكأس والقيان ممن هم بأعمالهم مع المشركين « ضد المسلمين »

« إمّا لعجزٍ وإما رهب » وسيف الدولة وحده « مع الله » قليل الرقاد كثير التعب » . إلى غير ذلك ، وكنت اعتقد أنّى قد جلّيت الصورة الحقيقية لأبى الطيب والتى حاول « بلاشير » و « طه حسين » ومن لفّ لفهما تشويهها ، وأنك ستبتهج لذلك لأنك ممن يقدّرون عظمة المتنبّى الشعرية وعبقريته البيانية ، لكنك ظللت متشبّثاً بما علق فى ذهنك عن « المتنبى » من قراءات قديمة فعدت من جديد تردّدنفس التهم مما سبب هذا الحوار الذى أرجو أن يكون نافعاً ومفيداً .

وما دمنا قد اتفقنا على أن شعر المتنبّى ـ وشعره فقط ـ هو الذى يمثله ، وما دمتُ قد رضيت بجوابك فلا ضير إذا واصلنا الحوار على الأساس الذى التقينا عليه ؛ وسأحاول أن أثبت ـ ومن شعر المتنبّى ـ أنه كان يؤمن بالقوّة كوسيلة يحقق بها أهداف الحق الفضيلة وشريعة الاسلام ومكارم الأخلاق ، ولا يمجدها لذاتها ، أو من أجل الاستئثار والطغيان ، وأنه كان يدين بها كوسيلة يقيم بها العدالة الاجتماعية ، والمدينة الفاضلة وليس كمذهب يخوّل من يملكها استعباد البشر كما أراد صاحبك « نيتشه » ومن لفّ لفه ، وسأثبت لك ذلك من شعره المعتّق الناضج الذى قاله وقد جاوز الأربعين وليس من شعره وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة ، ومما قاله فى صباه مثل « وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق » .. ولا قبل أن يسجن وهو دون العشرين فإن الشاعر فيه يومئذ لا يزال فى عنفوان الطيش والفتوّة وجنون الشباب إلاّ انه مضطهد مظلوم فارس شجاع طموح ذو خلق كريم وغيره على العروبة والإسلام ومعظم ما استشهدت به مما يصوّره طائشاً قلقاً

« نرجسياً » ! هو مِمّا قاله فى هذه الفترة يا صديقى الكريم . وسأختار لك من شعره المعتّق هذا ثلاث قصائد نقف عند كل « قصيدة » الوقفة التى تليق بها وكلهن من « المحكمات » ومما قاله وهو فى الأربعين أو يزحف الى الخمسين .

برومل ٨/رمضان /١٤٠٣ هـ. /١٩٨٣/٦/١٨ م

إلى الفيلسوف الشمري

« فلسفـة المتنبى عن القـوة »
فلسفة المسلم الآمر بالمعروف
ثمة فارق هائل بين شعر المتنبى
كهلا وشعره صبيا أو مراهقا .!
مذكرة إلى الشيخ التويجرى ..

٣ ـ مجّد القوّة وسيلة لا مذهبا .

فرغنا من الكلام عن المتنبّى الإنسان السليم الفطرة الذى يغضب ، وينفعل ويألم ويحزن ، ويسرّ ويفرح كسائر البشر الطبيعيين ورأينا أنّه ولو بالنسبة الى كثير ممّن نعرفهم من كبار الشعراء والعباقرة ـ كان أقربهم إلى التقوى نشأة وسلوكا ، واكثرهم اتزاناً ، وألصقهم بمنطق الحكمة والعقل ، وأعظمهم فلسفة ، وأشدّهم التزاما بمكارم الأخلاق ، وغـيرةً على العـرب والمسلمين ، والحرية ومحارم الله ، ولا سيما وقد عاش فترة تاريخية رهيبة .

سبق أن وافقتك ـ أيها الصديق الكريم على أنها كانت « حقبة تاريخية عاصفة » وأنهـا كانـت « عصر تدهـور الدولـة العبـاسية وانحطاطهـا » و « عصر الشعوبيين والعلوج والزنوج » « ممـن ضربـوا العـرب بالذلـة والهوان » وقلتُ : إنّه كان داعية الى الاصلاح يحاول جاهداً تخليص مجتمعه العربي المسلم من نير الشعوبيينّ والخدم ومـن مؤامـرات الـروم واليهـود والصليبيين ؛ واستشهدت بالأشعـار الدالـة على كل ذلك ، وهـذا تمهيدُ

للدخول الى محاورتك ـ أيها الصديق الكريم ـ حول فلسفة القوّة عند ـ أو فى شعر أبى الطيب المتنبّى ؛ وقد قلت فى خاتمة مقال الاسبوع المنصرم انه كان يدين بالقوة كوسيلة تقيم الحق والعدل وليس كمذهب يستعبد البشر، وكنت قد وافقت الصديق الشمرى على أنّ ثمّة فارق هائل بين القـوّة كوسيلة والقوّة كمذهب وأن القوّة عندما تجنـح تصبـح طغيانـاً ووعـدت بالوقوف مع ثلاث قصائد تؤيّد ما ذهبت إليه ، ومن شعر المتنبّى المعتّق شعر النّضج والكهولة لا شعر الصبا والمراهقة .

تأرجح الصديق الشمرى بعد أن أبان أنه « لم يتعامل فى مقالته مع المتنبّى الشخص أو الانسان بل مع المتنبّى الفيلسوف والفنّان » .. ثم لعلّه تذكّر أنّه قد صبّ على المتنبى الشخص والإنسان دلواً من الشتائم والتحقير خُلُقاً ودينا ونسباً وسلوكاً فاستدرك قائـلاً : « نـاهيك بأن الأجيال تذكر وتشكر ، أو تستهجن وتلعن وهى تفعل ذلك استنادا الى نوعية العطاء لا إلى اخلاقية المعطى » والعالم تحكمه الأفعال [وهى بالنسبة الى المتنبّى أقواله] لا النوايا » « فالذى يدعو الى الشر هو الشرّير حتى ولو تفذلك أحدهم فقال إن اقوالـه لا تدل بالضرورة على انـه الشرير » « علما بأنـه لمن المستحيل علينا أن نفصل بين المتنبى الإنسان وبين المتنبّى الفيلسوف » ثم انتهى الى القـول جازمـا قاطعـاً فى حكم صارم « فالمتنبّـى ليس بذلك « الباطنى » المتكتم الكتوم الحذر فى خطواته والحيسوب فى حساباته ، بل أنّه ذلك الانسان الانفجارى الطبع حتى النزوّية ـ [يريد النُزوّ والنَزوان والتّنزّى] ـ والصريح حتى فى الاستجداء ، والمتهوّر حتّى فى مجالس الحكّام

والأمراء ، وقد استعدت عليه « نرجسيته » الجموح الجهل والغرور والكبرياء على البشرية » ! هكذا قال كاتبنا الفيلسوف الشمّرى .

ولأنى قد وافقت الصديق الكريم على أنّ شعر المتنبى .. وشعره فقط هو الذى يمثله إنساناً وفيلسوفا سأحاول من جديد أن اثبت له ومن شعر المتنبّى بأنه لم يكن شريرا وانه كان حذراً حيسوباً ، وإن حِدّة مزاجه لم تكن انفجاراًمتنزّيا ، ولم يكن متهوراً ولا شحاتاً ، ولا جاهلاً ولا مغروراً ، ولم يكن متكبراً على البشرية بل ألوفاً وفياً معتزّاً بنفسه وعلمه وأدبه وكفاءته معرضاً عن الطغام والجاهلين .

يا صديقى الكريم انه لا يجوز لا علماً ولا منطقاً ولا عقلاً ولا شرعاً إذا أردناأن نحكم على شخصٍ بأقواله ، أو نحاكمه عليها أن نأخذ بعضها ونهمل بعضها فنكون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، أو ممن يتصيّدون العبارات التى تدين القائل وإن كانت تحتمل التأويل ، ويتركون عباراته الصريحة الجليّة التى تُبرّؤه ، أو ممن بأخذون بالمتشابه ، ويحيدون عن الآيات المحكمات و « هنّ أم الكتاب » .

فإذا أردنا أن نحكم على المتنبّى وندينه كإنسان أو فيلسوف من شعره فلا بد أن نقرأ شعره كلّه ونميّز بين « اصوله » البيانية والفلسفية التى ينطلق منها ، ولا يصدر إلاّ عنها ، لأنّها طبعه ومزاجه ، وغذاء ثقافته ، وينابيع معرفته ، وبين « النّزوات » البيانية التى قد ينفث بها اللسان فى ساعة همّ أو ضيق أو يأس أو غضب ، وكل إنسان معرّض لذلك ؛ ولهذا وصف الله المؤمنين بقوله : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » وقد كان حتى الأنبياء وهم

المعصومون يتعرّضون لساعات اليأس والقنوط وينفعلون بأنواع شديدة من الحسرة والأسى والحزن والأسف والغضب ، ولهذا خاطب الله رسوله ﷺ بقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وقال تعالى : « فلا تُذهِبْ نفسك عليهم حسرات » ووصف حالة نبيّه وكليمه موسى عليه السلام بالغضب والأسف فقال : « ولمّا رجعَ موسى إلى قومه غَضْبان أسِفاَ » ويونس عليه السلام نزلت فيه : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه » .

هؤلاء هم صفوة الله فكيف بنا نحن يا صديقى الكريم ، ؟ و « محكمات » المتنبّى ، « والقواعد » الأصلية التى أرسى عليها فلسفته وآراءه فى الناس والحياة والحكم والسياسة لاتشذ عن متطلبات الانسان المسلم الحكيم المؤمن بالله وبالخير العام وايجاد المجتمع المسلم النظيف الطاهر الذى يسوده العدل ويحكمه العلماء والفضلاء والأخيار وليس الظلمة والمماليك والجهال والسفهاء ؛ ولقد أشبعت الموضوع درساً ، وكرّرت القول فيه مراراً وضربت له الشواهد والأمثال فيما سبق من المقالات ومن واجبى الآن الوقوف مع ثلاث قصائد للمتنبّى والتى منها نعرف انه كان يؤمن بالقوة وسيلة وليس مذهبا .

١ ـ خطبة سياسية أو بيان وطنى .

القصيدة الأولى أنشدها سيف الدولة يهنئه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة أى وهو يدخل عامه الأربعين ، وهى الدرجة الأخيرة

صعوداً إلى قمّة هرم الحياة ، والتى منها يبدأ الانسان فى الانحدار .. وقد أنشده إياها فى ميدان حلب وهما على فرسيهما بين الألوف من الحشم والعلماء والوزراء والأمراء والشعراء والجنود والمواطنين .

وفى هذه القصيدة الرائعة أو الخطبة السياسية الخطيرة تحدّث أبو الطيب حديث الحكيم الفيلسوف ، والسياسى المحنّك ، والمحارب الفارس ، والداعية البارع وكأنّه كان لا يلقى قصيدة مدح وإطراء أو تهنئة أمام أمير ، بل خطبة سياسية ، أو بيانا وطنياً . فى مجلس وزراء أو جمعية وطنيّة :

ففيها التمجيد للزعيم والتعريض بالعملاء والمرجفين .

وفيها السخريّة بالأعداء والتنديد بالمنافقين .

وفيها الأمانى والوعود .

وفيها التحذير والوعيد .

وفيها الوصف الدقيق لمعركة انهزم فيها عظيم الروم وخلّف ابنه أسيراً وجيشه غنيمة لسيف الدولة وجيشه اللهام .

وفيها الإثارة الحذرة ، والإغراء المغلّف والإشادة بالزعيم المؤمن المجاهد فى سبيل الله الداعى مخلصاً ووحيداً بين ملوك وأمراء عصره لعزة العرب والإسلام والمسلمين حتى أصبح نفسه هو مثلهم الأعلى وعميدهم الأكبر ، بل وعيدٌ لمن سمّى وضحّى وعيدا :

لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا
وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا

وأن يُكذِب الأرجاف عنه بضدّه ،
ويمسى بما تنوى اعاديه أسعدا ..

وربّ مريد ضرّه ضرّ نفسه ،
وهادٍ إليه الجيش أهدى وما هدى !
ومستكبرٍ لم يعرفِ الله ساعةً
رأى سيفه فى كفّه فتشهّدا ..
هو البحر غُصْ فيه إذا كان ساكناً
على الدرّ ؛ واحذره إذا كان مزبدا ..
فانى رأيت البحر يعثر بالفتى
وهذا الذى يأتى الفتى متعمّدا ،

وقد اختلف الشراح فى تفسير هذا البيت السادس فقال البعض انه عنى : أن البحر يُغْرِق ويهلك راكبه عن غير قصد وعمد والممدوح يهلك اعداءه قصداً وعمدا ، وقال ابن جنى : المعنى : ليس إغناء البحر من يغنيه عن قصد ، وسيف الدولة يغنى من يغنيه عن تعمّد .

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكى ، وتلقاه سجّدا
ذكيّ ؛ تَظَنّيه طليعة عينه يرى قلبه فى يومِه ما يرى غدا

وهذا البيت لا يكاد ينفذ منه العَجب ، واختيار الشاعر للفظة « التظنى » التى معناها اعمال الظن ، وتفضيله استعمالها على كلمة « الظن » الذى هو التردّد الراجح بين طرفى الاعتقاد غير الجازم ، اختيار شعرىّ فلسفيّ فإذا كان أوس بن حجر قد قال :

الألمعى الذى يظن بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا

فأجاد وأبدع فالمتنبى قد تجاوز الظن إلى اعماله ، ثم مثل هذا التظنّي بطليعة الجيش وربيئته التى تتقدّمه لتستطلع جيش العدوّ ، وكأنّه يقول أن سيف الدولة من الذكاء والفطنة ونفاذ البصيرة يرى بتظنّنه الشيء قبل أن تراه عينه ، ثم بين ذلك بقوله الرائع : يرى قلبُه فى يومه ما ترى غدا وهو تعبير لا يستطيع صياغته صياغة شعرية ساحرة هكذا : إلاّ المتنبّى .. وهذا الوصف من ابدع ما سمعناه فى وصف الزعيم ، وما أحوج العرب والمسلمين إلى مثله فى كل زمان .

وبعد أن أشبع فنّه فى مدحه للأمير ووصفه لمعركته مع « الدّمستق ، وفراره ، وأسر ابنه « قسطنطين » وتحذيره لسائر اعداء الأمير سيف الله المجرّد لقتال الكفار ، فى أسلوب لا يخطر فى بال من يريد أن يجعل من « القوّة » مذهباً أو نظاما يستعبد به المسلمين المجاهدين الرّكع السجود ، قال وهو ما نريد أن نصل إليه ، وما اخترنا هذه القصيدة من أجله :

فيا عجبا من دائل أنت سيفه
أما يتوقّى شفرتى ما تقلّدا
ومن يجعل الضرغام بازاً لِصيده
تصيّده الضرغام فيما تصيّدا .
رأيتك محض الحلم فى محض قدرة
ولو شئت كان الحلمُ منك المهنّدا .
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحرّ الذى يحفظ اليدا ؟

اذا أنت أكرمت الكريم ملَكته ،
وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعُلا
مضرٌ ، كوضع السيف فى موضع الندى
ولكن تفوق الناس رأياً وحكمةً ،
كما فقْتهم حالاً ونفساً ومحتدا
يدقّ على الأفكار ما أنت فاعلُ
فيُتركُ ما يخفى ، ويُؤخذ ما بدا !

وهذه القطعة الفنّية الفلسفية تبينّ لنا بوضوح ودقّة فلسفة المتنبّى فى القوّة ، وتقضى بشكل حازم حاسم انه كان يراها نافعة مُجْدِيةً محمودة ، إذا استعملها صاحبها استعمالا حكيما مشروعاً ، مع عدوٍّ شرس ، أو خارج على النظام ، أو داعية الى فساد أو إفساد ، أو محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وقد سبق الاستشهاد بالآية الكريمة : « انما جزاءُ الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرضِ فساداً أن يقتّلوا أو يُصَلّبوا أو تُقَطّع أيديهم وأرجلهم مِن خِلاف ، أو يُنفوا من الأرض » ولا يكابر فى هذا إلاّ معاند أو من لا يعرف سياسة أو كياسة ، أو من يجهل تاريخ الأمم .

والمتنبّى يعدُّ استعمال القوّة فى غير مكانها المناسب أو لمجرّد الاستعلاء والاستكبار ، جنوحاً وطغيانا ، بل وضرراً على من يسىء استعمالها ، لأن الظلم والقهر والطغيان وخيم العاقبة ومصيره الهلاك والتّلاشى ؛

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومُه ما يومه ما المصرعُ ؟

ورحم الله السيد المجاهد الجزائرى عبد الحميد بن باديس فقد قال فى احدى خطبه ، قبل أن تتحرّر « الجزائر » من النير الفرنسى : « اللّهم إنّه لا تستيقظ الأمم الاّ بالعلم أو الظلم ، اللّهم ونحن من العلم فقراء فزِدْنا ظلماً » ؛ وقال شوقى :

يكمن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء !؟

وكلّ تلك المعانى تكمن فى قول المتنبى .

اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وإن أنت اكرمت اللئيم تمرّدا ..
ووضع الندى فى موضع السّيف بالعُلا
مضرٌ ، كوضع السّيف فى موضع الندى

وبالعدل تنمو الدول ، وتتحسس العلاقة بين الحكام والمواطنين ،وقد جبلت القلوب على حبّ من احسن اليها والمتنبى يقول فى آخر القصيدة :

وقيدتُ نفسى فى ذراك محبةّ ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا

ولست بصدد شرح فضائل العدل والاحسان ومساوىء الظلم والطغيان ، والاستاذ الصديق الشمرى يعرفها افضل منى ، ونحن لا نتجادل حول شعر المتنبى وعبقريته البيانية فقد نصّبه الصديق الفيلسوف « امبراطورا للشعر العالمى » .

ولعلّه يجدر بى ـ قبل الانتقال إلى القصيدة الثانية ـ التنبيه الى بضعة أمور : أوّلاً : أن أبيات « المتنبّى » فى تبيين فلسفته عن « القوّة » ، وانه كان ضد استعمالها طغيانا ، مثلما هو ضد تركها خوراً وضعفا ، كثيرة جداً

مبثوثة فى قصائده ، ولا سيا التى قالها بعد أن جاوز الأربعين ؛ وهو فى بلاط « سيف الدولة » ، أو فى « مصر » أو فى « العراق » و « فارس » ، وهو مثقل بالهموم والتجارب ومشاكل العرب والمسلمين ، وكل ذلك يؤكد انه كان يمجد الحلم المحض ، والعفو والاحسان ، ولا يدين بالقوّة والعنف الاّ وسيلة الى الخير العام كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » . مثل قوله فى تمجيد العفو :

وإن كان ذنبى كلّ ذنب فانّه   محا الذنب كلّ الذنب من جاء تائبا

وهو يشير الى الحديث الشريف : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وقوله :

أبوالمسك لايفنى بذنبك عفوه   ولكنه يفنى بعذرك حقده

وقوله :

كلّ حلم أتى بغير اقتدارٍ ،   حجّةٌ لاجىء اليها الّلئامُ

وقوله :

وكل شجاعة فى المرء تغنى   ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

وقوله :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه   إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وهم يحسنون العفو عن كل مذنبٍ   ويحتملون الغرم عن كل غارم

الى غير ذلك مما يؤكد ما ذهبت إليه ، ولا أظن الصديق ذيبان يجهله ، أو يستنكف عن الاعتراف به وان كان لا يلتقى مع ما كان يتوهمه ، فهو أجلّ

وأتقى للحق والمنطق ؛ وأقرب إلى الرجوع الى الحقيقة ، والرجوع اليها فضيلة .

لقد كان المتنبّى عالما فيلسوفا وسياسيا حكيما ، وكان نظيف العرض ، كريم النفس ، تتهاداه الدول والملوك ، وتحترم آراءه ، ولا يخافه ويرهبه ويستثقله منهم إلاّ الجهال والطغام ، والاستاذ الشمرى يعلم أن سيف الدولة قد ندم على فراقه أشد الندم ، وأنه قد كاتبه بعد أن غادر مصر يطلب منه العودة الى الشام ، وردّ عليه المتنبّى بقصيدته :

أتانى الكتاب أبرّ الكتبْ فسمعا لأمر أمير العربْ

وهل يتشوّق سيف الدولة الى رجل مكروه « استعدت عليه نرجسيته الجموح الجهل والغرور والكبرياء على البشرية ، كما تقول فى مقالك ؟ . لا ..لا .. يا صديقى واستغفر العلم والشعر واستعيذ بهما . من فلتات اللسان وشطحات القلم .

يا سيّدى الكريم : إن المتنبّى لا يستحقّ مثل هذه الصفات التى لا شك انك استقيتها فى مطلع حياتك الأدبية عن أمثال « بلاشير » و« طه حسين » ثم جمدت عليها كأنك اشتغلت بفنون اخرى من العلم أصبحت بها كاتبا فيلسوفا ، ولا يضيرك بها أن لا تعرف عن المتنبى شيئا ، ولا تبالى أكان مخلوقاً أم لا .. لقد كان شاعرا يا صديقى بكل ما فى الكلمة من معنى ؛ ولقد قالوا : كان أبو العلاء المعرّى إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى كذا ، قال أبو تمام كذا ، فاذا ذكر المتنبى قال : قال الشاعر كذا . فهل يجوز أن يوصف مثل هذا بالنرجسية ؟

لقد كان المتنبّى يا صديقى رجلاً بكل ما فى الكلمة من معانى الفتوّة والكمال ، قال أبو علي محمد بن احمد بن فُورّجه .. كان المتنبّى رجلاً داهية ، مُرّ النفس شجاعاً ، عالى الهمّة ، حَفَظَةً للآداب ، عارفاً بأخلاق الملوك ، فهل يصح أن نصفه بالجهل والغرور يا صديقى الكريم ؟ .

ولقد كان اعلم أهل عصره باللغة العربية حتى قيل أن الشيخ أبا عليّ الفارسى صاحب « الايضاح » و « التكملة » سأله يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى ؟ فقال المتنبّى فى الحال : حِجْلى وظِرْبى ؛ قال أبو علي : فطالعتُ كتب اللغة ثلاث ليال عليّ أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً ، فلم أجد ، وحسبُك من يقول فى حقه أبو عليّ الفارسى هذه المقالة . أفيصحّ أن نصم مثل هذا العالم الحَفَظَة الدّاهية بالتهوّر والشرّ يا صديقى الشمّرى ؟.

إلى الشيخ التويجرى

هذا أوّلا : وأما ثانيا : فأنت تدرى يا صديقى ان بعض أبيات هذه القصيدة الدالية قد أوحت لصديقنا السياسى الكاتب الشيخ عبد العزيز التويجرى تساؤلات هادفة قد لا يهتم بالاجابة عليها نيابة عن المتنبى الاّ سفيره لدى « التويجرى » ولن يكون المتنبّى راضياً عنّى إذا اهملتها وأنا اتحدث عن قصيدته .

يقول الشيخ عبد العزيز فى كتابه : « فى أثر المتنبّى » :

« وأنت يا أبا الطّيب ، ما بالك وهذه العثرة ، وهذا اللّون من الاغراء لأميرك ؟ حاولت أن اتجاوزه ، ولا اعترضك فيه ، ولكنى غريق فما خوفى من البلل كما تقول ما الذى حملك على ان تقول لأميرك :

فيا عجبا من دائل أنت سيفه أما يتوقّى شفرتىْ من تقلّدا

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيّده الضرغام فيما تصيّدا ؟

أبا الطيب :

لماذا تغرى حلب ببغداد ، وتغرى بغداد بحلب ؟ لماذا تحاول ان تغرى هذا بذاك ؟ فبغداد الخليفة وحلب الأمير ، ما ادراك أن هذا الاغراء بهما لم يمت على شفتيك ، ولكنه نداء مشؤوم مشى مع الزمن ؟ وأنه هو ما تعانيه

اليوم بغداد وحلب ، وتعانيه ايضا أوطان اخرى من وطنك العربى الكبير » .

« أبا الطيب : أأتجاوز فى هذا الموقف ادوارا وأفعالاً كريهة ، أم افتح لك الطريق لترى ما يجرى اليوم فى أوطاننا العربية من بغيٍ على العقل والحق والكلمة ؟ جيوش من الأفواه المريضة تغرى هذا بذاك ، وتحمل فؤوس الدمار تدك بها كلّ رابطة اخوية فى العقيدة واللحم والدم ، والجوع والظمأ ، والغنى والفقر ، فالقلم المنافق فى الكتاب المنافق ، فى الصحافة المنافقة ، فى الرسالة المنافقة فأس كريهة أكلها الصدأ وإن جالت وصالت فى فترة زمنيّة غائبة عن وعى الانسان»«سورة اقرأ » : ص ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ

وهذا كلامٌ رصين ، صادرٌ عن قلب حزين ، تكاد تمزّقه الحسرات ، اسفاً على ما تعانيه أمته من فرقة وشتات ، ولكنّك يا أبا عبد المحسن ، وأنت من زامل أبا الطيب طويلا واقتفى اثره أكثر من اربعين عاما .. تعلم أن إغراءه لسيف الدولة على الخليفة فى بغداد لم يكن اغراء الطامع الطامح ، أو الحاسد الحاقد ، أو المائق المنافق ، أو الواشى الغاش ، ولكنه كان استنهاضا وارشادا ، وتوجيهاً واستنجادا ، فلقد كان المتنبّى يتحرق غيظا ، ويذوب كمدا ، حين يرى العرب وقد تحكم فيهم « الاتراك » و « الشعوبيون » و « المماليك الطغام » ، ويرى قرون الانحراف قد استدّتْ وقويت بعدما تصرّع دعاة الاصلاح ، وكان لا يزال يأمل بأنّ فى الامكان ملافاة الأمر ، وتدارك دولة الاسلام إذا وجد الداعية القوى الأمين الشجاع المطاع ، وكان يتوسّم ويتظنّى فى سيف الدولة ذلك الزعيم ؛ وكأنه

كان يريد منه أن يكون هو خليفة المسلمين لأنه الأقوى والأعلم والأفضل والأجدر من ذلك الضعيف المترف القاعد على كرسى الخلافة وامارة المؤمنين تحفّ به الاماء والعبيد والقيان وأصنام الترف والخلاعة والمجون ، والاجلاف من « الأغوات » يدلّلونه ويسيرّونه ، أو يحقّرونه ويسحلونه ، يخلعون من يشاؤون ، وينصبون من يشتهون ، ويرشّحون لإمارة المؤمنين من لا صلة بينه وبين الاسلام ورسوله الأمين ﷺ إلاّ انه من اولاد عمه العباس رضى الله عنه ! وكأنى بأبى الطيب قد ناقش الأمر مع أميره طويلاً ومرارا ، وكأنهما كانا يدبّران أمراً حالت دون تنفيذه الظروف ، أو اختلاف وجهات النظر ، أو توجّسات سيف الدولة وكثرة « تظنّيه » ، ولعلّ « المتنبّى » وهو كما اعتقد من نسل البيت العلوى الفاطمى كان اكبر همّةً ، واكثر مغامرة من صديقه الحمدونى الشيعى الشجاع الذى يحسب لمنافسيه وأعدائه فى الروم ومصر ، ألف حساب ، وقد مثل هذا الاختلاف وذلك التحسّب و« التظنّى » قول المتنبّى فى القصيدة :

ولكن تفوق النـاس رأياً وحكمةً كما فقتهــم حالاً ونفســاً ومحتدا
يدقّ على الأفكار ما أنت فاعلٍ فيُترك ما يخفـى ، ويُؤْخَـذُ ما بدا

فهو يشير الى ان تصرّفات سيف الدولة مع خليفة بغداد التى لا تتفق مع رأى المتنبّى ، ويعتذر له باسلوب كثيرا ما يلجأ اليه السياسيون الأذكياء عندما يحرجون ، أو على الأصحّ عندما يفشلون فى اقناع من يخلصون لهم من ملوكهم وأمراءهم ويريدون الإبقاء على صلاتهم بهم فيقولون هذا ما نراه ، والرأى الأوّل والأخير لكم ؛ فأنتم أدرى واعلم .!

أما الخلف بين الشام والعراق فقد كان نداءً مشئوما عريقا ، تحدّر مع الزمن من اعماق القرون الجاهلية الأولى ، ولم تزمجر لعنته القديمة على لسان المتنبى ، إنها لعنة « سبأ » أو لعنة « يكسوم » أو إن شئت فقل لعنة « فارسدّ مأرب » عندما اكتسحه « سيْل العرم » فتفرّق القوم أيدى « سبأ » وذهب « المناذرة » الى العراق وكانوا لها أمراء وعملاء لفارس ، ونزح اولاد عمهم « الغساسنة » الى « الشام » وكانوا لها أمراء وعملاء للروم ! وتطاحن اولاد العم ، بالنيابة عن « الامبراطوريتين » حتى ارتفعت راية الاسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً متحابين متآخين ولكن ..
حتى إذا وسعت « معاوية ... وضاق بها « على » ، نزلت على حكم القوى . وتحت رأى الأحيل .

وأقبل شاعر « معاوية » و « الشام » ينشد :

أرى « الشام » تكرهُ أهل العرا ق ، وأهل العراق لهم كارهونا
وكلّ لصاحبه مبغضٌ يرى كلّ ما كان من ذاك دينا !
إذا ما رمونا : رميناهم ودنّاهم مثلما يُقرضونا ..
وقالوا « عليّ » إمام لنا فقلنا : رضينا « ابْن هند » رضينا
وكلّ يسرّ بما عنده يرى غثّ ما فى يديه سمينا
وما فى عليّ لمستتعب مقالٌ : سوى ضمّه المحدثينا

وحاول شاعر العراق « النّجاشى » أن يردّ عليه بقصيدة جاء فيها :

فان تكرهوا الملك ملك العراق فقد رضى القوم ما تكرهونا
فقل للمضلّل من وائل ومن جعل الغثّ يوماً سمينا ،

جعلتـــم عليّا وأشياعه نظـير بن هنـدٍ ؛ أمـا تستحونا ؟

فقال العلامة الناقد « ابن ابى الحديد » : « ابيات كعب بن جعيل خيرٌ من هذه الأبيات وأخبث مقصداً ، وأدهى وأحسن :

وإذن فجذور المأساة أصيلة قديمة ؛ ولكنها مأساة ولا تـزال نواشبهـا مستحكمة .. ، والى اللقاء فى رسالة اخرى عندما اتحدث عن القصيدة الثانية من قصائد المتنبّى « المحكمات » عسى أن يصيخ لصوت الانصاف صديق الجميع الفيلسوف ذيبان الشمرى .

بروملى ١٠/رمضان/١٤٠٣ هـ/٢٠/٦/١٩٨٣ م

إلى الفيلسوف الشمري

ليس العربي المسلم « ظاهرة صوتية » بل باري « سقراط » و « شكسبير » فلسفة وشعرا . القصيدة الثانية ، ذات العناوين والشجون « نشيد الرفق الخالد » .

عندما أجاب الاستاذ ذيبان الشمري على سؤالي الثاني : « لماذا أخذ النّاس ـ ولا سيما المستشرقون وخصوم المتنبّي تلك الصورة المشوّهة عنه ومثلوه وحشاً بشرياً ولم يفعلوا ذلك مع غيره من الشعراء الخ » عاد فكرّر ما سبق أن قاله في مقاله الأول المثير ، وما حاولت أن افنّده بلطف ورفق وبالبراهين والأدلة التي تجاهلها ، وأعرض عنها صفحاً ، ولم يتناولها بالنقد ، وكأنّها لم تكن ، واكتفى باعادة نفس التّهم من جديد فقال : « ولقد كان طموح المتنبي جموحاً يمتزج بالثورة على العصر وبشره ، وتغترف أو بالأحرى تمتح خيبات آماله المرارة المسمومة من بحار مظلمة تتلاطم أمواجها بالنقمة والحقد على البشرية والبشر » ! وقال ان فلسفته كانت نظريا وممارسةً تقضي « بأن القوة هي تفسرّ الحق ، والحق هو ما تطاله اليدان من مكاسب سواء جاءت اكتسابا أو اغتصاباً ، أم جاءت نتيجة لادّعاء نبوّة أو استجداء عاجز ، وأنّه كان يغلّف طموحه بمكر الثعلب ، ويستر طموحه ومكره بوداعة الحمامة مثل سائر من يطلب النجاح من ابناء

عصره الذى كان يمثله وعايشه وشرب حتى الثمالة المترسبة فى كأسه » .

وقد سبق لى مناقشة معظم هذه الدعاوى والتخرصات التى أغرق وبالغ وغالى فى تهويل وتبشيع وتلوين تصويرها خصوم المتنبى ولغة القرآن ، وكنت أظنّ أنّنى بمجرّد لفت نظر الاستاذ الكريم الى زيفها والى أهداف دسائسها سيندفع ـ وهو المخلص للقرآن ولغته ودينه مزاجا وثقافة ـ اندفاع الغيور الأمين على المعرفة ، والعالم المتحرّى للانصاف ، والفيلسوف المتيّم بالحقيقة ، ويمتشق حسام المنطق مدافعاً عن المتنبى شاعر الاسلام ضدّ اولئك الذين لا يستطيعون أن يعترفوا أو يقرّوا انه يوجد بين العرب والمسلمين من يبارى سقراط أو افلاطون أو ارسطو من الأولين ، أو هوجو ، وكانت وشيكسبير من المتأخرين فيبدع ناثرا أو شاعرا الصور الجميلة ، أو الحكم الغالية ، أو التعاليم القيمة ، ويحاولون أن يثبتوا أن « العربى المسلم » عبر التاريخ ليس إلاّ « ظاهرة صوتية » بلا عقل ولا تفكير ولا سموّ ، كما قال ابن القصيم الذى عقّها ، وكما سبقه الى ذلك بعض المتعصبين من المستشرقين وتصدّى للرّد عليهم جمال الدين ومحمد عبده والرافعى ومحمود شاكر وغيرهم .

نعم يا صديقى الكريم كنت أظن أنى بما سردته من أدلّة وشواهد ومن أقوال ابى الطيب نفسه قد لفت نظرك إلى تأمّلها ، وها أنا أناشدك بالحق ورحم المعرفة أن تعيد قراءة ما كتبته ، وأن تناقش البراهين دليلاً دليلاً وشاهداً وتدلى بما تراه من حجة أو بيان فى تزييف ما لم تطمئن إليه ، وقد تُغَيرّ رأيى إن برهنت أنى قد اخطأت أو وهمت ، كما حاولتُ فى تزييف

بعض دعاويك ، مبيّنا ما افهمه عنها أو محيلاً متشابهات أشعار المتنبى الى محكماته » ، أو مفسرّا ، أو متأولا ، أما أن تظل تردّد نفس التهم والدعاوى ، وما سبق أن أبنته فى مقالك الأوّل الذى سبب كل هذا الحوار والنقاش والجدال دون مراعاة الحجج والبراهين التى حاورتك أو ناقشتك بها ، إقراراً أو انكاراً فأنت تدرى أن نظام المناظرة لا يقرّك عليه ، ولا يسمح به ، وأنت سيد العارفين بقوانين الحوار ونظام المناظرة ويؤسفنى أن أضطر الى لفت نظرك الى مثل هذا أيها العالم الصديق .

ولا اريد أن أناقشك الآن بما لمسته من تناقض فى قولك أن المتنبى كان « يغلّف طموحه بمكر الثعلب ويستر مكره بوداعة الحمامة » ، وما سبق أن وصفته به من الغرور والطيش والنزوان والانفجارية والحماقة ، ولا أن أبينّ لك ما قصد بقوله :

من أطــاق التماس شيء غلاباً ... واغتصابــاً لم يلتمسْــهُ سؤالا

وأن البيت الذى يليه قد فسرّه وهو :

كل غاد لحاجــة يتمنّى ... أن يكون الغضنفــر الرّئبالا ..

فقد قال المتنبى هذه القصيدة يذكر نهوض سيف الدولة الى ثغر الحدث لماّ بلغه أن الروم أحاطت به وقال العكبرى فى شرح البيتين :« يشير بهذا الى أن الروم لم يفرّوا من بين يدى سيف الدولة أنفا ومكارهة ، وانما كان فرارهم فرقاً ومحاذرة لأنّ طبائع البشر أن يستعملوا فيما يطلبونه غاية قوتهم ، وأن يتناولوا ذلك بأبلغ قدرتهم» ولن أتوسع فى الشرح والتفصيل لأنّنى على موعدٍ معك ومع القرّاء لكى تقف عند القصيدة الثانية من « محكمات »

المتنبّى وربما نجد فيها ما ينصفه وما يفنّد ويبدّد مزاعم خصومه من العرب والمستشرقين .

القصيدة الثانية : ذات العناوين والشجون

إنها فريدة ومن القصائد النّادرة المثال فى الشعر العربى ، لا يحدّها عنوان ؛ لأن كل بيت من أبياتها يصلح أن يكون لها عنوانا ، أو يتطلّب عنوانا مستقلا ومع ذلك فهى مترابطة السبك فى وحدة شعرية متماسكة ، وتمّثل بمجملها هيكلا فنياً جميلا لا يمكن الاستغناء عن جزء من اجزائه : لا بيت فى مقطع ، ولا جملة فى بيت ، ولا لفظة فى جملة ، وقد صاغها الشاعر صياغة فنان ذى ذوق سليم ، وإزميل صَناع ، وخيال خصب فأنشأها صورة لو كانت بشراً لقال من يراها : « حاش للهِ ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريم » .

إنها ليست قصيدة رائعة فحسب ؛ بل هى خطبة حافلة من الخطب الرائعة لعباقرة البشر والتى وعاها الناس وتناقلوها على مدى الأجيال فيها الترغيب والترهيب والاطراء والنصح ، والتبشير والنذير ، والتهنئة والتحذير ، والمواساة والتذكير ، والارعاد والاعذار ، والترويع والتشجيع ، وفيها تمجيد المنتصر واستعطافه وتكريم المنهزم وتعزيته ، وفيها الوعد والوعيد والتطمين والتهديد ، واستعراض الماضى ، واستنكاه المستقبل ، والتذكير بالسلف وصلة القرابة ، وأسماء القبل والجدود ، والحثّ على الرفق

والعفو لأنه الأحرى والأجدى ، والأنفع للمنتصر اكثر مما هو اغاثة للمهزوم ، وكل ذلك فى اثنين وأربعين بيتاً ، وباسلوب مثير جذّاب لا يستطيعه الاّ المتنبى .

وقد أنشأ هذه القصيدة بعد رجوعه مع سيف الدولة من غزوة شنوها على قبيلة بنى كلاب ، وكانوا قد احدثوا حدثاً بنواحى « بالس » وسار سيف الدولة خلفهم وابو الطيب معه فأدركهم بعد ليلة بين مائين يُعْرَفان بالغبارات والخرارات فأوقع بهم وملك الحريم فأبقى عليه ، وأنشده أيّاها فى جمادى الآخرة سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة وهو فى قمة هرم حياته ومجده :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضرابُ ،
وتملك أنفس الثقلين طُرّاً فكيف تحوز أنفُسَها كلابُ
وما تركوك معصية ؛ ولكن يُعاف الوردُ ، والموت الشرابُ

وتأمل كيف بدأ .. ومن البيت الثالث يفتش عن الأعذار والتبريرات ليمهّد بها التحدّث عن العفو والرفق ويقول إنّما تركوك وانهزموا حين طلبتهم خوفاً منك لا عصياناً وتمّردا عليك ، لأنهم لو وقفوا أمامك لأوردوا أنفسهم موارد الهلاك وهو ما يأباه العاقل ويتوقّاه الحصيف .

طلبتهم على الأمواه حتّى تخوّف أن تفتشه السحاب

ولسنا بصدد تبيين ما فى الشعر من مواطن الابداع والبلاغة فلا خلاف بينى وبين الاستاذ الشمرى فى هذا الشأن بل ربّما انه اكثر تقديرا منى للمتنبى كشاعر بما زاده الله علىّ من فضل فى سعة الاطّلاع والاحاطة بآداب الأمم ، ولكن عجبى لا يكاد ينقضى من هذا التشبيه النّادر لسيف

الدولة وجيشه :

يهـزّ الجيشُ حولك جانبيه كما نفضتْ جناحيها العقابُ

ولا عن هذه الصورة الشعرية البديعة والاستعارة الرائعة :

وتسأل عنهم الفلوات حتّى أجابك بعضها ؛ وهم الجوابُ

ثم استوى يمجّد المروءة والشهامة والخلق الأصيل فى العربىّ النّبيل ، والقائد المنتصر بمحافظته على محارم اعدائه الخارجين عليه وإكرامه لهنّ ومدافعته عنهن بعد أن فرّوا وتشتتوا فى الشعاب فلم شعثهن ، وأكرم نزلهن ، ولم يعبث بعادة الندى ، ولا قطع رحم النسب وصلة القرابة :

فقاتل عن حريمهم وفرّوا ندى كفّيك والنسب القرابُ

وذكر أن هؤلاء الذين يقاتلهم هم من قومه ويجمعهم جدّ واحد ولذلك فقد كفّ عنهم ضربات السيوف وطعنات الرماح بعد أن اجتاحهم الهول وتمزّقوا وتخاذلت الجماجم والرقاب ، واجهضت النساء على ظهور الإبل .

وحفظك فيهم سلَفَي معدٍ وانهم العشائر والصّحاب
تكفكف عنهم صمّ العوالى وقد شرقت بظعْنهم الشعاب

وما الطف قوله :

وعمروُ فى ميامنهم عُمُورُ وكعبُ فى مياسرهم كِعَابُ

فقد جمع « عمرو » اسم القبيلة على « عمور » لأنها قد تشتت وتمزّقت شذر مذر فلم تعد « عمروا » واحدا بل « عمورا » ولا « كعباً » واحداً بل « كِعاباً » وهذه جموع شتات وتبدّد وتمزّع .. ثم ماذا ؟

فعدن كما أخِذْن مكرّمات عليهن القلائد والملابُ

يثبْنــك بالّــذى أوليت شكراً ؛ وأين من الــذى تولى الثواب ؟
وليس مصيرهــن اليك شيئاً ، ولا فى صونهــنّ لديك عاب
ولا فى فقدهــنّ بنــى كلابٍ إذا أبصرن غرتــك اغتراب
وكيف يتــم بأســك فى أناسٍ تصيبُهــم فيؤلمك المصابُ ؟

هذا هو شاعر دولة العدل ، هذا هو الشاعر الذى يجعل من القوّة والنصر وسيلةللإحسان والكرم ورأب الصدع وجبر الخاطر ، وانه لموقف انسانى لا يقفه القائد ـ أىّ قائد جيش ـ إلاّ إذا كان كريما هماماً يسعى لايجاد دولة استقرار وأمان وليس شرساً قاسي القلب من السفاحين أو قطّاع الطرق ، كما فعل ابن سعد بأهـل الـطفّ ، أو السّفـاح بأسراه من بنـى أمية ، أو « اليُعْفري » بأولاد على بن الفضل ، أو اليهود فى « ديـر ياسـين » و « صبرا » و « شاتيلا » ، ولا يمجّد مثل هذا الموقف ويحثّ عليه ، ويباركه الاّ شاعر لا يحمل روحاً شريرة مثل روح « سديف » بل يحمل روحـاً خيّره ، وقلباً كريما ، وعقلاً متحضراً ، ويريد أن يساعد أميره على إقامة المجتمع الفاضل المستقر الآمن الذى ترفرف عليه راية العدل والانصاف ؛ وليس بذلك الذى قال عنه الصديق الشمرى « تمتح خيبات آماله المرارة المسمومة من بحار مظلمة تتلاطم أمواجها بالنقمـة والحقـد على البشرية والبشر » لا .. لا .. وألف لا .. وكلاّ وألف كلاّ يا صديقى العزيز .

ولو كان كما توهمت ـ أو توهم قبلك « طه حسين » و « القصيمى » لما استطاع أن يناجى أميره الكريم الشجاع المنتصر بهذا النشيد الرائع الذى هو فى نظرى اروع نشيد للرحمة والحنان والرفق والعفو فى تاريخ حروب

البشرية :

ترفّق أيها المولى عليهم فانّ الرّفق بالجاني عتابُ
وانهم عبيدك حيث كانوا ؛ إذا تدعو لحادثة أجابوا ..
وعين المخطئين هُمُ ؛ وليسوا بأوّل معشرٍ خطئوا فتابوا ؛
وأنت حياتهم غضبتْ عليهم وهجر حياتهم هُمُ عقابُ
وما جَهِلتْ أياديك البوادى ولكن ربّما خفى الصوابُ
وكم ذنبٍ مولّده دلاك ، وكم بُعدٍ مولده اقترابُ
وجرمٍ جرّه سفهاء قوم وحلّ بغير جارمه العذابُ !
فان هابوا بجرمهم عليّا فقد يرجو عليّا من يهابُ
وإن يك سيف دولة غير قيس ، فمنه جلود قيسٍ والثيابُ
وتحت ربابه نبتوا وأثّوا وفى أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الأعادى وذلّ لهم من العرب الصّعابُ

تأمل يا صديقى « ذيبان » برفق وحنان ، وتخلص من ترسبات ما قرأته أيام الشباب من تخرّصات عن أبى الطيب ، وتقوّلات وأباطيل ، وقل لى بربّك هل يقول مثل هذا شرّير أو «نرجسى » ؟؟ هل يفكّر فيه من « يفسرّ الحق بالقوّة » و « لا يعتبره الاّ ما تطوله يداه غصبا أو اكتسابا ، دجلا أو استجداء » ؟

إن من يعطى ـ وفى مثل هذا الموقف ـ « المجرم » الحق فى أن يهاب الدولة وحاكمها المطلق ، ويمنحه فى نفس الوقت فرصة الأمل والرجاء فى هذه الدولة وحاكمها ، ثم يفصّل بأنها ما كانت دولة الاّ لأنها تهتم

بالمواطنين وترعاهم نبتت جلودهم باحسانها ، وتحت حمايتها وسهرها يعيشون ويتطببون ويكتسون ، وفى نغمة ما خوّلته لهم من استقرار واطمئنان وأمن نشأوا وتعلّموا وقووا وعزّوا، وبما ضمنته لهم من خيرات نموا كالنبات ينمو بماء السحاب ، وبها وإعدادها ما تستطيع من قوّة تمكنوا من اعدائهم وانقاد لهم الناس . لا يمكن إلاّ أن يكون مسئولا يدرى ما يقول ويفكر فيما يقول ، وماذا يريد مواطنو أىّ دولة منها ومن حاكمها اكثر من هذا ؟ وهل يفكّر فى مثل هذا الشرير الحاقد قاطع الطريق ؟ أم الحكيم الخير والسياسى المحنّك مثل أبى الطّيب المتنبّى ؟ .

ثم ماذا يا صديقى ؟ اتظنّ أن المتنبّى السياسى المحنك والحكيم الفيلسوف والشاعر الانسان والحنيف المسلم يترك هؤلاء العصاة التائبين المستسلمين فى موقف المستجدين للعطف والاحسان من الأمير القوّى المنتصر ؟؟ كلاّ .. إنّه أجل واعظم ، بل هو اكرم وأحكم : ها هو يحوّل هزيمتهم نصراً ، ويشيد بقوتهم ، وأنّهم لو لاقاهم غير سيف الدولة لما نال منهم ما نال فيقول :

ولو غير الأمير غزا كلاباً ثناه عن شموسهم ضبابُ
ولاقى دون ثايهم طعاناً يلاقى عنده الذئب الغرابُ
وخيلاً تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السرابُ
ولكن ربهم أسرى اليهم فما نفع الوقوف ولا الذهابُ

ولا ينسى ان يلتفت لفتة تاريخية تربط ماضيهم بحاضرهم فيقول :

بنو قتلى أبيك بأرض نجد ومن أبقى وأبقته الحرابُ

عفـا عنهـم ، واعتقهـم صغاراً وفى اعنـاق اكثرهـم سخابُ
وكلّـكم أتـى مأتـى أبيه فكلّ فعـال كلّـكم عجابُ !

موقف الشيخ التويجرى

ولا يسعنى ـ كسفير لأبى الطّيب لدى دولة مكارم الاخلاق التى يمثلها الشيخ عبد العزيز التويجرى ـ إلاّ أن أشيد بموقفه الانسانى الرائع من هذا النشيد الخالد ، ولو أن الصديق الشمرى قد تأمله وقرأه بإمعان لنسى كلما كان قد تأثّر به من افكار وآراء خصوم أبى الطّيب .

يقول التويجرى :

« أبا الطّيب : لا ادرى أين مكانك من الجيش الزاحف ، اهو أمـام أميرك أم خلفه ؟ لا اعرف أأنت فى جناح الجيش يمنة أم يسره ؟ مشيت خلفك إلى أن رأيتك تقفز فجأة بعد الانتصار فتقود معركة العقل والحلم والوقار والانتصار على النفس ، بعد انتصار اميرك على اعدائه . ولا ادرى من المنتصر . أهو أميرك الذى قاد معركة الموت وسط خيام القبيلة ؟ أم أنت الذى قاد معركة الحياة والسلام ومسح الآلام ولملم الجراح .

أبا الطيب .. ما أكبرك ، وما أكبر أميرك وما أكبر القبيلـة ، تجـاورت العظمة وتقابلت فى الصف ، فهان على قصاص الأثر ارتياد ارض المعركة النفسية والاخلاقية والشجاعـة الأدبية والقـدرة على الاحتمال ، فالأمـير المنتصر ، والقبيلة المهزومة ، والشاعر المجادل دون أميره ودون قبيلتـه ،

ودون مكارم الأخلاق . أتراه يوم أرسل الينا هذا الموقف قدّر أننا فى حاجة إليه ؟ فأمير هناك أو رئيس هنا ، جدل زمنى وحوار تاريخى واخلاقى ، لنا الحق أن نلصق به أكبادنا وعواطفنا وعقولنا وجدلنا ما أمكننا ذلك » .

فأبو الطيب يوم اعترض أميره وجادله وحاوره وصبّره ، وأضفى على أرض المعركة معركة أخلاقية وشعورية حمل أميره على هامة الوعى وأرسله إلينا من بعيد وقال لنا : هذا هو أميرى ، أرسله إليكم مثالاً حيا لعظمة الرجال ، فالدم الذى أراقه والقبيلة التى اخضعها لم يعف عليهما الزمن ، فمن الدم الذى تفجّر اكتب لكم قصتى مع الأمير المنتصر : لم أقف أمامه منافقاً ومتذلّلا ، ولكنّى اكبرته ، وقدّرت أنه أمير فوق الاحقاد ، وفوق الطيش وفوق التعطش للدماء فقلت له :

ترفّق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجانى عتاب
وكيف يتم بأسك فى أناسٍ تصيبهم فيؤلمك المصاب ؟

هذا يا صديقى الشمّرى هو موقف ممثل دولة مكارم الأخلاق الشيخ عبد العزيز التويجرى . والذى ابتعثنى المتنبى سفيراً لديه لأشيد معه بمكارم الأخلاق ومن أجل ذلك دار ما دار بيننا من جدال وحوار ونقاش .

إنه يعتبر المتنبّى « قائد معركة الحياة والسلام ومسح الآلام ولملمة الجراح » أنّه يعتبره يا صديقى « المنتصر فى معركة العقل والحلم والوقار والانتصار على النفس » . أنّه يعتبره قد أرسل إلينا هذا الموقف الشريف الإنسانى منذ ألف عام لأنه كان « فوق الأحقاد وفوق البطش وفوق التعطّش للدماء » . فهل تجدى لديك هذه الشهادة من فارس شيخ وقور فيلسوف

مثل عبد العزيز التويجرى ؟.

وكان جغرافياً خبيراً بالبلدان

ولأبى الطيب قصيدة طويلة على نفس الوزن ألاّ أنها « رائية » قالها بعد القصيدة البائية لمّا أوقع سيف الدولة ببنى « عقيل » و « قشير » وبنى « العجلان » وبنى « كلاب » ومطلعها :

طوالُ قنــاً تطاعنهـــا قصارُ   وقطـــرك فى ندى ووغـــى بحارُ
وفيك أذا جنـــى الجانـــى أناةٌ   تُظَـــنّ كرامـــةً وهـــى احتقارُ

وقد اكثر فيها من ذكر اسماء القبل والمواقع والمياه ، ولكن باسلوبه الفنّى الذى تفرّد به بين شعراء العربية ؛ فانه يرصّع شعره بالاسماء والبلدان دون ان يخلّ بالنسق والتوقيع الشعرى ، وكأنها جواهر أو فصوص ثمينة يطرز بها سبائك العسجد ، ولقد كان المتنبّى عالماً جغرافيا خبيرا بمسالك البلدان دقيقاً فى وصفها ميدانيا وطبيعياً واجتماعياً ؛ ولقد شكّل عضد الدولة عند وفوده عليه لجنة تأخذ عنه اسماء البلدان وطرق المواصلات ما بين مصر وفارس ولقد وصف فى هذه القصيدة جلافة الاعـراب ، وصـوّر المعـركة تصويراً دقيقاً ، ولكنّه لم ينس أن يقف موقف العقل والبصيرة والتذكير بالحلم والوقار والعفو والاحسان فقال مخاطباً الأمير المنتصر :

ولـــو لم تبـــقِ لم تعش البقايا   وفى الماضى لمن بقـــى اعتبارُ
إذا لم يرع سيّدهـــم عليهم   فمـــن يُرعـــى عليهـــم ، أو يغارُ

تفرقهـــمْ   واياه   السجايا .. ويجمعهـــم   وإيـــاه   النجارُ !

ثم يلتفت إلى من اوقع بهم لتمرّدهم فيلملم جراحاتهم ويبعث فيهـم الأمل قائلاً :

« بنــو كعــب » ومــا أثــرت فيهم   يدٌ   لم   يدمهــا   الاّ   السّوارُ
بهــا من قطعــه ألــمٌ ونقصٌ   وفيهــا   من   جلالتــه   افتخارُ
لهــم   حقٌ   بشركك   فى   نزارٍ   وأدنــى الشّرك فى أصــل جوارُ
لعــلّ   بنيهــم   لبنيك   جندٌ   فأوّل   قرّح   الخيل   المهارُ
وأنــت أبــرّ من لو عُقّ أفنى ،   واعفــى   من   عقوبتــه   البوارُ
واقــدر   من   يهيجــه   انتصارٌ   وأحلــم   من   يحلّمــه   اقتدار

ولا يقف مثل هذه المواقف السياسية والانسانية الاّ حكيم لا يدين بالقوّة الباطشة العشوائية بل بقوة الحق التى تخدم المجتمع .

وسنزيد ذلك بيانا عندما نتحدث عن القصيدة الثالثة فى الأسبوع القادم إن شاء الله .

بروملى ١٣/رمضان/١٤٠٣ هـ ٢٣/٦/١٩٨٣ م.

إلى الفيلسوف الشمري

القصيدة الثالثة : الجولة الأخيرة

المتنبى شاعر المعاناة الصادقة ورجل دولة وفقيه تجارب وتصويره للحدث أكبر من الحدث

تناقض الشمرى أمام شخصية المتنبى ، هل قرأ « الشمرى » المتنبى قراءة حرة كاملة ؟. هل قراءة « الشمرى للآداب الغربية أفسدت ذوقه العربى ؟

كم كنت ناقدا بارعاً حين قلت : « ان عبقريّة « المتنبّى » تتجلّ لا من خلال وصفه للحدث ، بل من خلال ما يثيره الحدث فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ينقلها إلينا ، ويقدمها داخل إطار من المعاناة الصادقة والاخلاص البرىء الأمر الذى يجعل من شعره علماً تحليلياً داخل فلسفة تركيبيّة ، وهذا هو اعظم جوانب عبقرية المتنبى فى الفلسفة والشعر».. لقد غصت فى اعماق أعماق أبى الطّيب : فالمعاناة الصادقة والاخلاص البرىء لما يتصوره الشاعر ، ولما يثيره الحدث فى نفسه ، ثم التعبير عنه بقوة وبراعة وصدق واخلاص هو سر تفوق العباقرة من شعراء وفنانين بل وسر إعجاب المتفهم لذلك التعبير القوى الصادق ، وبذلك يكون ما يثيره الحدث فى نفس العبقرى أكبر من الحدث نفسه كما قلت أيها الصديق .

ولقد أنصفت « المتنبّى » عندما قلت : « حينما نمعن النظر فى الأبيات التى يتحدّث فيها المتنبّى عن نفسه حيث يصوّر لنا مشاعره وانفعالاته وأحاسيسه ، فعندئذٍ يتلاعب بعواطفنا ويعزف على اوتارها الحاناً عذبة رهيبة ، والمتنبى يكاد يكون الفنّان الوحيد الذى يقطّر من العذوبة والرهبة شرابا عجيباً فى مذاقه ونكهته واعجب من ذلك . نوعيةّ النشوة التى يبعثها فى النفس » .

ومهما بالغ المعجب بعبقرية « المتنبّى » فى الثناء عليه فلن يأتى بأكثر من هذا ؛ ولكن قارؤك سينذهل ويدهش ويأخذه العجب حين يقارن هذا التقدير بما سبق أن قلته فى المتنبّى « الوحش الشرير النرجسى » ! بل وبما ستقوله فى نفس المقال حين هبطت به إلى أحط المستويات البشرية وأخسّهاوقذفته بأبشع الشتائم . ولابد أن يتساءل هذا القارىء : هل أنك حين تتأمّل وتقرأ المتنبى قراءة حرّة غير منفعلة بترسّبات الماضى تجلّه وتكبره لأنك تفهمه صادقا مخلصاً بريئا ، فإذا استجرّيت قراءاتك السابقة للدكتور طه حسين أو استاذه « بلاشير » أو للاستاذ سعيد الأفغانى أو الكاتب القصيمى قلبْتَ لفهمك الخالص البرىء ظهر المجن ؟.

انك تقف من « المتنبى » موقفين متضادين وكأنك ازاءه شخصان هذا يشيده وهذا يهدمه ،إذ كيف ينسجم أو يُستساغ تقديرك لعبقرّيته إذا أمعنت النظر ، وقرأته قراءة مجرّدة ثم قولك ـ أو على الأصح ـ هجوك له « بأن ضميره كان يتلاطم بأمواج النقمة والحقد والكراهية » وأن انفعاليته وعنفوانه ونهمه الضارى فضلاً عن نرجسيته التى تجاوزت عبادة ذاته الى ابتداع

كون خاص به قد جعله خائفاً مخوفاً كارها مكروهاً رافضاً مرفوضاً ، وانه كان جامد العواطف حجرى المشاعر لا يحب أحداً من النّاس بل كان « قلبه أضيق بكثير من أن يتسع لمحبة أى كائن غير نفسه » وأن سمته أىّ « الديناميكية » ـ حسب تعبيرك ـ هى « القوة المادية العارية » .. ولولا تقديرى لك واحترامى لآداب المناظرة لاتهمتك بأنك لم تقرأ المتنبى بعد قراءة كاملة ، فأشعاره فى الحب حبّ أهله من زوج وأم وأولاد وجدّة بلغ ذروة العواطف الإنسانية واشعاره فى حبّ تلك التى لا ندرى ما اسمها والتى قال محمود شاكر وشايعه مصطفى الرافعى انها « خولة » اخت سيف الدولة ومراثيه لأصدقائه وحنينه إلى وطنه وسكنه وندامه من أروع ما تغنى به شاعر رقيق حنون فى تاريخ الشعر العربى ، وراجع إن شئت ما كتبه شاكر عن شعر المتنبّى فى الحب بكلّ اشكاله وصوره .

كيف نلائم يا صديقى ذيبان بين هذين الموقفين المتضّادين ؟ بين تقديرك له وقولك أن شعره الصّادق المعاناة البرىء الاخلاص يتلاعب بعواطف قارئيه ويعزف على أوتارها أعذب الألحان وأرهبها ، وبين وصفك له بالعبثيّة والكراهية ، والحقد وانه كان « ذئباً بشرياً بين ذئبان تعوى » ؟

أما اذا كنت لا ترى فى موقفك تناقضا وكنت من اولئك النفر الذين يرون للشر والقبح والوحشية والطغيان جمالاً فنيًا ، ولا يقيمون لبراءة الفطرة وسمو المثل الأعلى ، وقداسة مكارم الاخلاق أى وزن فنّى ، ولا تحْسين ولا تقبيح فى معاييرهم الفنيّة ، وينفصلون بصورها حتّى ولو مرّغها مبدعوها فى حمأة السقوط والدناءة والخسة والقنوط ، وارتكسوا بها فى متالف

الهوس والفسوق والهمجيّة ، ـ وحاشا أن تكون ـ فسأغيرّ أسلوب حوارى معك الذى ها أنا أكتب حلقته الثانية عشرة ملتزماً آداب المناظرة بين ندّين ينسجمان ثقافة ، وخُلقاً ودينا بل وسياسة وسلوكاً ، وان اختلفا نظراً وتفكيراً وآراء .. إذا كنت من اولئك النفر ـ وحاشاك ـ وكانت كثرة قراءاتك الفلسفية والأدبية ولا سيما لأرباب الفكر الغربى وفلاسفتهم وملحديهم وشعرائهم قد زودتك بمفاهيم ومعايير أقل ما أقول فيها أننى لا اعرفها أو لا استسيغها إذا قرأتها . وإذا قرأتها لا احترمها فسأضطر الى تغيير أسلوب حوارى معك ، وانهج منهج وطريقة المعرّى مع ابن الراوندى ، والرافعى مع طه حسين ، وشاكر مع لويس عوض ، بل واسلوبى مع القصيمى فى « ظاهرته الصوتية » و « كونه » الشائه الذميم .

وسأنتظر منك ردّا واضحاً وأخالك شجاعاً مقداماً لا يحابى ولا يجمجم .

وسأفى بوعدى الذى ضربته لك وللقراء ، وهو الوقوف مع القصيدة الثالثة من محكمات المتنبى ، ولعلّها تبدّد أسراب التخرّصات من آراء من قرأت لهم فى مطلع شبابك ، أو من تظنّيات الفلاسفة الماديين ، وعلماء النفس « السيكولوجيين » والتى ما تزال وبلا شعور منك تتوافد على فكرك كما تتوافد الهوام على مشكاة نور ، وهى قصيدة تصور المتنبى رجل دولة ، وداعية إصلاح ، وفقيه تجارب ، ومنظّر حكم ، ومشعل حكمة إنسانية يضىء لأمته وأبناء لغته ودينه الطريق عبر العصور ، وقد احكم ابداعها موضوعاً واسلوباً وأداءاً فنيّا توقّعه نغمة ساحرة فتماوَجَتْ نصائحها فى نسق شعرى راقص وليس بالإسلوب الوعظى الجاف اسلوب :

لا تقــل أصلى وفصلى أبدا ، إنمـا أصـل الفتــى ما قد حصل

ولقد أنشأها وهو يزحف الى « الخمسين » من سنّـى حياتـه الحافلـة الصاخبة المفعمة بالعجائب والغرائب .

وقالها بمناسبة فتنة حصلت بين « كافور » ومـولاه « ابـن الأخشيد » كادت أن تثير حرباً ضروساً تقضى على الأخضر واليابس فى مصر وكان الأعادى والحساد للأمن والاستقرار قد شبّوا أوار الفتنـة ، وكان الوشـاة والمتربصون قد هوّلوا الأمور على الأطراف المتنازعة يريدونها حرباً حاطمةً بينهم ، وكان مستشارو السوء قد صبّوا الزّيت على نيران الفتنة ، وحسنوا « لكافور » أن يقضى بالقوة على «ابن الأخشيد » ولذلك فقد سفّه المتنبى ـ الذى لا شك ـ أنّه كان من دعاة الاصلاح ، ومعالجة ما حدث بالحلم والاناة والحكمة ـ آراء اولئك المستشارين الذين كثيرا ما يكونون سبـب البلاء بآرائهم ومشوراتهم الفاسدة المفسدة ، ولقد نجحت مساعى الشاعر الحكيم الذى لو كان يؤمن بفلسفة القوة المادية العـارية ، لما وقف هذا الموقف الإنسانى الحكيم .. استمع إليه يقول :

حسم الصلحُ ما اشتهته الأعادى وأذاعتــه الســنُ الحسّادِ
وأرادتــه أنفس حال تدبيرك ما بينهـا وبــين المراد ..
ضار ما أوضــع المخبّــون فيه من عتــاب زيادة فى الودادِ
وكلام الوشـاة ليس على الأحـ ـبـاب سلطانـه على الأضداد

إنما تنجحُ المقالة في المر ء إذا صادفت هوى في الفؤادِ
وأشارت بما أبيت رجال كنت أهدى منها إلى الارشادِ
قد يصيب الفتى المشيرُ ولم يجهد ويُشْوِى الصواب بعداجتهادِ

ثم يقول مخاطبا « كافور » حامداً أناته وحكمته وعدم استعماله للقوّة فى اخماد تلك الفتنة التى لم تكن فتنة تمّرد قبيلة كفتنة بنى كلاب أو بنى « كعب » مع سيف الدولة ، بل فتنة سياسية أراد بها الوشاة والحساد وأعداء الدولة إثارة الشقاق والخلاف بين أرباب الدولة ليتصارعوا ويتمزّقوا أحزاباً فيتلاشى أمرهم وينقضّ عليهم اعداءهم انقضاض الذئاب والصقور .

نِلتَ ما لايُنال بالبيض والسّمر وصُنت الأرواح فى الأجساد
وقنا الخطّ فى مراكزها حولك ، والمرهفات فى الأغماد

أيقول مثل هذا يا صديقى ذيبان من يؤمن بالقوّة المادية العارية ؟ تأمل بفكرك المجرّد المتحرّر من ترسّبات قراءاتك لطه حسين أو « نيتشه » وستقول معى أن المتنبى كان فعلاً كما قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعُلا
مضرّ كوضع السّيف فى موضع الندى

واستمع إليه يمجّد اعمال الرأى والأناة والتبصرّ فى كافور فيقول :

ما دروا إذ رأوا فؤادك فيهم ساكناً أن رأيه فى الطّراد
فَفِدى رأيك الذى لم تُفده كلّ رأى مُعَلّم مُستفاد
وإذا الحلم لم يكن فى طباع لم يحلّم تقادم الميلاد ،
فبهذا ومثله سدت يا كافور واقتدت كلّ صعب القياد

نعم ـ يا صديقى ـ برأى « كافور » فى معالجة الفتنة بالحلم والصبر ، وعدم اللّجوء إلى السيف والرمح والقـوة المادية ساد كافـور ، واقتـاد ما لا ينقاد لغيره ممن لا يؤمنون الاّ بالقوة « المادية العارية » ؛ أفتريد دليلاً وشاهداً على سلامة فطرة المتنبى اكثر من هذا ؟ ثم استمع إليه يرسلها نصيحة خالدة خلود الزمن ؛ وليس لكافور ومـولاه ابـن الأخشيد ، بل ولكلِ ذوى سلطة ، أو أصحاب أمر ، أو اعضاء جماعة أو حزب ، أو فئة ، أو شركة ، سواء كانت دينية ، أو سياسية ، أو حتى تجارية ، استمع إلى هذه النصيحة التى كأنّما يوجهها « المتنبى » لأبناء أمته العربية المسلمة الآن ، وبعد مضى اكثر من ألف عام ، استمع إليها معى ، ولْيسْتَمِع إليها معنا كلّ أبناء أمتنا المسلمة ، فى العراق وايران ، والشام ونجد ، والحجاز واليمن ، ودول الخليج ، وفى كل مكان يعرف أبناؤه لغة المتنبى لغة القرآن . سواء كانوا حكاما أو مواطنين ، ملوكا أو رؤساء ، طلبة أو جنودا ، أو مجاهدين ، لأنّه يحثّنـا على الوئـام وصـدق الأخـاء ، والاتحـاد ، ولأنّـه يحذّرنـا من الاختلاف ، والاحتكام الى العناد والسيف ، والقوة العارية ويذكرنا بحكمة المؤرخ الناقد ، ورجل الدولة الحكيم بما حصل للشرّاة لمّا اختلفوا ؛ إذ قد ادّى الى شماتة أعدائهم بهم ، ثم الى تنازعهم فيما بينهم ، حتى تمكن المهلّب بن أبى صفْرة من القضاء عليهم ، وكذلك ما حدث لقبيلة « أياد » فقد كانت يداً واحدة فلماّ تفرّقت كلمتهم وتشتّتوا ، نهد اليهم « سابورى ذو الأكتاف » فمزّقهم كلّ ممزّق ، والأخوة « بنى اليزيدى » كان قد عظم شأنهم بالبصرة فلماّ اختلفوا هلكوا جميعا ، وملوك طسم وجديس وكثيرين

غيرهم قديماً وحديثاً ما هلكوا الاّ بالخلف والشتات ؛ إنه درس بليغ يوجّهه المتنبى إلى الأمة العربية من وراء القرون ويخصّ بالذات أبناء الأرض السليبة « فلسطين » :

لا عدا الشرّ من بغى لكما الشرّ وخصّ الفساد أهل الفساد ،
أنتما ما اتفقتما الجسم والروح فلا احتجتما الى العوّاد
وإذا كان فى الأنابيب خلفٌ وقع الطيش فى صدور الصّعاد
أشمت الخلف بالشراة عداها ، وشفى ربّ فارس من أيادِ
وتولى بنى اليزيدى بالبصـ ـرة حتى تمزّقوا فى البلاد
وملوكاً كأمس فى القرب منّا وكطسم واختها فى البعاد
بكما بتُّ عائذا فيكما ، منـ ـه ، ومن كيد كلّ باغ وعادِ
وبلُبّيكما الأصيلين أن تغـ ـرق صمّ الرماح بين الجياد
أو يكون الولىّ أشقى عدوٌّ بالذى تذخراته من عتادِ
هل يسرّنّ باقياً بعد ماضٍ ما تقولُ العداةُ فى كل نادِ
منع الودّ والرعاية والسـ ـؤدد أن تبلغا إلى الأحقاد
وحقوق تُرقّق القلب للقلب ، ولو ضمنت قلوب الجمادِ

يا اخى ذيبان الشمرى وقد كدت أقول يا أخى احمد الشامى على المذهب القائل : لن يكون الصديق صديقاً حتى يقول لصاحبه يا أنا ـ تأمّل هذا الاخلاص فى الدعاء ، وهذا الحثّ على الاتحاد والامتزاج كالجسم مع الروح ، الاتحاد الصادق الصحيح الذى لا يفتقر الى الأطباء ، وهذه الأمثال التى ضربها ، والشواهد التاريخية التى أوردها ، ثم هذه الاستعاذة

بهما ان يقع الخلف بينهما أو ان يرفضا أو يخالفا منطق العقـل الأصيل فيصيرا طائفتين تقتتلان وتحول الرماح بين خيلكما التى هى جماعة واحدة فتصير جماعتين ، أو ان يقتل بعضكم بعضا بسلاحكم الـذى ادّخرتمـوه للأعداء ، وإذا افنيتم بعضكم بعضاً فهل سيسرّ المنتصر أن يتحدث عنه الأعداء المتربصون بكم جميعا فى نواديهم ومحافلهم ؟ ثم هذا التذكير بالودّ والرعاية والسؤدد والمناشدة بها أن لا يصيخوا لأصوات الحقد البغيض ، وهذه الإشارة الرائعة الى الحقوق الأخوية والتربوية والانسانية ، والوطنية التى ترقق القلوب حتى ولو كانت فى احشاء الجماد ؟ بالله بالحق بالمنطق يا أخى « ذيبان » هل يحسن مثل هذه المناشدة والمناجاة الانسانية الرائعة شاعر يؤمن بالشر والحقد والنقمة ، وليس سوى ذئب بشرى يعوى بين ذئاب ؟

لا اظن أن احدا يقرأ هذه القصيدة يجرأ أن يدّعى ـ إذا وعاها ـ أن المتنبى كان جلفاً حاقدا لا يؤمن الاّ بالقوّة « المادية العارية » وان بينه وبين فلسفة « نيتشه » أى ارتباط أو تشابه .. وإلاّ فلا فهم ولا منطق ، ولا معيار للعقل والنقد والقيم :

وليس يصـــح فى الأذهــان شــىء اذا احتــاج النهــار الى دليــل

ثم ها هو يختتم قصيدته السياسية الفريدة فى تاريخ الشعر العربـى بصيحة فرح وسرور وازدهاء ، لأن الصلح قد تم وانتصر العقل على الحمق والإخاء على الحقد والسلام والوئام على الحرب والخصام فيقول : مبيّنا ايضاً ما هى الدولة فى نظره وفى فلسفته الاسلامية :

هـذه دولـة المكـارم والـرأفـة والمجـد والنّـدى والأيـادى
كسفت ساعة كما تكسف الشمس ، وعادتْ ونورهـا فى ازدياد

فالدولة عنده ـ أو ما كان يسعى لتأسيسه ـ هى دولة مكارم الأخلاق والحب والرحمة والرأفة ، والعزة والمجد ، والندى والجود والـكرم و الأيادى والنعم . هذا ما يقوله ابو الطيب يا صديقى « ذيبان » صريحاً واضحاً لا ما يخمّنه « بلاشير » ولا ما يهذى به « الدكتور طه حسين » .

لماذا شوّهت صورة المتنبّى ؟

قد تكون هذه الحلقة الثانية عشرة خاتمة سلسلة الحوار بينـى وبـين الفيلسوف الشمرى حول المتنبّى ؛ وليس لأنى قد سئمت هذا الحوار الشّيق أو مللته ، ولا لأن الموضوع قد استوفى .

فالمتنبى والتحدّث عنه بحر غطمطم ستظل أمواجه تتجدّد تجدّد الزمن . ولكن لأنّنى وفى نطاق البحث الذى سمحت لنفسى أن أخوض فيه وهو الدفاع عن إنسانية المتنبّى ونسبه وصحة عقيدته وايمانه بالله ودفاعه عن الاسلام ومحاولتـه القيام بتـكوين دولـة عربيّة ترفـع راية الاسـلام ضد الشعوبيين والمماليك وفلسفته التى تفترض العزة لله ولرسوله والمؤمنين وتدين بالقوة وسيلة لتوطيد العدالة الاجتماعية فى مجتمع مزدهر آمن مؤمن بالله .. قد سكبت كل ما فى دلوى ، ورميت بكلّ ما فى جعبتى من سهام . ولم يكن الحوار عن شاعرية « المتنبّى » وعبقريته البيانية فنهيم فى وديانها وشعابها ، واعتقد أننى قد قلت كلما استطيعه وكلما يمكن ان اقوله فى نفى التهم الظالمة

التى وجّهها الصديق واساتذته الى المتنبى من دعوى النبوّة وضعة النسب والنرجسية ، والعبثيّة ، والحقد على البشرية ، وأثبت كرم نفسه وشرف نسبه وصحة عقيدته وانه كان رجل دولة ومن عباقرة العرب والمسلمين . ومن شعر المتنبى ؛ وربما انى قد غفلت أو سهوت عن ذكر أشياء وجل من لا يسهو . ولابد أن أختتم هذا الفصل بأن أصارح الصديق الشمرى انه لم يكن موفّقا فى ردّه على سؤالى الثانى عن سبب تشويه الناس ولا سيا المستشرقين والملاحدة من خصوم المتنبى لِصورة المتنبى فقط من بين عموم شعراء العربية الذين قالوا من الشعر ما يشبه شعره عن القوّة والناس ، بقوله إن غيره من الشعراء « كانوا شعراء فقط ولم يطمح أيّ منهم إلى حكم أو سلطان أو منصب طموح المتنبى » فأقول له أنّ هذا ليس هو السبب ، فهناك فى تاريخ العروبة والاسلام من الشعراء والعلماء والعباقرة من طمع فى الحكم والسلطة والمنصب اكثر مما طمع المتنبى وكان طموحه أكبر ، وبإيجاز تحتمله الرقعة المعدّة لهذه الحلقة ودونما تعرّض للتفاصيل من ادلّة وشواهد اقول للصديق الكريم أن اسباب تشويه صورة المتنبى - ولا سيا فى عصرنا الحاضر - هى اخطر بكثير مما يظن وهى اسباب شتى ، ومن قبل فئات شتّى ، وبعض هذه الفئات تختلف دينا وعقيدة ولغة وجنسا : ولا يربط بينها الاّ .. كراهية المتنبى .. كفيلسوف عربى » و « شاعر مسلم » . وعبقرى يؤمن بالله واعجاز القرآن ونبوّة محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . وفى الامكان أن اذكر بعض هذه الفئات :

١ - فقد حاربه « العباسيون » وأنصارهم ومماليكهم وعبيدهم لأنه ينتسب

الى علي عّليه السلام .

٢ ـ وحاربه « النواصب » لأنه « شيعيّ » يقول :

كذا الفاطميّون النـدى فى بنانهم أعـزّ امحـاءاً من خطـوط الرواجب

٣ ـ وحاربه الروافض والغلاة من الشيعة والعلويين لأنّ تشيعه كان معتدلا ولا يقول بقداسة القرابة ولا بعصمة الأئمة بل يقول :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الـذى تغنـى كرام المناصب

ومـا قَرُبَـتْ أشبـاه قوم أباعد ولا بعـدت أشبـاه قوم أقارب

اذا علـويّ لم يكن مثـل طاهر فما هو إلاّ حجّـة للنواصب !

٣ ـ وحاربه اليهود لأنه فعل بهم الأفاعيل سخرية وازدراء ولأنهم أشد اعداء الاسلام .

٤ ـ وحاربه الصليبيون لأنه حاربهم بلسانه وسيفه ؛ جواسيس ودولة وجوالزة .

٥ ـ وحاربه بشراسة الزنادقة والملاحدة واعداء الاسلام ولغة القرآن واعجازه ومعظم من يشوه صورة المتنبى ويحاربه فى عصرنا من هذا القطيع ، ان اعتزاز المتنبى بالاسلام واعتزائه الى ملّته ، وإشاعته لمبادئه ولا سيا مبادىء العزّة والقوّة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومكارم الأخلاق وبلغة مؤثّرة ساحرة وحجج بالغة دامغة ، قد آذت هذا القطيع من اعداء العروبة والإسلام ، فعبقرية المتنبى لا يستطاع انكارها ، لا شعرا ولا فلسفة ولا سلوكا فليس أمامهم إلاّ ان يعمدوا الى تشويه صورته بالتشكيك فى عقيدته ونسبه ؛ كأن يقولوا انه لم يكن يؤمن بالله ولا بالرسول ﷺ ، وانه لم يكن

يؤمن باعجاز القرآن ، فزعموا انّه ادعى النبوّة وانه حبس من أجل ذلك وأنه ما صلى ولا صام وقالوا : « ولا زنى ولا لاط ولا شرب الخمر » حيلة وكيدا.. واختلقوا له قرآنا سخيفا تافها .

وفى تاريخ آداب العرب والمسلمين قديما وحديثا اشخاص يندهش الملاحدة والزنادقة واعداء الاسلام أمامهم ، ويبهتون وينهزمون ويفجعون إزاء عبقريّاتهم وتعدّد مواهبهم مع اخلاصهم للاسلام ولغة قرآنه المجيد فيذهبون شتى المذاهب ويسلكون شتى الحيل والوسائل ، ويختلقون لهم الأقاصيص والأكاذيب ، أو يراكمون عليهم غبار النسيان ومن هؤلاء « الامام علي » عليه السلام و « جعفر الصادق » و « زيد بن علي » و « الجاحظ » و « المتنبى » و « المعرّى » و « الغزالى » و « المقبلى » و « محمد بن عبد الوهاب » و « جمال الدين الافغانى » و « مصطفى الرافعى » و « الفضيل الورتلانى » و « مالك بن نبى » وأضرابهم من افذاذ العرب والمسلمين .

هذه يا صديقى ذيبان بعض اسباب تشويه صورة المتنبى ومحاربته بالافتراءات قديما وحديثا ، وارجع الى آثار هؤلاء ، والى ما اوردته من ادلة وبراهين فى الحلقات السابقة تدلّ على انه كان يعتبر نفسه شاعر الاسلام . فإن اقتنعت بها ، فبها ونعمت ، وإن لم فناقشها وفنّدها لاقناعى ، أو لفتح باب الحوار المنطقى الرصين وإيّاك أن تلجأ من جديد لكيل تهم « التنبّؤ » والالحاد ، ووضاعة النسب والنرجسية فقد فرغنا من ذلك فيا احسب ولا تناقشنى فيها بل ناقش الاستاذ محمود محمد شاكر أو الشيخ عبد العزيز

التويجرى ، ولكلّ حادث حديث .

خاتمة المطاف :

وعندما كنت على وشك توقيع هذا المقال الثانى عشر وارساله الى رئيس تحرير « المدينة المنورة » وصلنى ملحق « الأربعاء » العدد العشرون بتاريخ ١٤٠٣/٩/٥ هـ . وإذا فيه مقالة طويلة للصديق الفيلسوف ذيبان الشمرى عنوانه : « مفهوم الاستاذ الشامى للسيكولوجيا مغلوط شكلا وموضوعا » يردّ به على مقالتى الرابعة ، ولقد قرأت المقال بهدوء ، ولم تجحظ عيناى ، ولم تنطلق حنجرتى بقهقهات السخرية كما صنع « الشمرى » عندما قرأ مقالتى لأن اعظم « سيكولوجى » عرفه الشعر العربى وحلّل نفسيات « المصارعين » المتنكرين وهو ابو « الطيب » و « المحسّد » قد دربنى وربانى حتى اختارنى سفيراً يفهم كيف يحاور ويداور ، ومتى يحتجّ ومتى يثور ، وأنبأنى بمناورات « المنهزمين » واكتفيت ببسمة ظفر تخيّلت اشعة تأييدها تتلألأ فى عيون كل من شاهد الصراع الفكرى والأدبى بين « الأصلع المصحر » و «الفارس المتنكر» الذى بدأ يتساقط فى « الجولة الرابعة » .

لقد أراد الصديق ذيبان الشمرى ان يسدل الستار على ساحة الحوار ، وكأنه قد فقد اعصابه فكشرّ عن انيابه الاصطناعية ، ولئلا يفقد ثقة المشاهدين قام بحركات بهلوانية لا يستسيغها علماء فن الصراع الفكرى ، ولم يكن بالغبى فهو يعرف نقطة الضعف عندى وهو جهلى باللغات

الأجنبية وانني مثل استاذي « المتنبي » أعيش في بريطانيا : « غريب الوجه واليد واللسان » فبدأ « يرطن » ويصوّت ، وتطاول ما شاءت له سعة اطلاعه وما أمدّه به تبحره في علم « السيكولوجيا » و« النرجسية » يهذرم بالمصطلحات والأسماء ولا يمكن ـ وقد رأيته في هذه الحال مكشرًا عن انيابه أن أظنّه متبسّما كما علّمني استاذي ، ولا يمكن أن أجاريه فأخرج عن آداب الحوار والمناظرة إسْوة باستاذي وموقفه الرائع الحكيم مع « ابن خالويه » في مجلس سيف الدولة ، ولا سيماوقد التزمت بنظام النقاش الرصين طيلة ثلاثة أشهر ولم ألجأ الى « القوّة العارية » لأن استاذي لا يدين بها وإن كان قد زوّدني بكلاليب منطقية اتمكّن بها من امتلاخ واقتلاع أنياب أيّ ذئب شرس !

وها أنا وقد قعدت على كرسي الرضى أقرّه على تجهيلي باللغات واعترف انني كما قال « لا اعرف الانجليزية ولا الألمانية ولا الفرنسية » ولا افهم إلاّ لغة « قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين »

غير انني اوكّد له وقد درست وبفضل تراجم الأفذاذ العرب معظم ما يتخيله من آداب وفلسفات الشرقيين والغربيين والمؤمنين والملاحدة والأخيار والأشرار ؛ أن ليس ثمة علم « سيكولوجيا » صادق وآخر كاذب عندنا نحن المؤمنين بالقرآن ؛ فالكل تخمين وتخرّص يحتمل الصدق والكذب ويجوز عليه الخطأ والصواب ، وحتى لو كنت قد تحدثت عن شيء ، وفاتني شيء ، وذكرت احد أنواع علمه واغفلت بقيّة أنواعه فلم يكن لو لم يكن قد

فقد اعصابه فى حاجة الى تلك الصولة الجبارة ، يعرض فيها سعة اطّلاعه وتبحر معرفته وكأنه يلقى درساً على طلبة احدى المدارس الثانوية ! ويسرد مدارس « السيكولوجيا » السبع وأسماء اساطينها من « فوندت » و « ستانلى » و « كولبى » الى « تيتشنر » فإلى الملحد الكبير « فرويد » ؛ ويا عجباه كل العجب كيف يريد منا ان نسمح له بتحليل نفسية « المتنبى » وبعد الف عام وخمسين عاما ، وبتخرّصات وتخمينات اولئك الماديين ، ومواد تحليله بضعة أبيات قالها « المتنبى » وهو صبى أو مراهق على ابعد الافتراضات ! مهملا كل ما أشرت اليه وأوردته من بدائعه و « محكماته » ! ويا عجباه كل العجب .. عندما أقول له قال الله وقال الرسول فيجيب علىّ : قال « ستانلى » وقال « فرويد » !!

وأليس من الصدف العجيبة أن « الأربعاء » نشر فى نفس العدد ، وبعد مقال الكاتب الشمرى مقالا للمفكر الاسلامى « روجيه جارودى » عنوانه « لماذا أنا مسلم » وفيه فقرة كأنما وردت ردّا على مقالة « الشمرى » تقول : « إنّ ما نسميه « العلم » والذى يجب أن نسميه بكل تواضع « العلم الغربى » هو من نتاج عقل منقوص لا يطرح أبدا سوى سؤال « كيف » ولا يطرح ابدا سؤال « لماذا » ! كيف الصعود الى القمر أو صنع قنبلة نووية عوضاً عن التساؤل لماذا من الضرورى الصعود الى القمر او صنع قنبلة نووية » ، ولا يستطيع الصديق الشمرى ان يدعى انه يجيد « الفرنسية » افضل من الأخ « جارودى » ، وما علوم « السيكولوجيا » الغربية بكل مدارسها الا وليدة ذلك العقل الناقص المادى الملحد .

ونحن بما عندنا وأنت بما عندك .. راض والرأى مختلف .

ولو جاريتك فى اسلوبك السّاخر ، واستعملت منطقك عندما تهجمت على الذين لا يعرفون لغة « ريغن » و « فولتير » و « نيتشه » ، وتشدّقت بألفاظ « المونولوج » و « الديالوج » وقلت : علينا ان نحدّد المعانى للكلمات فلا تصبح « التفاحة » « بصلة » لو جاريتك لقلت : وعلينا أن نفرّق أيضاً بين الانسان الذى كرّمه الله وبين « الحمار » و « الذئب » والحشرة ، لأن التمييز بين « ابن آدم » وبين « القرد » مثل التفريق بين الانسان المؤمن السليم الذوق والعقل ، وبين الإباحى الملحد المادى جنونا أو « سيكولوجيا » أو « نرسسة » ! نعم يا صديقى لو جاريتك فى الهراء ومحاورة الطرشان لقلت هذا وما هو أكثر قسوة وعنادا ولكنى ملتزم قوانين الحوار والمناظرة ، ومؤمن بأن الحوار يعنى التعاون بغية الوصول الى الحقيقة وأن الحقيقة لا تحمل الاّ وجهاً واحدا ..

ولن اكرّر ما سبق ان حشدته من ادلة وبراهين ولعلك لو انتظرت حتى تقرأ بقية الحلقات التى لم تنشر بعد لوجدت ما يشرح صدرك ان كنت حقا طالب معرفة ولما وقفت هذا الموقف الذى أظهرك فى مظهر ما كنت اظنك تلجأ اليه ؛ ولماّ كنت قد خرجت على آداب المناظرة وصراع الحوار العلمى الرصين فها أنا أغادر الحلبة تاركاً للمشاهدين الحكم واقترح تكوين لجنة تحكيم أدبية تنظر فى كلّ ما قلناه وما عسى أن تقوله أو اقوله إن رجعت الى آداب المناظرة ، وأن تتكون هذه اللجنة من عشرة ؛ اختار خمسة وتختار خمسة ؛ وها أنا أعينّ من ارتضيهم من قبلى وهم الدكتور الناقد العالم بدوى

طبانه المصرى ، والأديب والشاعر العراقى الدكتـور عز الـدين يوسف ، والكاتب الشاعر السعودي عبد العزيز الرفاعى والأديب السورى العارف باللغات الأستـاذ احمـد الشيبانـى ، والشاعـر اليمانـى المجـدد الدكتـور عبد العزيز المقالح ؛ وحكم أنت من تريد من هذه الأقطار أو من غيرها ولا أظنك تعارض اقتراحى فى أن يترأس هذه اللّجنة الشيخ الأديب الكاتب عبد العزيز التويجرى .

والسلام على من اتبع الهدى .

بروملى ١٥/ رمضان/١٤٠٣ هـ ١٩٨٣/٦/٢٥

المتنبى : شاعر مكارم الأخلاق

نعم : أنا من مدرسة الاستاذ محمود شاكر .. لا يمكن أن تعرف المتنبى دون أن تقرأ شعره قراءة كاملة .. البحث « السيكولوجى » مجرد حدس وتخمين وظنون .. كيف يكون المتنبى قيمة حضارية .. وهو « نرجسى » شرّير .. فى نظرك ؟

الشمرى يهدم احدى دعائمه الست بيده !

كنت قد أعلنت انسحابى من حلبة المصارعة الأدبية التى نشبت بينى وبين الاستاذ ذيبان الشمرى حول « المتنبّى » بعد أن قرأت مقالته فى «الأربعاء » ١٤٠٣/٩/٥ هـ . تحت عنوان « مفهوم الاستاذ الشامى للسيكولوجيا مغلوط شكلا وموضوعا » لا نزقاً منه ، ولا حنقاً عليه ، ولا برما بطريقة كتابته التى لجأ اليها فى ذلك المقال من تبسيط ومباهاة وعنف ، ولا احتجاجاً على مخالفته لمنهج الحوار ، وتنكبّه للأسلوب الذى التزمناه فى نقاشنا واشاد بعفّته وعلمانيته ، ورصانته بعض قرّاء « الأربعاء » .. ولكن لأننى كنت قد نويت قفل الحوار قبل أن اقرأ المقال المشار إليه وقلت فى مقالى الثانى عشر المنشور فى العدد السادس والعشرين ١٤٠٣/١٠/٢٤ هـ . « قد تكون هذه الحلقة الثانية عشرة خاتمة سلسلة الحوار بينى وبين الفيلسوف الشمرى حول المتنبى ، وليس لأنى قد سئمت هذا الحوار الشّيق أو مللته ، ولا لأن الكلام عن « المتنبّى » قد استوفى ،

فالمتنبى والتّحدث عنه بحر غطمطم ستظلّ أمواجه تتجدّد بتجدّد الزمن ؛ ولكن لأننى وفى نطاق البحث الذى التزمت به ، وسمحت لنفسى أن أخوضه وهو الدفاع عن انسانية المتنبّى ونسبه وصحة عقيدته وايمانه بالله ، ودفاعه عن الاسلام ومحاولته القيام بتكوين دولة عربية ترفع راية الاسلام ضد الشعوبيّين والمماليك ، وفلسفته التى تؤمن بالعزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وتدين بالقوّة وسيلة لتوطيد العدالة الاجتماعية فى مجتمع مزدهر آمن مؤمن بالله .. قد سكبتُ كلّ ما فى دلوى ، ورميت بكلّ ما فى جُعبتى من سهام ؛ ولم يكن الحوار بيننا عن شاعرية « المتنبى » وعبقريته البيانية فنهيم فى وديانها وشعابها ، واعتقد أنّنى قد قلت كلّما استطيعه ، وكلّما يمكن أن أقوله فى نفى التهم الظالمة التى وجّهها الصديق « الشمرى » واساتذته الى المتنبّى من ادعائه النبوّة ، وضعة نسبه ، و « النرجسية » والعبثية ، والحقد على البشرية ، وأثبت كرم نفسه ، وشرف نسبه ، وصحة عقيدته ، وانه كان رجل دولة ، ومن عباقرة العرب والمسلمين .. ومن شعر المتنبّى نفسه « .

وقلت عن سخرية الصديق الشمرى بمفهومى « للسيكولوجيا » وان تعريفى لها كان « عجيبا غريبا مذهلا » « لم يسمع به البتّة » بل « ولم يسمع به أوسع الناس علماً ولا أقلّهم ثقافة وتعلّما وقوله : ان الجحوظ كاد يقتلع عينيه من محجريهما لو لم تنطلق حنجرته بقهقهات مدوية » قلّلت من عجبه واستغرابه لخطئى الفاحش لمفهوم « السيكولوجيا » وعلّله بجهلى للغات الانجليزية والفرنسية والألمانية التى هى زاده وزناده وكنز معارفه ،

قلت : فى نفس المقال : ولقد قرأت المقال بهدوء ولـم تنطلـق حنجرتـى بقهقهات السخرية كما صنع « الشمرى » لأن اعظم « سيكولوجى » عرفه الشعر العربى وعـرف نفسيّات « المصارعـين » « المتنـكرين » وهـو أبـو « الطيب » و« المحسد » ، قد درّبنى وربانى حتّى اختارنى له « سفيرا » يفهم كيف يحاور ويداور ، ومتى يحتج ومتـى يثـور ، وأنبأنـى بمنـاورات « المنهزمين » واكتفيت ببسمة ظفر تخيّلت أشعة تأييدها تتلألأ فى عيون كلّ من شاهد المصارعة الفكرية والأدبية بين « الأصلع المصحر » و« الفارس المتنكر الذى بدأ يتساقط فى « الجولة الرابعة » وبعـد كلام فيه شىء من مجاراة الصديق فى سخريته يجده القارىء فى المقالة الثانية عشرة قلت : « انه ليس ثمة علم « سيكولوجيا » صادق وآخر كاذب عندنا نحن المؤمنين بالقرآن ؛ فالكل تخمين وتخرّص يحتمل الصدق والكذب ويجوز عليه الخطأ والصواب » .. وسرعان ما عرف الأديب الشمرى انّه قد تسرّع ، وحاد عن النهج الذى التزمناه فى حوارنا .. وقبل أن يعرف ردّ فعل مقالته عندى وأثرها فى نفسى ، فبادر وكتب معقّبا على مقاله المذكور بمقال آخر نشرته « الأربعاء فى العدد الحادى والعشرين ١٤٠٣/٩/١٢ هـ . تحت عنوان : « لا اهمية لنسب المتنبّى ؛ فهو قيمة حضارية نفيسة » وقد اعلن فى هذا المقال أسفه عن جموح يراعه ، بأنه لا يزال فيه الكثير من خشونة البادية التى تعوّدت التصدّى للخطأ بنبرات الغاضب وليس بهمسات الصديق ». وقال : « تعوّد الرومان القدماء ان يستحمّوا بالماء البارد قبل ان يتخذوا أى قرار خطير أو أجراء حاسم ، ولقد اكتشفت فى الاسبوع الماضى الحكمة فى

ذلك ، فلقد لمست انه كان عليّ أنا أيضا أن احذو حذو اولئك الرومان قبل كتابتي لمقالتي السابقة فى الردّ على الصديق الاستاذ احمد الشامي فاسلوبي فى تلك المقالة كان فيه شيء من قسوة تقارب العنف أو تتجاوزه الأمر الذى لا يتفق والعقلانية فى كل حوار فليس للعقل ناب أو مخلب فالعقل لا ينهش ، بل يسند ، ولا يخمش ، بل يرشد ، لذلك استميح الصديق الكريم عذراً اذا كان فى مقالي السابق شيء من نهش أو خمش أو خدش » .

وكنت قد تركت عشّ « العزلة » فى « بروملي » وسافرت الى « صنعاء » فى منتصف شهر رمضان الكريم سنة ١٤٠٣ هـ . وفيها مع ادباء اليمن الذين ظلّوا يتطلعون الى حلبة الحوار بيني وبين « الشمري » باهتمام ، ودار معهم حولها وحول موضوعها نقاش وجدال ، وكانوا قد استغربوا نزق مقالته وقسوة عباراتها ثم اعجبوا بلباقة اعتذاره عندما كتب التعقيب ، ومع ذلك فقد كنت أعرف أنّه لم يتراجع عن موقفه من المتنبي قيد أنملة كما عرف ذلك كلّ قرّائه ، وانمّا أسِفَ على الاسلوب الذى انتهجه قائلا : « والحقّ يقال انه كان بامكاني لولا جموح القلم أو بالأحرى جنوحه أن أصحّح مَفْهومي « السيكولوجيا » و « النرجسيّة » اللذين أوردهما الاستاذ الشامي فى مقالته السابقة بأسلوب يلتزم بقول الحقّ ولا يزعج الباحث عن الحقيقة » ولا سيا أن الحوار بيني وبين الاستاذ الصديق حول المتنبي كان وما يزال ملتزماً بقواعد الحوار الأساسية وبمنبعه الرئيسي أى العقل ، الأمر الذى يبقيه مترفعاً فوق كل ترجاف فى مداره وانفعاله بموضوعه » ومع ذلك فقد قلت :

لا غرو إذا اعتذر ؛ فالفيلسوف الشمرى يعرف أن الرجوع الى الحق فضيلة ، واستشعرت روعة الرجوع الى الحق وعظمتها وأكبرتُ الصديق الكريم بل وندمت على بعض العبارات التى استعملتها فى مقالى الثانى عشر والتى تنم عن انفعالى من سخرية الاستاذ وتجهيله لى ، وتذكرت بيتاً قرأته للعقاد واعجبت به وأظنه افضل شعر قاله العقاد :

أنصفت مظلوماً فأنصف ظالماً   فى ذلة المظلوم عذرُ الظالمِ

وإزداد الصديق فى نظرى قدرا ؛ وان كنت قد استغربت إصراره العنيد على تكرار اتهاماته للمتنبى رغم تفنيدى لها ، وعجبت كيف لم يأخذ بالأدلة والشواهد التى أوردتها من كلام « المتنبى » نفسه والتى تؤكد بما لا يقبل الشك انه كان حكيما فيلسوفا حنيفا مسلما ، عالماً أديباً ، يؤمن بأن المسلم القوى خير من المسلم الضعيف يكره الطغيان ويحاربه ويمجّد العفو والاحسان ؛ وكيف لم يعط أي اعتبار لتفريقى بين « المحْكم » و « المتشابه » فى شعر المتنبىّ وتنبيهى له بأنّه قد اعتمد على ابيات « متشابهة » من أبياته ولو ردّها الى « محكماته » لما نبز المتنبّى بتلك التهم الباطلة الى ما بينته من أن معظم تلك « المتشابهات » مما قاله « المتنبى » فى صباه وعنفوان شبابه .. وعجبت أيضا من تقليله للقيمة العلمية والأدبية والتاريخية لكتاب الاستاذ محمود شاكر عن المتنّبى وقوله عنه : « أنّ معظم ما جاء فى كتاب الأستاذ محمود محمد شاكر وكذلك كتاب الدكتور طه حسين أمور لا يجوز أن تستنزف من وقت القارىء ولو ساعة واحدة » ! ثم أغراقه ومبالغته فى الشطح حتى قال : « فأنا أرى أن الاسلوب التقريرى فى

العرض ؛ اسلوب الاساتذة شاكر والدكتور طه حسين والأفغاني والرافعي هو اسلوب ناقص يكتفي فقط بالدوران حول الحادث أو الحدث ولا يغامر أو يحاول سبر أغوار ما وراء الحدث فهو يستطيب اللّعب أو التلاعب على السطح ؛ فيروى لنا الروايات والقصص ـ وقد يروى لنا الحقائق أيضاً ولذلك لا أعمد ولم اعمد إلى استخدامه » ؛ لقد أبعدت مرماك يا صديقي ! وذهبت بها طويلة عريضة ، وأظنك كنت في حاجة قبل أن تقذف بهذه الجُمل وتلقى الكلام على عواهنه ، الى أن تتذكر حكمة الرّومان القدماء والتي ذكرتها في مستهل مقالتك من انهم تعوّدوا أن يستحمّوا بالماء البارد قبل أن يتخذوا أيّ قرار خطير أو إجراء حاسم » ! ، ولا أظنّني في حاجة لتبيين ما قدّمه الاساتذة المذكورون للعلم والأدب العربي من خدمات جليلة ، ولأنني اجلك واقدّرك فغاية ما يمكن ان اعتذر لك به هو أنك لم تقرأ كتاب « المتنبّي » للاستاذ شاكر كما قلت محاولاً الاعتذار لك أيضاً في احدى المقالات السابقة بأنك لم تقرأ « المتنبي » قراءة حرّةً كاملة ، وأن كثرة قراءاتك للآداب « الأوروبية » قد جنت على ذوقك العربي ؛ وعفوا فأنا أحب الحقّ ولا أماري فيه ؛ وإلاّ فقل لي بربك كيف يمكن أن تعرض عن الحادث أو الحدث ، والقصص والروايات والحقائق والنصوص الشعرية « المتشابه » منها و « المحكم » ومعرفة الجديد والقديم وترمي بها عرض الحائط ، ثم تغامر في سبر أغوار ما وراء الحدث بإسلوب « سيكولوجي » كلّه حدس وتخمين وظن « وبعض الظن إثم « .. مفتشاً عن « مفتاح » يمكنك كما تقول « من فتح بعض الأبواب الموصدة لنفسيّة

المتنبى بغية فهم فلسفته وعصره وتقييم قدراته على الاستجابة لتحديات عصره ونوعيّة استجابته » ؟

كيف يمكنك الحصول على المفتاح ، دون الاعتماد على نصوص « المتنبى » نفسه وقد اوردت لك المئات منها ، ودون الرجوع إلى اقوال المؤرخين والشرّاح الذين عاصروا المتنبّى ، ودون الاستئناس بآراء وأقوال الباحثين عبر العصور الذين حلّلوا تاريخه وآثاره ، ودون تزييف اخبارهم والتثبّت من اقوالهم ، ومعرفة الصحيح من الفاسد ، والحق من الباطل ، بل ودون أن تقرأ أدلة وبراهين محاورك .

إنّك بِترْك كلّ ذلك واستخدامك ما سميته « الاسلوب السيكولوجى فى البحث » قد اضعت مفتاح الحقيقة ، واستغنيت عن المرشد ، وضعت فى متاهة الظنون والحدس والتخمين .

نسب المتنبى وفلسفته :

وأما قولك أننى « متأثر بمدرسة الاستاذ محمود شاكر فى النقد والأدب إن لم اكن استمرارا لها ، فتهمةٌ شرفتنى بها فى الدنيا والآخرة ، شرف الله قدرك ؛ ولما كنت قد قلت بأنك تشعر بأنك مختلف عن شاكر والرافعى « كل الاختلاف ، مدرسة ومنهجاً فى الدراسة والبحث » فمعنى هذا أننا مختلفان كل الاختلاف مدرسة ومنهجاً ! وبناء عليه فكما قلت : « فأنا لا يهمّنى أصل المتنبى ولا حسبه ولا نسبه » أقول لك : إنك أيضا قد اجهدت نفسك بكلّ تلك التفسيرات للنرجسة أو « النرسسة » أولاً وثانيا : . الى خامساً ! فلا يهمنى من الذى اخترع مصطلحها أو وضعه ،

وهل هم الأغريق أم الرومان أم علماء النفس أم « السيكولوجيا » ؟ فكل ذلك كما قلت لك ليس من العلم الحق القائم على العقل والبحث والتفكير وتتبع النصوص وصحة الاسناد والدراية والدرس .. بل على الحدس والتخمين والظنون والأوهام . وانما الذى يهمّنى بالنسبة للمتنبى انه لم يكن وضيعاً ولا شريرا ، ولا معقداً ولا ملحداً ، ولا شاذاً ولا مجنونا ، ولا يقاس به « نيتشه » ولا « شوبنهور » ولا أحد من شذاذ الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالله ورسالة محمد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفى هذا المضمار حاورتك ، وانت الذى كِلْتَ التهم تلك للمتنبّى ؛ وأنا إنما ادافع عنه واستشهد بأقواله وأقوال الثقاة من العلماء والأدباء والمؤرخين ، لا أخمّن ولا اغامر ، ولا احدسُ معتمدا على « داروين » أو « فرويد » أو « الوصف النفسى » و « الحتمية النفسية » . ونظـريّات « السيكولـوجيين » ، و « المطنفسين » !

وكنت قد اثبت لك فى المقالة العاشرة ان فلسفة المتنبى عن القوة هى فلسفة المسلم الآمر بالمعروف ، وأن ثمة فارق هائل بين شعر المتنبى كهلاً ، وشعره صبيًّا مراهقاً ، وانّه مجّد القوّة وسيلة لا مذهباً « نيتشياً » ! ولكنك لم تحسب لكل ذلك حسابا .

وفى مقالى « الحادى عشر » الذى أهملتِ « الأربعاء » نشره[1] سهواً أو لسبب .. آخر والذى فيه ان العربى المسلم ليس « ظاهرة صوتية » كما يدّعى خصوم العروبة والاسلام ، وبرهنتُ أن « المتنبّى » قد بارى فلسفة وشعراً « سقراط » و « شكسبير » وتحدثت عن قصيدته الخالدة « ذات

العناوين » أو « نشيد الرفق الخالد » والتى منها :

ترفّقْ أيهّا المولى عليهم فان الرفق بالجانى عتاب
وانت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادى ولكن ربمّا خفى الصواب
وجرم جرّه سفهاء قومٍ وحل بغير جارمه العذاب

ناقشت تهجماتك على « المتنبى » وقولك أن خيبات آماله «.كانت تمتع المرارة المسمومة من بحار مظلمة تتلاطم امواجها بالنقمة والحقد على البشرية والبشر » وقلت لك « تأمل يا صديقى » « ذيبان » برفق وحنان ، وتخلّصْ من ترسبات ما قرأته أيام الشباب من تخرصات عن ابى الطّيب وتقوّلات وأباطيل وقل لى بربك هل يقول مثل هذا شريرٌ أو « نرجسى » ؟ وهل يفكر فيه من « يفسرّ الحق بالقوة » « ولا يعتبره الاّ ما تطوله يداه غصباً واكتساباً دجلاً أو استجداءا » ؟ الى آخر ما ستقرأه إن شاء الله عندما تخرج هذه الأبحاث فى كتاب . ثم ها أنت تأتى وتقول : « أن سيف الدولة ينتسب حضارياً الى المتنبى وليس المتنبّى هو الذى ينتسب إليه وذلك لأن المتنبّى قيمة حضارية نفسيّة لا فى الأدب العربى فقط بل وأيضا فى الأدب العالمى » ؛ والحضارة فى نظرى كمسلم إذا لم ترتكز على دعائم مكارم الأخلاق وحبّ الخير للبشرية فهى بلآء وشر ودمار فأى حضارة تعنى ؟ وقد وصفت المتنبّى بأنه شرير حاقد « نرجسى » لم يعرف الله ولا الحب ولم يقدس الاّ نفسه وهواه ؟ ما هذا التناقض يا صديقى ؟ .

لقد أراد الفليلسوف الشمرى بقوله : «فأنا لا يهمنى أصل المتنبى

ولا حسبه ولا نسبه فجميعنا أبناء آدم وآدم من تراب » أن يتملّص من خطأ وقع فيه ، وعزّ عليه بعد أن راجع نفسه ومعلوماته وتأمّل الحجج والبراهين ؛ أن يعترف بخطأه ونسى أو تناسى أنه بهذا التملّص يهدم دعامة من دعائمه الستّ التى بنى عليها حكمه الجازم بأن المتنبّى قد ادعى النبوّة حين قال : « على الرغم من ان الكثيرين من النّقاد والكتّاب يحاولون أن ينفوا عن المتنبى تهمة ادعائه النبوّة ، غير أن تأمّلنا أوّلاً فى عصره ، ومن ثم فى نفسه ولا سيما فى طموحه الجموح ، وثالثا فى نرجسيته الطاغية ورابعاً فى الوسيلة الوحيدة لتجميع الانصار من حوله ، وخامسا فى فطرته المغامرة . وسادساً فى تحدّره من عائلة وضيعة الأمر الذى يستثير فى نفسه كوامن الشعور التعويضى وزخومة كل ذلك يضطرنا للتسليم بادانته بتهمة ادعائه النبوة » وكان لابد لى وأنا أهدم وأجتث تلك الدعائم أن اتحدّث عن نسب المتنبى حتى وأن اجهدتُ نفسى كما قال الاستاذ الشمرى لإيراد الاسانيد والروايات لكى اثبت له أن المتنبّى لم يكن متحدّرا من عائلة وضيعة كما زعم ؛ وحسبى أنّنى قد وفقت وأقنعته .

وإذن فلست أنا الذى أثار نسب المتنبى وما كان لى أن اعمل ذلك لو لم يكن الصديق الشمرى قد اثارها بل وجعلها الركن السادس من أركان حُكْمِهِ على المتنبّى بأنه لم يكن مسلماً حنيفاً وأنه ادعى النبوّة واختلق قرآنا .. نعم ما كان لى أن أثير موضوع الأحساب والأنساب لأنها قد ذهبت بالاسلام ولأننى اعلم كما يعلم أن كل الناس لآدم وآدم من تراب بل وأؤمن مثل كلّ مسلم بقوله تعالى : « يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم » .

مكارم الأخلاق لباب فلسفة شعر المتنبّى

أيها الفيلسوف أو الصديق الذى أنسيته أنّنا على وفاق تام على شاعرية المتنبى وعبقريته البيانية ولكن قوماً ـ وللأسباب التى أبنـت بعضهـا فى المقالات السابقة وقد آتى على بعضها ـ اضفوا عليه من الصفات ما لا يمكن أن تنطبق على المؤمن بالله ولا على المسلم كأنهم يستكثرون على أى مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ان يكون عبقرياً وجئت انت فوصفت المتنبى الشاعر العبقرى بل إمبراطور الشعر العالمى فى رأيك بأنه لم يكن مؤمنا بالله بل ملحداً وكان نرجسياً وصولياً بربرىّ الغريزة شريراً وضيع النّسب ، وأردت أن أبين لك برفق ولين وحوار منطقى خطأ نظرتك ، وأن المثل العليا التى كان المتنبى يؤمن بها والتى لا تهمه وحده ولا العرب والمسلمين فقط بل وتهمّ الانسانية جمعاَء وهى لب وروح الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والتى يمكن ان نسميها « مكارم الأخلاق » كما سماها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لّما قال : « بعثتُ لأتّمم مكارم الأخلاق ، وأشهد أنّى لم أقرأ فى تاريخ الأدب العربى شعراً يهتم بمكارم الأخلاق فى أداء شعرى بديع لا يستطيعه الاّ الأفذاذ مثلما قرأته فى شعر ابى الطيب المتنبى ، وهذا الموضوع هو لباب حوارنا وقطب رحاه إذ لم نختلف على شاعرية المتنبى ولا أنه أفضل شعريّا من سائر الشعراء .

ولا شك انك لا تخالفنى بل تعرف أدباً وفلسفة ان الحكمة ، والشجاعة ،

والعفو والكرم والمروءة والفتوّة والوفاء والعلم والإيمان بالله والخوف منه والعزّةَ ، والحلم والإباء والقوّة والعدل والإنصاف والحب وتقدير الحق ومحبة الخير وشكر المنعم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والغيرة على الدين والمحارم ، وكره الظلم ومقت الظالمين ونحو ذلك ، من مكارم الأخلاق ، وللمتنبّى حول كلّ ذلك من الأشعار ما تعلمه وما قد سردتُ بعضه فيما سبق من الفصول .

وقد كتب الصديق الشمرى بعد مقاله « لا اهمية لنسب المتنبى » مقالا بعنوان « مسئولية الأمويين والعبّاسيين فى تمكينهم للشعوبيين والحركات الباطنية » تحدث فيه عن المتنبى وأنه عاش حياة اغتراب مرير فى مجتمعه وعصره ، مردّداً نفس التهم « السيكولوجية » التى سبق تفنيدها دون ردّ أو اشارة الى ما أوردناه ؛ ثم اتبعه بمقال طويل عنوانه « لقد قفزَتْ بالمتنبّى الأحداث من الصبا الى الكهولة » وقال فيه أن المتنبّى لم يكن بالمغترب عن عصره ولا بالمنسلخ عن مجتمعه [تأمل التناقض] كما تحدث عن مراحل تطوره السيكولوجى الثلاث وكيف اعلن استسلامه للزمان وظروفه . ثم ختم سلسلة مقالاته بمقالة عنوانها : « المتنبّى ادخل سيف الدولة التاريخ من اوسع أبوابه وذكر رواية قال أنهّا عجيبة عن نسب المتنبّى ولم يسندها ولا بينّ مصدرها ، وقال ان الدولة العباسية قامت على حرب العروبة وإذلال العرب وخلط بين « الشيعة » و« الباطنية » و« الروافض » ! وزعم أن أبا مسلم كان يزعم أن روح الله تجسدت فيه ، وان المأمون جاء الى السلطة ليكرّس شرعية الحركات الباطنية الهدامة وغير ذلك مما لابد من مناقشة ما

يتعلق منه بموضوع حوارنا عن المتنبى وابراز صورته الحقيقية كشاعر صحيح العقيدة يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قبل أن اختتم هذه الأبحاث التى أنوى اخراجها فى كتاب اسمه « المتنبى » شاعر مكارم الاخلاق » إن شاء الله فإلى الأسبوع القادم .

بروملى ١٩٨٣/٨/٢٨ م ١٤٠٣/١١/٢٠ هـ .

المتنبي : شاعر مكارم الأخلاق

« الشمرى » تجاوز فى حديثه عن المتنبى الفيلسوف الى المتنبى المصلح والـوضيع ! ، نلتقـى فى « المقدمـات » ونختلف على « النتائـج » ! « كلانا ؛ لا يؤمن بالحتميات التاريخية والنفسية » ؛ تبحّره فى المعارف الغربية جنى على معارفه العربية ! لو كنت منه لما تحدثت عن المتنبى واكتفيت بغوتيه ، وشللر وعداه ذم ! .. الرافعى اعظم من « غوتيه » و « دانتى » ! الاستاذ لم يقرأ المتنبى قراءة كاملة .

١ ـ أمّا المقدمة :

مِن ابدع ما قرأته للاستاذ ذيبان الشمّرى ـ ومن اغرب واعجـب ـ مقدّمته النفيسة لمقالته المنشورة فى ملحق الأربعاء العدد الثالث والعشرون ١٤٠٣/٩/٢٦ هـ . تحت عنوان : « مسؤولية الأمـويين والعبـاسيين من تمكينهم للشعوبية والحركات الباطنية » وليس سبب عجبى أو اعجابى أنّه قد أكّد أنّ ما كتبه فى سلسلة الحوار بينى وبينه لم يتجاوز فى نقده للمتنبّى « الفيلسوف والإنسان » الى المتنبى الشاعـر ، أو الفـارس ، أو الـكريم المحتد ، أو المصلح الاجتماعى ، أو السياسى ، أو عاشق خولة أخت سيف الدولة أو معشوقها » ؛ لأنّ ذاكرته قد عاصته ؛ ولابد أن اذكّره بأنه قد مارس ذلك « التجاوز » حين ردّ على مقالتى التى كتبتها فى صورةِ رسالة من أبى الطّيب الى الشيخ عبد العزيز التّويجرى أفنّدُ دَعوى الشمرى فى

مقالته التى تناول بها كتاب « التويجرى » عن المتنبى بأن فلسفته قائمة على « شريعة الغاب وقوانينها الرافضة للتراحم والرحمة » وانه « كان انسانا ملحداً بفطرته ، وديوان شعره بنفح بروائح شديدة للإلحاد الخ . » والتى أثبتُ فيها ـ على لسان المتنبى ومن شعره ـ أنّه كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر محبّا للرسول وآله وأنّه لم يكن وجودياً ؛ أو مادياً ، وفلسفته عن « القوّة » تغاير فلسفة « نيتشه » لأنه يؤمن بها كوسيلة لنشر الحق والخير والإنصاف على هدى « القرآن » ؛ وحين ردّ الاستاذ ذيبان الشمرى على مقالتى تلك بمقال نفيس طويل نشر فى ملحق « الأربعاء » العدد الرابع عشر ١٤٠٣/٧/٢١ هـ . ـ وهو فاتحة هذا الحوار بينى وبينه ـ تجاوز نقد « المتنبّى الفيلسوف الانسان » الى « محتد المتنبى » وموقفه « الاجتماعى والسياسى » وذلك فى الفقرة الرابعة ـ د ـ حين حاول البرهنة على أن المتنبى قد ادّعى النبوّة ، وتأكيد حدوث « الادعاء » وجعل من عناصر حُكْمِهِ الجازم بذلك بَعْدَ « نرجسيته » الطاغية ، وفطرته المغامرة « تحدرّه من عائلة وضيعة » ! وذلك هو الذى سبّب الحوار بيننا ؛ إذ لو انه قد اقتصر على نقد فلسفة المتنبى ولم يتعرض لحركته الاصلاحية ، وثورته على الظلم ، واعلان نسبه العلوى ، وحاول تصديق مزاعم اعدائه من أنه قد ادعى النبوّة وانّه كان « نرجسياً » وضيع النسب دجّالاً .. لما تعرضتُ لتفنيد أقواله واكتفيت بما كنتُ قد اثبتهُ فى الرسالة من « المتنبّى » الى « التويجرى » وفيها من الأدلّة والبراهين والشواهد والنصوص ما يكفى ؛ :

وليس يصحّ فى الأذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

نعم مقدمة ـ الفيلسوف الشمرى ـ للمقال المشار اليه من ابدع ما قرأته له ليس لما ذكرت ، ولا لأنّه قد اثنى على عبقرية المتنبى وأطراه كشاعر فانى اعرف مسبقا رأى الصديق الكريم ؛ وكيف ؛ وقد توّجه « امبراطوراً » للشعر والشعراء ؛ وانما قلت إنهّا من أبدع وأروع ما قرأته له ؛ لأنّه قد صوّر « قناعته المنطقية للمفهوم التاريخى الحقيقى للعبقرية الإنسانية » وانها يجب أن لا تتعارض مع « الخيرية التى ينبغى أن تكون وتبقى الصفة المميّزة للإنسان الحضارى فى كلّ عصر وظرف » ؛ فهذه هى عين قناعتى وتصوّرى للمفهوم التاريخى الحقيقى للعبقريّة الإنسانية ، وذلك ما جعلنى شديد الإعجاب بعبقريّة « المتنبّى » وما جعلنى اعجب كيف لم يهتد الفيلسوف الشمرى إليها ويعبّها ثرّة صافية وبمعايير الإنسانية من شعر المتنبّى وتاريخ حياته الحافل بالدعوة الى مكارم الأخلاق ونصرة وعزّة العروبة والإسلام فى ذلك العصر الخاسر البائر الموبوء بالعجمة والفساد والطغيان ؟ .

وإذن ـ ويا للعجب ـ كيف نلتقى فى « المقدمة » ونختلف على « النتيجة » ؟! وكيف بمنظار واحد نرى مظهرين مختلفين شكلاً ولوناً ولصورةٍ واحدة !!؟

وقد أُعْجِبتُ وعَجبتُ بهذه المقدمة ومنها أيضا ؛ لأنهّا أعربت عمّا اعتقده عندما قال : « أنّنى لست من أولئك الماديين ولا سيا الماركسيين منهم والذين يؤمنون بأن الظروف هى التى تصنع إنسانها ، وان التاريخ هو الذى يختار عنوانه ، وأن الإنسان أعجز من أن يصنع التاريخ ومن أن يتحكم فى

سياقه : فأنا لا أؤمن بالحتميات التاريخية ، ولا سيما بالحتمية الماركسية ، وكذلك لا أؤمن بالحتمية النفسيّة التى طلع علينا بها سيجموند فرويد : حيث أن الحتميات المادية تجعل من الانسان كائناً مسلوب الارادة ينفعل بالظرف أو الحدث ويتوقّف عند الانفعال به » الى آخر كلامه البديع الذى أجدنى مرّة أخرى التقى معه عليه ، والذى من أجله ، ومن اجل أنّنى أؤمن كما يؤمن بأن الفلسفة المادية التى تجرّد الإنسان من القدرة على القرار تجرّده أيضا من القدرة على الاختيار فتسقط عنه المسئولية بل وتهدر حريته ، ولا يبقى معنى للثواب والعقاب ، قد اعجبتُ بفلسفة المتنبى وشعره وانسانيته . لأنّه قد آمن بالقوّة كوسيلة لا غاية ، وكان لسانا فصيحاً للمثل العليا والفطرة البشرية الأصيلة ، ومحامياً لمكارم الأخلاق ! واندهش واعجب مرّة أخرى كيف التقى مع الفيلسوف الشمرى فى المقدّمات ثم نختلف على « النتائج » ! أننى التقى مع الصديق الشمرى فى ما قاله عن بطلان النظريّات المادية بالنسبة لسلوك الإنسان ولا سيما تلك « الماركسية » و « الفرويدية » و « الداروينية » ولقد كنت يوما فى حوار مع أديب يرى أن « الظروف هى التى تصنع انسانها » ويؤمن بالحتميات التاريخية المادية والنفسية ، فسألته : كيف امكن لرجل مثل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أن يتحوّل وبعد أن قطع من عمره ثلاثين عاما كلّها ضلال وتسكّع فى شعاب الجهل ، من فظّ غليظ القلب ، غافل جاهل يعبد صنما من الحلوى فى الصباح ويلتهمه فى المساء ، ولا تأخذه رأفة ولا رحمة بابنته الطفلة يدسها فى الحفرة ويهيل عليها التراب وهى تنفض عنه ما قد تطاير منه عليه ، الى

مصلح اجتماعی رحيم كريم ، عادل حكيم يقول عنه « عليّ » رضى الله عنه انه ما أحبّ أن يلقى الله بعمل احد مثل عمل ابن الخطّاب » ، و« علي » من نعلم علماً وعملا ؟؟ فلم يحر الاديب المادى جوابا ،! فقلت له : انه القرآن .. إنها رسالة الاسلام .

نعم لقد استغربت كيف تكون مقدماتنا واحدة ثم نختلف فى استخراج نتائجها ؛ ؟ وضربت فى تعليل السبب أخماساً فى اسداس ، ولم أجد عذراً معقولا ـ لا ادرى هل يوافقنى الصديق الشمرى عليه أو لا ـ الاّ أنّ تبحّره فى قراءة الآداب والفلسفات الغربية وسعة اطلاعه على معارفه وتمكنه من اتقان لغاتها ، ومعظم آداب الغربيين وفلسفاتهم تقوم على اسس مادية ، وأساطير خيالية وتخمينات وحتميات منفعلة بنظريات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين قبل أن يتطور العلم وتنفلق « الذرة » ويعرف علماؤها أن المادة طاقة روحية ، وان للكون الفسيح العجيب خالق مدبّر هو بديع السماوات والأرض البارىء المصوّر الحى القيوم . هذا التبحّر وسعة الاطلاع قد شغله عن استيعاب آداب اللغة العربية وتاريخ عباقرتها ، ومعرفة علومها فوقف اعجابه وانبهاره على آداب وفلسفة الغرب ، وتذوّق تلك الآداب تذوّق البصير الخبير المعجب ذى الفطنة واغرق فى ذلك « التذوّق » حتّى فضّلها على ما سواها من آداب الأمم بما فيها لغته العربية .. ولهذا تجده حين يتحدّث عن « بودلير » و« رامبو » و« ملارميه » أو« كنت » أو « هيفن » أو« بيتهوفن » أو« غوتيه » أو يترجم أشعارهم أو آثارهم يبدع ، ويطنب فى التمجيد ، والتعظيم ويغضى الطرف عن اخطائهم

السلوكية لأنها اصلاً ليست اخطاء بالنسبة لمجتمعاتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ..!

وممّا يؤيّد صدق دعواى هذه ما قرأته اليوم للاستاذ ذيبان فى ملحق الأربعاء العدد التاسع والعشرون ١٤٠٣/١١/١٦ هـ . من بحث نفيس عن « فريدريك شللر شاعر المانيا الأكبر وفيلسوف الجمال » فلقد افتتح هذا المقال بقوله : « لم تعرف أمة من أمم الأرض مثل ذلك الموسَم الخصب من مواسم العبقرية ولا مثل ذلك الحشد الضخم من شوامخ الأدب والفكر والفن الذين عاشوا فى عصر واحد كالحشد الذى عرفته منهم الأمة الألمانية فى كل ميدان من ميادين الحضارة الإنسانية ، وفى موسم ابداعها المذهل بخصوبته والاستثنائى بمواهبه ، والمبتدى بالنصف الثانى من القرن الثامن عشر والممتد الى الربع الثانى من القرن التاسع عشر » الى آخر ما قال مما ليس لى عليه أىّ اعتراض ؛ على الاقل لأنّ معرفتى به لا تجارى معرفة الصديق الكريم .. ولكن أليس مما يلفت النظر انّه وهو يتحدّث عن عصر « المتنبى » قد جعل ظروفه تخلق من المتنبى شريرا حاقدا نرجسيا .. ولم يلتفت إلى انه ـ أى القرن الرابع الهجرى ـ قد حفل بحشد ضخم من شوامخ الأدب والفكر والفن ، عاشوا تلك الحقبة التاريخية التى عاشها المتنبى وأميره الفارس العالم .. وعندما لفتّ نظره فى مقالتى الثالثة الى أن القرن الرابع الهجرى الذى عاش المتنبى نصفه الأول قد تميّز فى تاريخ الاسلام بنهضة علمية وثقافية تدعو الى الاعجاب وذكرت له من افذاذ ذلك القرن « الفارابى » والهمدانى ، وابن دريد ، والقالى ، وأبو الفرج

الاصفهانى ، وابن عبّاد ، وابن العميد ، والخوارزمى وبديع الزمان ، واخوان الصفا ، وثابت قرّه ، والرازى ، والصولى .. ثم المعرّى والرضى والمرتضى ، وابن سيناء ، وأبو اسحاق الصابى ، وابن جرير الطبرى . الخ ، لم يعط لذلك بالاً ، ولم يغيّر نظرته الى ذلك القرن . ولم يقل أنّ أمة من أمم الأرض لم تعرف مثل ذلك القرن الخصب ، ولا موسماً مثل موسمه .

ولم يعط رجاله وعباقرته وشعراءه من التقدير ما اعطاه « لكنت » و « هيفن » و «بيتهوفن » والموسيقار النقى الطاهر الورع يوسف هايدن » ! والأخوان الفيلسوفان « شليفل » و « غوتيه » ذروة الأدب الالمانى « وأحد قمم الأدب العالمى الأربع » والشاعر « شللر » وبقية الاسماء اللاّمعة التى سردها فى موكب من الثناء والإجلال .. وكما قلت لا اعتراض لى البتة على ذلك الثناء والتقدير فهم يستحقونه ولكننى ادعّم حدسى والذى اظنه السبب فى تهجّم الاستاذ الشمرى على « المتنبى » وهو انبهاره الشديد بالآداب الأوروبية حتى جعله يتغاضى عن كل ما انتقده من نقائص ألصقها بالمتنبى ، فالشاعر الكبير « غوتيه » الذى قال عنه فى نفس المقال « انه لم يكن يشعر بأنه من البشر الاّ فى حضور فريدريك شللر » لم يسمّ تعاليه هذا « نرجسية » ولا تكبّرا ولا استعلاءًا مقيتا ، ولا حقداً على البشرية ، بل سماه « جلال ارستقراطية العبقرية » وقال ففى حضرة شللر كان « غوتيه » يتخلىّ عن شىء من جلال ارستقراطية العبقرية، ويغادر برجه العاجى ليعايش الناس » ؟ وحتّى عندما اتهم « غوتيه » بنفس التهم التى كالها للمتنبّى من انه لم يعرف الحبّ ولا الصداقة لأنه كان شريرا نرجسياً

معقدا ؛ كان رفيقاً بشاعره الألماني فقال : « آن « غوتيه » كان جلمودى العاطفة فى الحب والمحبة معا ، وجليدى الشعور فى تعاطفه والناس ، ولم يكن من اولئك العباقرة الذين يحبّون أو يكرهون نظرا لأنّه كان يشعر بأنه فوق الحب والكراهية وفقاً لمقاييس البشر » وإذن فليست النرجسية وخسة النسب ، والأنانية الذميمة ، وعبادة الذات ، كما هو الشأن مع المتنبى بل لأنه « عبقرى » « فوق الحب والكراهية » و« مقاييس البشر » !! فلماذا لم يستحق « المتنبّى » شيئا من الرفق كما استحقـه القمـة الأدبية الرابعـة « غوتيه » والذى هو مهما طال لا يطاول أبا الطيب ؟.

ومن العجيب ـ وهو مما يؤيد ما ذهبت اليه ـ ان طفولة الشاعر « شللر » والتى كانت تميل الى الوحدة واعتزال الناس ثم عيشته فى ظلال الدوق كارل اويجى » « المغرور المتغطرس المصـاب بدوار السلطـة » كما يقـول الاستاذ الشمرى والذى كان يتعالى على « شلر » وامثاله ممن « ينحدرون من عائلات عامة الشعب » فلا يسمح له بتقبيل يده ولكن بتقبيل ذيل معطفه فقط ! كل ذلك ورغم فراره من وطنه وتشرده وفقره وتجواله وتشرّده وعلاقاته الأثيمة مع عديد من النساء الأرامل والمطلقات والعذارى لم يخلق منه « نرجسيا » ولا شريرا حاقداً على البشرية يجتر من اعماقه المظلمة افكار الاحتقار للناس ، ويمتح خيبات آماله بل هو « فيلسوف الحب يدعو الى « توحيد العالم الممزق تحت راية الحق والجمال » !

واذن فهذا هو السبب الكامن وراء تحامله على المتنبى وسوء ظنه به وقد سبق أن قلت فى المقالة الثانية عشرة وأنا أناقش قوله عن المتنبّى « بأن

ضميره كان يتلاطم بأمواج النقمة والحقد والكراهية » وانه كان « خائفاً مخوفاً » لا يحب احدا من الناس » « سمته القوّة المادية العارية » ، إن الصديق الكريم « لم يقرأ المتنبى قراءة كاملة » فأشعاره فى الحب بلغت ذروة العواطف الإنسانية ، ومراثيه لأصدقائه وحنينه الى وطنه وسكنه ونداماه من اروع ما تغنى شاعر حنون فى تاريخ الشعر ؛ ثم تساءلت فيما إذا « كانت كثرة قراءات الاستاذ الفلسفية والأدبية ولا سيا لأرباب الفكر الغربى وملحديهم قد زودته بمفاهيم ومعايير اقل ما أقول عنها اننى لا اعرفها ولا استسيغها » وها أنا اليوم أكاد اقول ـ وبعد أن قرأت ما كتبه عن « شللر » وعصره ـ أن للاستاذ معايير ومقاييس ومفاهيم للأدب والفن والفلسفة تخول له التّحدث عن أدباء وشعراء وفلاسفة أوروبا الصّليبية أو المادية أكثر مما تخول له التحدث عن ادباء وشعراء وفلاسفة العرب والاسلام ؛ ولو كنت منه لما حاولت الكتابة عن « المتنبى » وأمثاله وبنفس المقاييس والمعايير اللغوية والخلقية التى يدرس بها « فولتير » او « غوتيه » أو حتى « طاغور » فالمتنبّى تلميذ « القرآن » لغويًّا وفكريًّا ، ومسلم تربويًّا أوّلا وقبل كل شىء ، وقد ضربت لذلك الأمثال والشواهد .

وليحسن الى القرّاء بما يكتبه عن أدباء وشعراء وفلاسفة الغرب وبما يترجمه بلغته الناصعة ، وذوقه السليم ، من اشعارهم الرائعة ولن يضيره بعد ذلك وقبل ذلك أن لا يعلم عن « المتنبّى » شيئا كما سبق أن قلت غير هيّاب ولا مجمجم .

وليرفق بأدباء وعلماء وعباقرة الشعر والفكر والمعرفة من العرب والمسلمين

قدامى ومحدثين وليعلم ان قمم الأدب العالمي ليست اربع فقط وهو يعنى « غوتيه » و « هوجو » و « دانتى » و « شيكسبير » فهنـاك « المتنبـى » و « المعرى » و « الجاحظ » من الأولين ، وهناك « شوقى » و « الرافعى » من الآخرين وهناك « طاغور » و « اقبال » .

وليعلم انى من حقى أن لا أقرّه على ما قاله فى سعيد الأفغانى الذى لم أقرأ له كثيراً ولا فى الدكتور « طه حسين » الذى أثرى المكتبة العربية بروائعه ، ولا فى الاستاذ العالم الفذ والكاتب العبقرى محمود شاكر صاحب « أباطيل وأسمار » ومؤلف كتاب « المتنبى » الذى هو اروع وابدع وأفضل كتاب عن أبى الطيب ؛ وأما مصطفى صادق الرافعى فلو اجتمع « غوتيه » و « هوجو » و « شكسبير » و « دانتى » وجاء معهم ظهيراً ومددا كلٌّ من « بودلير » و « شيلى » و « شللر » و « بوشكين » لما استطاعوا أن يأتوا بمثل كتابه « اوراق الورد » فى فلسفة الجمال والحب ولا يحسبنّ الصديق الشمّرى أنى أبالغ فى حق من قال سعد زغلول فى وصف بيانه : « بيان كأنّه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » .

ب ـ وأمّا المتنبّى وعصره :

هذا بالنسبة الى ما قاله الاستاذ الشمرى فى مقالته المشار اليها تحت عنوان « أ ـ مقدمة » وأمّا ما جرى به قلمه السيّال تحت عنوان « ب : المتنبى وعصره » ؛ فقد سبق أن وافقته على أن عصر المتنبّى سياسياً كان عصر انحلال وفساد وحركات باطنية وشعـوبية وتسلّـط للمماليك والخـدم والاقطاعيين والظلمة من السلاطين الذين آذاهـم المتنبـى وآذوه وكرههـم

وكرهوه ، إلاّ أني قد ذكّرت الأستاذ بأن كثيرا من العلماء الأدباء والشعراء الأفذاذ والنّبغاء فى كثير من الفنون والمعارف قد حفل بهم ذلك العصر ، وأثروا المكتبة العربية بآثارهم القيمة ، ومؤلفاتهم المفيدة ؛

ولقد لاحظت ان الاستاذ قد اكثر من استعمال المصطلحات الأدبية والنفسية والسيكولوجية الغربية مع ايرادها ايضا بحروفها الانكليزية مثل ما اسماه : « المزاج التصادمى » ، و« الانعكاس التعويضى » و« النرجسية » و « الدفاع الرُّهابى » أو « الفُوبيائى » و « خدن أناه » و « الوصف النفسى » و« النزعة النفسية » و« الحتمية النفسية » و« صفراوية المزاج » و « العذاب النرجسى » و« عصاب القلق » و« ثنائية المشاعر » فى مقالاته الأخيرة كما استعملها من قبل واستعمل غيرها ممّا دعا الاستاذ سعد الزهرانى الى الاستغراب ونشرت ذلك جريدة « المدينة » ٢٦/رمضان /١٤٠٣ هـ . وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من توسّع معارف الاستاذ الغربية وافتتانه بتلك المقاييس والموازين ، وانتهاجه فى تحليلاته الأدبية والتاريخية منهج التخمينات السيكولوجية التى قد لا تتلاءم ولا تنسجم ، مع النفسية العربية والتربية الاسلامية والأخلاق الشرقية ومن الصّعب فى نظرى أن نخرج « المتنبى » أو « سيف الدولة» أو « صلاح الدين » فى ثياب « دانتى » أو « الدمستق » أو « ريتشارد » قلب الأسد ، لا مظهراً ، ولا خلقاً ، ولا اسلوب حياة ، وإن كنا فى هذا العصر قد مُسِخنا ، وأصبحنا ننهج أساليب حياة الغربيين عيشاً ولباسا وعلما وثقافة ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولا أدرى ما قصد الاستاذ بالغموض أو عدم الوضوح عندما قال : « ولا خلاف أن المتنبى كان عربى الروح ، عربىّ العصبيّة ، عربىّ النسب ، وكان عدوا لدوداً للشعوبية ، وإن كان غير واضح الموقف من الحركات الباطنية » ؟ ولعلى أعود الى الموضوع وأفصلّ موقف المتنبّى ؛ لكنى قبل ذلك أودّ أن أوكّد ما زعمته من أنّ الاستاذ الشمّرى العالم الأديب الكاتب الفيلسوف لم يقرأ شعر المتنبّى قراءة رتيبة كاملة ، وأنّه لم يعاشر ديوانه طويلاً و يدرس الأسباب والدوافع المثيرة وراء قصائده حسب تاريخ حياته وسيرته وتطوّره الأدبى والسياسى والاجتماعى والفكرى ، والأبيات التى يستشهد بها فى مقالاته ليؤيّد بها ما توصل إليه من تخميناته السيكولوجية عن نفسية المتنبى وطبيعته ودينه ونسبه واخلاقه وسلوكه تدلّ على انه أمّا قلّد بها خصوم المتنبى الذين سبق أن بيّنت هويّاتهم فى فصل سابق ؛ أو استعجل اقتباسها من ديوانه دونما رويّة وبحث ودراسة ، واكتفى بسردها والاستشهاد بما توحى الى قارئها منفصلة عن قصائدها والجوّ التاريخى والواقعى والسياسى والنفسى الذى تدلّ عليه فى « وحدتها » ومع بقيتها ، وما ذكره شرّاح المتنبّى وكتّاب سيرته عن اسباب وظروف تلك القصائد ، كما يكتفى من يقرؤون « ويلٌ لِلْمصلّين » أو « لا تقربو الصّلاة » دون أن يكملوا الآيات الكريمة .

أنه يمتلخ تلك « الشواهد » من ابيات اخرى تدل على نبله وحلمه وحكمته وإيمانه ووفائه وسلامة فطرته كإنسان يفيض وجدانه بأسمى العواطف ليؤكد ما ذهب اليه من أنه كان قلقاً حاقداً شرساً نرجسياً ، ولو

وقفنا عند بعض « التخمينات السيكولوجية » التى توصّل اليها فى هذا المقال وهو يتحدث عن « المتنبى وعصره » واستعرضنا الشواهد التى امتلخها من قصائدها ليؤكد ويؤيّد تخميناته لرأينا العجب العجاب .

فهو يقول : « لقد كان المتنبّى غريباً فى عصره ، ومغتربا عن مجتمعه وعن بيئته أينما ارتحل وابنما حل ؛ فلم يشعر البتة بأن له اهلاً يشتاق اليهم أو وطناً يحنّ اليه وقد عبّر عن ذلك بكلمات تجاوزت التعبير عن الألم الى تعبيرها عن حزن مسحوق إذ قال :

بما التعلّل لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا نديم ولا كأسٌ ولا سكن

ونسى او تناسى أوّلا أن فى هذا البيت من اللّوعة والحنين ما يدلّ على ان المتنبى كان له أهل يشتاق اليهم ويعزّهم ، ووطن يهفو ويحن اليه خاطب من اجلهم العيد بقوله :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد بما مضى ؟ أم بأمر فيه تجديد ؟
أمّا الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدٌ دونها بيدُ

ثم تجاهل ثانيا ما ورد فى القصيدة من أبيات تدلّ على ثقته بنفسه ، ورزانة صبره فهو لا يبالى بتصرّفات الزمان ، ولا يأبه لتقلّبات أحواله ، ولا يفرح بما هو آت ، ولا يأسى على ما فات ، لمّا قال :

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يردّ عليك الفائت الحزن

فلو ذكر ذلك الاستاذ لطارت تهمته له بالطيش والغرور والنرجسية أدراج الرياح ، ولو أنه قال ان حزنه وتغرّبه وشعوره بذلك كان لأنّ عصره كان

فاسدا وهو يريد اصلاحه ، ومعوجاً وهو يحاول تقويمه ، فهو بعيد الهم معذب ، بعد همّة المصلحين ، وتعذّب ومعاناة المجاهدين ، ولذلك قال :

تغرّب لا مستعظما غير نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقه حكما
ولا سالكاً إلاّ فؤاد عجاجةٍ
ولا واجداً إلاّ لمكرمة طعما
يقولون لى ما أنت فى كلّ بلدة
وما تبتغى ؟ ما ابتغى جلّ أن يسمى

لو ان الاستاذ الشمرى تأمل وانصف وقال هذا لما خانه الصواب ؛ لكنّه أصرّ على تخمينه وانتقل وبسرعة خاطفة الى تقدير سيكولوجى آخر عن المتنبى وقال : « حتى اولئك الذين شعر نحوهم بأصدق عواطف المودّة والحب يتكشفون له عن كونهم غادرين مخادعين نهّاشين للعرض وهو فى ذلك يقول :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللّبنُ
جزاء كلّ قريب منكم مللٌ وحظ كل محبّ منكم ضغن

ونسى أو تناسى أوّلا ـ أن أبا الطيب ما أنشأ هذه القصيدة إلاّ لمّا بلغه وهو بمصر أن قوماً نعوه فى مجلس سيف الدولة بحلب وأنّه قد اراد أن يخبر سيف الدولة ورجال دولته بسبب مفارقته لهم وان ذلك لا عن خيانة أو ملل أو تنكر ، وثانيا أن فى البيتين من التأنيب لسيف الدولة بل ولكلّ من لا يستطيع من يجاوره على صيانة عرضه لأنّه يُشتم فى مجلسه فلا يكترث ،

ولا يدافع عنه ونعمته لا تكون الاّ مشوبة بالمنّ والأذى ، ومن قرب منه وعاشره ملّة ، ومن أحبّه حقد عليه ، وهي خلال سوء لا يتصف بها إلاّ اللئام ، وشاعر مكارم الاخلاق يحذّر النّاس منها ولذلك قال بعد البيتين .

وتغضبــون على من نال رفدكم حتــى يعاقبــه التنغيص والمننُ
فغـادر الهجــر ما بينــي وبينكم يهماَء ؛ تكذب فيها العيـن والأذن
إني اصاحب حلمي وهو بي كرمُ ولا اصاحب حلمي وهو بي جبن
ولا اقيم على مالٍ أذلّ به ولا ألـذّ بمـا عرضي به درنُ
سهـرت بعـد رحيلي وحشــة لكم ثم استمرّ مريري وارعوى الوسن
وإن بليت بودّ مثـل ودّكم فانّنــي بفـراق مثلـه قمنُ

ولـو ان الفيلسـوف الشمـرى قد تأمـلّ هذه الأبيات ـ أو ذكرهـا ـ لا نتسفت تهمته لمن نشيها بالجشع والطمع والتكالب على حبّ المال وكسبه بأية وسيلة ، ولأثبت بأنه كان عزيز النفس يأبى الضيم ، حليماً شجاعـاً وفياً ؛ إذ انه ما استمرّ مريره ، ولا ارعوى وسنُه ، ولا اعتاد ما صار اليه ، وسلا فراقه لسيف الدولة ـ وقد كان يعـزّه ويودّه ويجلّـه ـ الاّ بعـد أن استوحش ، وهجرهُ الرقاد طويلاً ، وذلك ما لا يقوله ، ولا يقع فيه الاّ مثل أبي الطيب شاعر مكارم الأخلاق .

ومن العجب أن لا يلتفت نظر الاستاذ الشمرى الى قول المتنبـي في القصيدة :

يا من نُعيتُ على بعــد بمجلسه كلٌ بمــا زعــم النّاعــون مرتهنُ
كم قد قُتلتُ وكم قدمـت عندكم ثم انتفضـتُ فزال القبـر والكفن

قد كان شاهَدَ دفنى قبل قولهم جماعةٌ ، ثم ماتوا قبل من دفنوا !
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركُهُ تجرى الرياح بما لا تشتهى السّفن

فيتأمل حكمته ، وعميق ايمانه ، وروعة سخريته ، وإرساله لحكمة خالدة تجرى على كل لسان ! ثم أليس فى هذا ما يدلّ على ان قول « الشمّرى » : « أن المتنبّى فى معظم قصائده يبرز وبصورة واضحة المشاعر والأحاسيس التى تثيرها فى نفسه الأشياء و الأحداث اكثر من ابرازه لتلك الأشياء والأحداث » لم يكن قولاً سلياً حصيفاً لأن المتنبى يُبْرِزُ دائما وبصورة واضحة غاية الوضوح دقيقة بالغة الدقة أحاسيسه ومشاعره ، والأشياء والأحداث التى يصفها ، أو يتحدث عنها أو يصورها ، ويفرض على قارئه وسامعه الاهتمام بأحاسيسه ، وبما ينعته ، أو يتناوله بالبيان ، من اشخاص وأماكن ، وفضائل ورذائل ، ومعان وأحداث .

لعلّ قد اطلت فى التعليق على مقالة الاستاذ المشار اليها ، وكان فى امكانى الاكتفاء بما ذكرت ، ولكنّه قد اكثر « التخمينات السيكولوجية » فيها ، واكثر من امتلاخ الأبيات ولابد أن اتحدّث عن قصيدة « وحيد من الخلاّن » واختها « أطاعن خيلا » وثالثتها : « وانما الناس بالملوك » ، والرابعة التى امتلخ منها البيت : « ودهرٌ ناسه » وغيرها .

فإلى الأسبوع القادم إن شاء الله .

بروملي ـ ١٩٨٣/٨/٣٠ م ١٤٠٣/١١/٢٢ هـ .

المتنبي : شاعر مكارم الأخلاق

امتلاخ الأبيات وتصيّد الشواهد طريقة لا يقرّها المنهج العلمى
معرفة اسباب النزول ، والدوافع الموحية . واجب علمى وأدبى
همّ المتنبى كان هم الأبطال والمصلحين
لكى نحكم على الشاعر لا بد أن نعرف سيرته واحداث عصره
كان المتنبّى آية فى الذكاء ، ومن دهاة عصره .
ما كذب ولا زنا ولا لاط .
اكثر منّ ذكر الأنبياء فسموه « المتنبى » .
التحذير من « التعميات »
وأخيراً يناقض « الصديق الفيلسوف » نفسه .

أشرت فى المقال السابق إلى إكثار الاستاذ ذيبان الشمرى من امتلاخ الشواهد الشعرية من قصائد المتنبى ، ونثرها بين السطور كبراهين وأدلة تؤيّد تخميناته « السيكولوجية » عن المتنبى وأخلاقه وسلوكه وأمراضه النفسية ، وقلت إنّه يقتبس أو على الأصح يتصيّد تلك الأبيات ويتخطّفها من قصائدها بطريقة غير مشروعة ولا منطقية ، ولا يقرّها المنهج العلمى ، كمن يحاول أن يقنع الناس بأن الله قد أمرهم بترك الصلاة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة » ويقف دون أن يقرأ : « وانتم سكارى

حتى تعلموا ما تقولون » ! أو يزعم أنه جلّ وعلا لم يقلْ « ويل للسّكارى » بل قال « ويلٌ للمصلين » دون أن يقرأ الآيات : « الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يُراؤون ويمنعون الماعون » كما عمل احد شعراء المجون فقال :

ما قال ربك ويلٌ للألى سكروا بل قال ربّك : ويلٌ للمصلّينا

وأشرتُ الى ان الاستاذ الكريم لا يأبه ، ولا يلتفت إلى ما يسمى عند المفسرين « أسباب النّزول » ونسميه شعريا الدوافع الموحية والمثيرة ، ولا يبالى بالأجواء التاريخية والسياسية والنفسية التى احاطت بالشاعر وهو ينشىء قصيدته ولا يفرّق بين ما قاله المتنبّى صبيًّا وفى عنفوان شبابه وبين ما قاله فى كهولته وبعد أن حنكته التجارب وصقلَتْه الأيام . وضربت المثل بما امتلخه من قصيدة : « بما التعلّل لا أهل ولا وطن » وكان فى امكانى الاكتفاء ؛ فالبعض يدلّ على الباقى ؛ غير أنّى قد وعدت القراء بأنى سأقف مع بعض تلك « الامتلاخات » وأودّ أيضا أن احذّر من هذا النوع من الدراسات ووخامة انتهاجها ، وفساد نتائجها .

فعندما وقف الاستاذ الشمرى عند قصيدة المتنبى فى سيف الدولة :

عواذل ذات الخال فىّ حواسدُ وإن ضجيج الخود منّى لماجدُ

تصوره قزماً ضعيفاً خائراً كئيباً لا همّ له الاّ ما يسدّ به رمقه أو يبل صداه أو كسب مالٍ بأيّةِ وسيلة من الوسائل مهما كانت خسيسة ، وتوصل الى تخمين « سيكولوجى » فقال : « ولم يكن له حتّى الصديق أو الرفيق الذى يبثه شكواه ، أو يتعاون وإيّاه ، على احداث الدهر وصروفه فهو

متوحدٌ فى دنياه ، وحيد فى نضاله ؛ فيقول بلهجة أسفٍ وتأوّهٍ وحزن » :

وحيد من الخـــلاّن فى كلّ بلدةٍ . إذا اعظـم المطلــوبُ قلّ المساعدُ

ونسى الاستاذ او تناسى أن همّ المتنبّى كان همّ الدعـاة والمصلحـين والمظلومين ، وانه كان يريد أن يخلّص العرب والمسلمين مما كانوا يعانونه من ظلم وفساد وهوان ، وكان يطمح فى أن ترتفع راية الاسلام على راية الشرك والصليبيين وانه قال قصيدته الرائعة التى امتلخ منها هذا البيت الرائع يذكر هجوم الشتاء الذى عاق سيف الدولة عن غزو « خرشنة » ويصف همته وشجاعته وإقدامه ، وخوضه المعارك ، ويألّم من قلة الأنصار والمجاهدين فى سبيل الله ، ويرثى للمسلمين من تخاذل الهمم وضعف الإيمان ، فقال يصوّر ما يكابده مع سيف الدولة ، ويتطلّعان إليه من أمور « جلّ أن تسمى » :

اهـــم بّشىء واللّيالى كأنها تطاردنـــى عن كونـــه وأطاردُ
وحيدٌ من الخـــلاّن فى كلّ بلدةٍ إذا عظـم المطلــوبُ قلّ المساعدُ

وكأنه بذلك يعبّر عن لسان حال كلّ ذى قضية شريفة يجاهد من أجلها ، ولو قام الزعيم المجاهد السيّد ياسر عرفات فى حفل حاشد اليوم وأنشد هذين البيتين لما ابعد عن واقعه المرير ، وكان سيّد الخطباء ؛ فكيف به لو اكمل الشعر وتلا الأبيات التى تلى البيتين وهى تصوّر الفارس المقـدام الشجاع القلب الحىّ الوجدان ، الذى وإن كان لم يجد العون والنصير فله العزاء بفرسه وسيفه وثقته بالله .

وتسعدنـــى فى غمـــرة بعـــد غمرةٍ سبـــوحٌ لها منهـــا عليهـــا شواهدُ
تثنّـــى على قدر الطّعـــان كأنّما مفاصلهـــا تحـــت الرمـــاح مراودُ

محرّمـة اكفـالُ خيلى على القنا ، محلّلـةٌ لبّاتهـا والقلائدُ
وأورد نفسى والمهنّـد فى يدى موارد لا يصـدرن من لا يجالدُ
ولـكن إذا لم يحمـل القلـب كفّه على حالةٍ ، لم يحمل الكفّ ساعدُ
خليليّ إنـى لا أرى غـير شاعر فلِمْ منهم الدعوى ومنّى القصائدُ
فلا تعجبـا ان السيوف كثيرة ولـكن سيف الدولـة اليوم واحدُ

فهذه هى الصورة الفذّة الحقيقية الأصلية لأبى الطيب المتنبّى ؛ لا الصورة « المتأقزمة » لمشرّد حزين يائس يتأوه !! ولا ادرى لماذا لم يقف عند قوله :

بذا قضـتِ الأيام ما بـين أهلها مصائـب قوم عنـد قوم فوائدُ

وتناسى قوله :

وكلّ يرى طرق الشجاعة والندى ولـكن طبـع النفس للنفس قائدُ

وقوله :

فان قليل الحـبّ بالعقـل صالحٌ ، وإن كثـير الحـبّ بالجهـل فاسدُ

وكلها أبيات حكمة لا تخطر الاّ على بال ناقد حكيم وسياسى محنك ، كبير الهمة ، ثبت العزيمة ، خبير بتقلبات الزمان ؟ ألأنّ الصديق الشمرى يضنّ بهذه الصفات على المتنبى المسلم المجاهد الذى لا يجد وصفاً ينعت به أميره فى هذه القصيدة أفضل من قوله :

فأنـت حسـام الملك والله ضاربُ وأنـت لواء الـدين والله عاقدُ

افيقول مثل هذا الشعر ملحد حاقد نرجسى أيها الأديب الكريم ؟ .

والقصيدة الثانية التى امتلخ منها الاستاذ مطلعها المشهور :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهرُ
وحيداً ، وما قولى كذا ومعى الصبر ؟

معلقاً عليه بتصويره للمتنبى الحائر البائر الحزين المشرّد بقوله : « وليت البشر هم وحدهم الذين يقاتلونه ويعترضون سبيله الى غايته بل أن الدهر وبكلّ قوارعه يتعاون والعصر وأهله على محاربة المتنبى » ، ولا شك أن الاستاذ قد فطن الى أن المتنبى قد استنكر نفسه عندما أحس بأن السامع أو القارئ قد يستوحى من قوله « وحيدا » الاستغاثة والشكوى ، إذ لا ناصر له ، فرجع عن هذا الرأى ، وقمعه فى ذهنه وفى ذهن السامع ، وكأنه يؤنب نفسه مستنكرا فقال : ولماذا اقول انّى وحيد والصبرُ معى ؟ ولكن الاستاذ تحاشى أن يشير اليه حرصاً على صورة التفاهة التى يريد أن يرسمها للمتنبى ويعمقها فى ذهن قارئه .

ونحن نعلم أن التوفيق لن يحالف أى باحث يكتب عن شاعر ما ما لم يكن الباحث عالماً عارفاً بسيرة الشاعر ، مطلعا على احداث عصره .. مستوعبا للظروف التى اكتنفت حياته وتأثرت بها وأثرت فيها ، اجتماعيا ، وثقافيا وسياسيّا ، دارساً وممحّصاً لكل التطورات الفنية والنفسية والأدبية والفكرية التى نمتْ مع الشاعر ورافقت شاعريته ، ولا سيما اذا كان هذا المدروس مثل ابى الطّيب المتنبى وكانت له مثل ظروفه وبيئته وعصره ، بل وفطرته ؛ وكلّنا يعرف أنه كان « آية فى الذكاء والفطنة » ، وانّه قال الشعر صبيّا ، وترعرع احساسه المرهف على تمجيد القوة والعزّة والأباء ، وكُره الضعف والخور والذلّة والمسكنة وكان كما قال من عاشره من المؤرّخين

« من دهاة عصره » ، وقد ولد سنة ٣٠٣ هـ . حين وهنت دولة العباسيين ، وتسلّط عليها الاعاجم وانقسمت الى دويلات يأكل بعضها بعضا وكانت أخلاق الأمة قد فسدت ، واضطربت الموازين والقيم العقلية والعلمية والاجتماعية ، ولا شك ان المتنبى الكريم النفس ، المرهف الحسّ ، الطالب فى مدرسة « الأشراف » بالكوفة ، قد ادرك كل ذلك وبمشاعره التى نمّتها جدته الصّالحة ، فازداد تعلّقا بمكارم الأخلاق ،وابتعادا عن سفسافها ، وكدّ وجدّ فى طلب العلم ، واجتهد يهيىء من نفسه الثائر الآمر بالمعروف ، ولم يخرج من « المكتب الطّالبى » إلاّ سنة ٣١٧ هـ . الى البادية ليسمع اللغة العربية صافية من افواه من بقيت حيّة فى السنتهم ، وانحدر الى بغداد سنة ٣٢٠ هـ . فانفعل بما رآه من فساد وتسلط الموالى على الأمراء والخلفاء ، وجاشت دوافع الثورة فى صدره فخرج يتنقل بين القبائل ناقدا للأوضاع واظهر نسبه « الطّالبى » فكان اعتقاله سنة ٣٢١ هـ . وشعره فى هذه الفترة كله فخرٌ وحماس وثورة وتوعّد وسخرية بسلاطين الموالى والخدم والتافهين والتنابلة .

وبعد خروجه من السجن سنة ٣٢٣ هـ . انصرف الى مجالس العلم ومعاهده مقبلا على شيوخ الأدب والدين والفلسفة ، وازداد يقيناً ووثوقاً بربه ، وكان مثلاً للتورّع متعصيًّا على الشهوات ، « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ! ولا قارف ما يشينه ، وخالف بسيرته وسلوكه شعراء عصره ندماء اللهو والمجون والشراب والخلاعة ، وانصرف مخلصاً الى العلم والنظر ، وكان يكثر من ذكر الأنبياء فى شعره ويشبّه نفسه بهم ، ولذلك عدّه الشعراء

غريبا عنهم ، بل ومن هنا لقّبوه « بالمتنبّى » فى نظر النقّاد والعارفين .

والفترة الثانية من فترات حياة المتنبى هى التى اعقبت خروجه مرة اخرى من الكوفة سنة ٣٢٦ هـ . يتنقل فى بلاد الشام ما بين حلب وانطاكية وفلسطين ولبنان لا يترك سرج فرسه إلاّ ليقرأ كتابا ، أو لينظم شعراً ، يعادى ويخاصم ويصادق ويدعو الى الاصلاح ، .. وتوفّيت جدته وكانت أحبّ الخلق إليه فبكاها بمرارة سنة ٣٣٥ هـ . وفى سنة ٣٣٦ هـ . كان اتصاله بأبى العشائر ؛ الذى قدّمه الى سيف الدولة الحمدانى حين بدأ شوطاً جديداً ، وفترة اخرى من حياته الصاخبة .

وقد كان شعره خلال هذه الفترة الرهيبة التى استمرت عشر سنوات شعر الثائر الغاضب يرعد به ويتوّعد ، ويتفجّر كالبراكين ، ويتطاير كالشرر ، وقد انضجته التجارب والمحن ، وقصيدته التى قالها فى « على بن احمد الأنطاكى » والتى امتلخ الاستاذ الشمرى مطلعها :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيدا ؛ وما قولى كذا ومعى الصبر ؟

كانت تلك الظروف هى دوافعها ، وأسبابها ، لذلك قال فيها :

واشجع منّى كلّ يوم سلامتى
وما ثبتت إلاّ وفى نفسها أمر

تمرّستُ بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعرُ ؟

وأقدمت إقدام الأتي كأن لى

سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
ذرِ النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترقٌ جاران دارهما العمرُ
ولا تحسبنّ المجد زقّا وقينة
فما المجد إلاّ السيف والفتكة البكرُ
وتضريب اعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السّود والعسكر المجرُ
وتركك في الدنيا دويًّا ، كأنّما
تداول سمع المرءِ أنمله العشرُ
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقصٍ
على هبةٍ ، فالفضل فيمن له الشكر
ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقرٍ فالّذى فعل الفقرُ

وهى ابيات لا تبرز « المتنبى » فى هيكل الذلة واليأس ، والحزين المحطّم ، بل فى صورة الشجاع المقدام الواثق بأن الإرادة الالهية لم تبق سلامته وتحفظها من الهلاك إلاّ لأمر عظيم سيظهر على يده ، وفى درع البطل المجرّب المتمرس بالآفات الذى لا يهاب ؛ كما أنها تدلّ على انه مؤمن بالموت غير مغرورٍ بحطام الدنيا ؛ يحثّ الانسان على أن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وان يجعل جُلّ همه فيها كسب المجد ، والشغف بمعالى الأمور ، ولا يركن الى الترف ، ويظن أن لذة الحياة وسعادتها فى اللّهو

وشرب الخمر ، وسماع القيان ، وإنّما المجد والشرف فى الجهاد ، والبطش بالاعداء ، ومحاربة الجبّارين والمعتدين ، وأن يخلّف المرء فى دنياه ذكرى خالدة تدوّى أصداؤها فى سمع الزمان . وهى صورة تختلف مع ما توهمتْه تخمينات الصديق الشمّرى السيكولوجية . وهل هناك اروع وأفخم من صورة الأبي الشهم المترفّع عن أخذ هبة النّاقص عقلا وعلماً ومحتداً واخلاقاً ، المنزّه لأدبه أن يسف ويتسفّل بمدح أمثاله ؟ وهل هناك تنفير من البخل ، وسخرية من البخيل الذى يفنى زمانه فى جمع المال مخافة الفقر .. أبشع مما يصوّره بيته الحكيم .

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر ، فالّذى صنع الفقرُ

وفى القصيدة ما يدل على بعد همته ، وسمو مأربه ، وطموحاته الاصلاحية :

عليّ لأهل الجور كلّ طمرة
عليها غلامٌ ملء حيزومه ، غِمرُ
يدير بأطراف الرماح عليهم
كؤوسِ المنايا حيث لا تشتهى الخمر
وكم من جبال جبت تشهد أننى الجـ
ـبال ، وبحرٍ شاهد اننى البحر
وجنبنى قرب السلاطين مقتُها
وما يقتضينى من جماجمها النسر !
وانّى رأيت الغرّ أحسن منظراً

وأهــون من مرأى صغــيرٍ به كبرُ

وإذا تأملت أيها الاستاذ هذه الأبيات وتدبرت البيت الأخير تَبَيْنْت لك حقيقة « المتنبى » وعرفت ما كان ينطوى عليه من آمال وطموحات فى تلك الفترة على أنّ من اصدق الشعر الذى يصور نفسيته وفلسفته وآماله وآلامه خلالها قصيدته التى قالها عندما فارق بدر بن عمار بعد محاولة « إبـن كروّس » النّكاية به سنة ٣٣٣ هـ . ونزوله بجوار صديقه علي بن احمد المرّى والتى يقول فيها :

لا افتخــارٌ إلاّ لمن لا يضام مدركٌ أو محــارب لا ينامُ
ليس عزمــاً ما مرّض المرء فيه ليس همّاً ما عاق عنــه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاءٌ تضــوى به الأجسام
ذلّ من يغبــط الــذليل بعيشٍ ربّ عيشٍ اخفّ منــه الحمامُ
كلّ حلــم أتــى بغــير اقتدارٍ حجّــةٌ لاجــىء اليهــا اللّئام
من يهــن يسهــل الهــوان عليه ما لجــرحٍ بميت إيلام !
ضاق ذرعــاً بأن أضيق به ذرعا زمانى واستكرمتنـى الكرامُ
واقفــاً تحــت أخمصى قدر نفسى واقفــاً تحــت أخمصَي الأنام
أقــراراً ألــذّ فوق شرارٍ !! ومرامــاً أبغــى وظلمــى يرامُ !!
دون أن يشرق الحجــاز ونجدٌ والعراقــان بالقنــا ، والشام

وقد علق استاذنا الناقد العالم الشاعر محمود شاكر على هذه الأبيات فقال : « فهذه أبيات قد اجتمعت فيها نفسُ المتنبى كلّها ، بحكمتهـا وتجربتها وعلومها ، وقوّتها ورجولتها وثورتها وانتفاضها وزلازلها ، وبآمالها

وأحقادها ووعيدها وانذارها وبصدقها وعواطفها المتسعّرة التى يأكل بعضها بعضا ، وفيها « توقيع المتنبّى » على كل بيت ، فلا تحسبنّ شاعرا يستطيع أن يأتى بمثلها ، أو يسرق معانيها ، إلاّ أن يستطيع أن يسرق نفس أبى الطّيب وقلبه جملة من بين جنبيه ، أو إلاّ أن يكون قد مُهّد له فى نفسه وفى صدقه وفى آلامه وغير ذلك ما تيسرّ لأبى الطيب » . ولا اظن أنى ـ بعد هذا ـ فى حاجة الى تفنيد بقيّة تخمينات وتعليقات الاستاذ ذيبان التى تحاول تشويه صورة المتنبى وفلسفته ومواقفه الانسانية ، ولا التحذير من « تعمياته » التى يلجأ إليها حين « يمتلخ » بعض ابياته من قصائدها فإذا وجد بيتاً يحقّر به الأشرار والفجّار وهم يتعاقبون فى كلّ زمان ومكان قال عنه : « اضف الى ذلك أن أهل عصره لا يرتفعون حتى الى المستوى البشرى المألوف ، فهم دون مستوى البشر ، ولا يجوز تصنيفهم بشرا وبهذا يقول :

حولى بكلّ مكان منهم خِلَقٌ تخطى إذا جِئتَ فى استفهامها بمن

متناسياً الفترة وظروفها التى دفعته إلى انشاء هذه القصيدة وقد قالها بعد ٣٣٤ هـ . بأنطاكية ، وتجاهل ايضا مطلعها :

أفاضل النّاس اغراض لدا الزّمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطنِ
وإنّما نحن فى جيل سواسية
شرّ على الحرّ من سقم على بدنِ

وقال فيها :

لا اقتـــري بلـــداً إلاّ على غرر   ولا أمـرّ بخلـــق غـــير مضطغن
ولا أعـــاشر من أملاكهـــم ملكاً   إلاّ أحقّ بضرب الـرأس من وثن
إنّـــى لأعذرهـــم ممّـــا أعنّفهم   حتى اعنّف نفسى فيهـم ، وأني ،
فقر الجهول بلا عقـل الى أدب ،   فقـــر الحمار بلا رأس الى رسنِ

فهؤلاء من اعدائه ومن أشرار وفجار عصره هم الذين عناهم وليس كل أبناء عصره وإلاّ فكيف تقبّل القـاضى الخصيبـى اطـراءه له وقولـه فى القصيدة :

قاض إذا التبس الأمـران عنّ له   رأى يخلّص بـــين الماء واللبن
القائل الصدق فيه ما يضرّ به ،   والواحد الحالتـين : السرّ والعلنِ

وكذلك شأن الصديق الشمرى إذا وجد بيتاً للمتنبّى يندّد بأهل الجور والطغاة من السلاطين والمماليك الأدعياء ؛ تجاهل انه قد أشـاد صادقـاً بالأخيار من الحكام ومدح سيف الدولة وأبا العشائر وفاتكاً وابن العميد مخلصاً ، وزعم أنّه كان يكره كل حكام عصره قائـلاً : « وحتّـى حكّام عصره كانوا بلا أدب وحسب ولا يصونون عهداً ولا يرعون ذمة ، وهم عجم يتحكمون بالعرب ويسومونهم أشد أنواع الخسف الأمر الذى يغلق كل منفذ للأمل بالنجاح أو الفلاح ونسمعه يقول :

وانّمـــا النـــاس بالملـــوك وما   تفلـــح عربٌ ملوكهـــا عجمُ
لا أدب عندهـــم ولا حسبٌ ،   ولا عهـــودٌ لهـــم ولا ذمم

ونسى أن المتنبى قد قال هذه القصيدة فى اوائل فترته الرهيبة التـى نتحدث عنهـا ، عندمـا قصـد عليّ بن ابـراهيم التنوخـى حوالى سنـة

٣٢٦ هـ . وهو فى الثالثة والعشرين وانه انّما قصد الأمراء الموالى من الترك والديلم ممن كانوا أول أمرهم بمنزلة العبيد أما ممدوحه فقد قال فيه :

من طلب المجد فليكن كعلىّ يهب الألف وهو يبتسم
ويعرف الأمر قبل موقعه ؛ فما له بعد فعله ندم ..!

الى غير ذلك من التخمينات التى ما يكاد يفرغ منها وينتهى من « عمومياتها » حتى يناقض نفسه فيقرّ كل اقوال المتنبّى التى زعم أنّه إنّما تفوّه بها لأنه كان « نرجسياً » « ذئباً بشرياً » « حاقداً على الإنسانية » يدين « بفلسفة القوة والبطش والاغتصاب » « يغلّف طموحه بمكر الثعلب » و « تمتح خيبات آماله المرارة المسمومة من بحار مظلمة تتلاطم امواجها بالنقمة والحقد على البشرية والبشر » . نعم ينسى الاستاذ ذيبان كل اقواله السابقة ويقول :

« والحق أن المتنبّى قد ابدع غاية الابداع فى وصف عصره وهو لم يتجنّ على ذلك العصر ، ولم يتجنّ على أهليه ، ولقد عرض علينا صورة واضحة غاية الوضوح لعصره ، واستعرض أوضاعه وظروفه وناسه باسلوب بارع لكنّه صادق كل الصدق ، فى جميع ما قاله ، وفى جميع ما اتهم به ذلك العصر » .

فهل فى هذا شىء من التناقض أيها الصديق الفيلسوف ؟ وأمّا ما قاله الاستاذ ذيبان عن « الأمويين » وأن « عصر المتنبّى » بشقّيه التركى والفارسى كان نتيجة حتميّة لانحراف الأمويين عن الجادّة ، وإهمالهم للجامعة الاسلامية الواضحة السبل والمعالم » وانهم فتّتوا العرب واعادوهم

الى عشائر وقبائل بعد أن كان الاسلام قد صهر تلك العشائر في بوتقة الشعب وجعل من الشعب العربي نواة الأمة الاسلامية أى نواة أول أممية في التاريخ بموجب المفهوم الحديث . الخ .. فقد كان صادق النظرة والحكم ، لأن « الأمويين » كما قال ايضاً كانوا دائماً يشجعون على كلّ انقسام أو تذرير ، ولكن « العباسيين » قد سلكوا نفس السبيل وأتوا من المنكرات أضعاف ما اقترفه اسلافهم « الأمويّين » وهم الذين حاربوا العنصر العربى بالموالى والعبيد والشعوبيين .

ولقد عاد الاستاذ الشمرى في مقاله المنشور في « الأربعاء » العدد الخامس والعشرون ١٤٠٣/١٠/١٧ هـ . تحت عنوان « لقد قفزتْ بالمتنبّى الاحداث من الصّبا الى الكهولة » فكرّر نفس التهم التى كالها له في مقالاته السابقة متّبعا نفس الأسلوب « التخمين السيكولوجى » إن صح التعبير ؛ ولكنه افرط في القسوة عليه حين قال : « ان نظرة المتنبى الى كل شىء وكلّ إنسان ما عدا قلّة القلّة من الأشياء والبشر تتلظّى بعدوانية شرسة ، وحقد اعمى ، اغرقاه في مستنقع الداروينية حيث تسود شريعة الغاب ، وحيث يسيطر النّاب والمخلب ، وحيث لا رحمة ولا راحم ولا مرحوم » وبالرغم من اقتناعى بأنى قد فرغت من تفنيد هذه المزاعم والدعاوى ، بما لا يقبل مكابرة ولا يخفى على البصير المنصف ، إلاّ انى سأقف مع هذه الدعوى ومع غيرها مما ورد في المقال المشار اليه في بحث مستقل . فإلى الاربعاء القادم إن شاء الله .

بروملى ١٩٨٣/٩/٣ م ـ ١٤٠٣/١١/٢٦ هـ .

المتنبي : شاعر مكارم الأخلاق

لم يكن المتنبى هندياً ولا مسيحياً .. يا صديقى الشمرى !
كانت نظرة المتنبى الى الأشياء والناس نظرة إنسان سليم الفطرة ونظرة الفيلسوف الحكيم .
هل كان بين المتنبى وقبيلة الشمرى دحول وثارات ؟
سجن المتنبى وتناقض الفيلسوف الشمرى !!
المصائب تهذب النجباء .
شعر المتنبى اصدق مصادر سيرته .
وبيئة المتنبّى كانت بيئة ورع وتقشّف وفروسية .
وكان يخاف ويحزن مثل سائر البشر .
معايير الغرب النقدية غير معايير المسلمين .

أ) مدخل :

لم يُبْدِعْ ولم يَبْتَدِعْ الاستاذ ذيبان الشمّرى جديداً فى مقالته التى جعل عنوانها : « لقد قفزت بالمتنبّى الأحداث من الصّبا الى الكهولة » ؛ وإن كان قد افرط فى القسوة عليه » كما أشرت فى خاتمة حديث « الأربعاء » الماضى . لأنه قد كرّر مؤكدا دعاواه « السيكولوجية » يكيلها للمتنبّى وكأنّنا لم نتحاور ؛ وكأنّه لم يقرأ دفاعى عنه أو مناقشتى لتلك الدعاوى

والافتراضات مستعملاً كلّ ما فى حوزته من اصطلاحات « سيكولوجية » ، واضعاً شاعر مكارم الأخلاق فى « مشرحة التخمينات » كمصاب بأخطر الأمراض النفسية والعقلية يُعمل فيها تظنّياته وتخرّصاته وأوهامه دون رحمة ولا اشفاق .

فمعظم « تفاعلات » المتنبّى « مع مجتمعه تفاعلات سلبيّة » ، « تنبع من الرفض ، وتنتهى الى الاستنكار والانكار » ! ولذلك ـ كما يقول الاستاذ الشمرى ـ « لم ينسحب الى النّرفانا أو الّلا شيئية الهندية .. ولا الى التّنسك فى صومعةٍ مسيحية » !! هكذا ناسياً ان اسمه احمد بن الحسين وليس « غاندى » او « دانتى » وانه كان حنيفا مسلما ، وانه « لم يفرض على نفسه أن يكون رهين محبس أو محبسين كأبى العلاء المعرّى ! هكذا وتجاهل العجز الجسمانى والفوارق الحسية والمعنوية بين الرجلين ! بل وقال ان المتنبّى عجز عن أن يظل « رهين محابس حواس عاطلة فلا ترى ولا تسمع ولا تشمّ ولا تذوق ولا تلمس حسب تعبيره ! ولا ادرى هل كان يريد من المتنبى أن لا يتألم ولا يثور ، ولا يكره ولا يحبّ ، ولا يظن ولا يعلم ، ولا يسالم ولا يخاصم ، ولا يشك ولا يستيقن ، ولا يخاف ولا يحزن !! وما هو الانسان ؟ ! أيّ إنسان .. وفى كلّ زمان ومكان بدون كل ذلك أو بعض ذلك ؟!!

ب) علاقاته بعصره :

هذا ما قاله الصديق الشمرّى وتناوله فى « مدخله » أما ما قاله عن المتنبى تحت عنوان « علاقاته بعصره » فقد جعله مرضاً بما سماه

CHOLERIC TEMPERMENT أى أنه حسب تفسيره وترجمته وهو الحجة فى لغة القوم .. « عنيف فى حدّته ، شرس فى غضبه ، يتذبذب بين الشتم حيناً والهجوم أحيانا ، والشكوى من الزمان دائما بأسلوب غير عفيف » ! وقد فنّدتُ كلّ ذلك فى فصل سابق [المقالة رقم ٩] وفى خلال بعض المقالات ولا أدرى هل قرأه الأستاذ أم لا ؟ !

ثم كرّر القول ـ وإن بابتداع أمراض جديدة ـ بأن المتنبى أراد أن يكون ما سمّاه « نقيضة الطريحة » ANTITHESIS والجميعة SYNTHESIS معاً ، !! ولا أود أن أناقشه فيما لا أتقنه وفيما هو أدرى به من لغة القوم ومصطلحات « الديالكتك الهيغلى » ، فينفعل الصديق ، ويغضب علي ، ويسخر من مفهوماتى لها ، كما فعل عندما تعرضت للكلام عن « النّرْسَسِيّة » ، ثم يضطر إلى الاعتذار كما فعل مشكورا .. ولكننى أضيف الى ما سبق أن أدليت به فى الفصول السابقة .. إنه لا هذا الأمر ولا غيره قد جعل المتنبى « يستعدي على الناس » ولا هو الذى قد جعل « الناس يستعدون عليه » ! ، وان نظرة المتنبّى إلى كل شىء وكل إنسان لم تكن كما قال : « تتلظى بعدْوانية شرسة ، وحقد أعمى ، أغرقاه فى مستنقع الداروينية » !! بل كانت نظرة إنسان سليم الفطرة ، عزيز النفس ، مرهف الحس ، لطيف المعشر « يصلح لمنادمة الملوك » كما قال أحد خصومه ، بل نظرة العالم الفيلسوف الحكيم ، العارف بالأسباب والمسبّبات ، الذى يضع الأمور فى مواضعها ، وأن سبب اختلافه مع بعض أو معظم رجال عصره هو عبقريته المترفعة عن السفاسف والذلة والهوان ، وإيمانه القوى بالله وبحقه المضطهد

المجحود ، ومباينته لشعراء وأمراء زمنه فى سلوكه النزيه ، وابتعاده عن الفواحش وآثام المجون والخمر ، وطموحه فى إصلاح المجتمع العربى المسلم ، ومحاربته للظلم والظالمين وكل ذلك قد جعله غريبا عن بنى زمنه فنابذهم ونابذوه ، وآذاهم وآذوه والله سبحانه .. قد وصف المؤمنين بقوله : « أشدّاء على الكفّار ، رحماء بينهم ، وقد أشبعت الموضوع بحثاً ، وضربت الأمثال والشواهد من شعر المتنبّى ، ومن أراد المزيد فعليه بالرجوع الى ما كتبه أستاذنا محمود شاكر فى كتابه « المتنبّى » .

وأما المرض الآخر الذى سمّاه NARCISSISTIC MORTIFICATION أو « هول العذاب النرجسى » والذى زعم أنه « كان ينهش المتنبى كبداً ووجداناً » « الأمر الذى كان يفجّر عذابه حقداً وغضباً وشراسة » والناتج عن « الفقد الفجائى للسيطرة على الواقع الخارجى أو الداخلى » وما ينتج عن ذلك للمصاب به « من فزع ورعب » يشعر معه « بالضعف والعجز عن إفراغ طاقة التدمير النرجسية » وان « المتنبى كان حتى آخر يوم من عمره عاجزاً كل العجز عن الكبح من جماح عواطفه» وان « مذهب القوّة الذى آمن به كان لا يزيد عن كونه حيلة دفاعية يغطى به ضعفه ومعاناته الأليمة ، ووسيلة يريد بها استعادة توازنه » .. فكلّ ذلك تهمٌ غريبة لا يمكن أن يقولها من قرأ تاريخ المتنبى وشعره وفهم محيطه الذى نشأ فيه وبيئة الجد والورع والعلم والفتوة التى عاشها ، وهى تقوّلات توحى أن صاحبها يحمل ضغناً دخيلاً ، وكراهية متأصلة فى نفسه للمتنبّى ، وتنمّ عن حقدٍ دفين وعداوة لأبى الطّيب ؟! ولا أدرى هل كان بين « المتنبى » وقبيلة « شمّر »

ثارات وغارات ، أو انّه قد خاصم أو هجا أناساً منهم فجاء احد احفادهم يريد أن ينتقم لهم بعد ألف عام وخمسين عاماً ؛ فيعمل على تشويه صورة المتنبى ويشتمه هذا الشتم المزرى كما حاول أن يفعل من قبـل بعضُ المؤرخين من « التنوخيينّ » والعلويّين فى « الـلاذقية » و « المهلبيّين » فى العراق وغيرهم من خصوم المتنبى ؟! أم أن هناك أسباب أخرى دفعـت الاستاذ ذيبان الشمرى الى كتابة ما كتب وكأنّه يتحدّث عن احد شعراء الغرب المجانين ، الشواذ ديناً وسلوكاً ، واخلاقاً ، وليس عن أبى الطيب الفارس العالم العبقرّى الحليم القائل :

الليل والخيل والبيداء تعرفنى والسّيف والرمح والقرطاس والقلم

وقد سبق أن فندت وزيفت مثل هذه التهم ؛ فليرجع الاستاذ اليها ان كان يريد معرفة الصواب .

جـ) عُصاب القلق :

وتحت هذا العنوان اغرق « الفيلسوف الشمـرى » فى الاعـراب عن كراهيته المتأصلة ، وحقده الدفين ، وضغنه الذى لا ادرى له سببا حتى الآن ، وتحامله العنيف على « المتنبى » ؛ ويسرف فى تحقيره والتنديد به ، وشتمه فيرميه بمرض آخر يسميه « عصاب القلق neurosis فيقول : لم يكن المتنبى فريسة فقط للعذاب النرجسى بل كان أيضا فريسة لمرض نفسانى آخر طبع علاقاته بعصره بطابعه المميّز ، وحدّد سلوكه ومعاصر يه وعلاقاته بهم واعنى بذلك المرض الآخر ما يُعْرَفُ فى علم النفس باسم « عصاب القلق neurosis وان السّمة الرئيسيّة لهذا المرض هى كما يقول علماء النفس :

القلق والشعور بالخوف وتوقّع الشر حتى فى الظروف العادية ، ويقول العلماء ان هذا المرض يلمّ عادة بالشخصيّة القلقة المتشكّكة المتوتّرة والمتوجسة خيفة والمتشائمة » الخ .. وهذا كلام لا يقال الاّ فى أهبل أو مجنون وليس فى شخص « ملأ الدنيا وشغل الناس » ولا يزال ،! ويا ليت الاستاذ الشمرى وقف عند هذه التخمينات والتظنيات ولم يحاول أن يدلّل عليها ، ولكن يظهر أن التخمين باصابة المتنبى بمرض « الاضطراب النفسى والعقلى قد راق له وان من السهل عليه أن يبرهن بحادثة مرت على المتنبى ولم ينكر احد حدوثها ، بل وقد ذكرها المتنبّى فى شعره وهى حادثة سجنه وتعذيبه لمّا أظهر نسبه الى علي عليه السلام ودعا الى الثورة كما بيّنا فقال : « ومع أنّنى اعتقد بأن المتنبى كان لديه من حيث الجبلّة استعداد للاصابة بعُصاب القلق غير أننى اعتقد أن هذا المرض النفسانى قد تجذّر فى نفسه وتأصّل نتيجة للزجّ به فى غياهب السجن حينما ادعى النبوّة وهو لمّا يزل فى التاسعة عشرة من عمره ومن المسلم به - [هكذا] - ان مثل تلك النّائبة إذا نزلت بفتى يافع لم تكتمل شخصيته بعد فإنها ترافقه بالمخاوف وتوجس الشرّ طوال حياته ، ولا سيا إذا كان ذا طبيعة مرهفة الحسّ كطبيعة المتنبى » .

وهنا وقع الاستاذ « السيكولوجى » فى خطأ كبير بل فى سلسلة أخطاء جعلته يضطرب ويناقض نفسه بنفسه : فالمتنبى « النرجسى » الحقود الشرس الطبع المصاب بمرض « عُصاب القلق » غريزة وجِبلّةً وفطرة ، قد تعرّض للسجن يافعاً لم تكتمل شخصيّته فتجذر وتأصّل ذلك المرض فى

نفسه ، ومن يُسجن وهو يافع ـ يظلّ فريسة المخاوف وتوجّس الشرّ طوال حياته ؛ وهو قد قال عنه بأنه مصاب بأمراض العنف والحدة والشتم والهجوم والاستعداء على البشر ، والايمان بالقوة الشرسة وشريعة الغاب .. وهي صفات متناقضة لا تجتمع فى إنسان وليس ذلك فحسب ، بل كأنّ الاستاذ قد ادرك بأنه حين نعت المتنبى بصفات الخوف والتوجس والرعب والفزع والعجز « عن افراغ طاقة التدمير ، قد خالف المعروف المتواتر عن المتنبى من انه كان شجاعاً فارساً يشارك فى القتال والمعارك مع سيف الدولة ، ويدافع عن نفسه دفاع المقدام الذى لا يهاب ، فأراد أن يتلافى خطأه ويستدرك ما وقع فيه ، فناقض اقواله السابقة بقوله : « ولكن ينبغى الاّ نفهم مما ورد اعلاه ان « عُصاب القلق » الذى ابتلى به «بو الطيب قد ضَرَبَهُ بالجبْنِ والهلع .. وذلك لأن فطرته المتعاظمة [هكذا] لم تكن تسمح له ساعات الشدّة إلاّ بالشجاعة والصّبر ، كما أن سعيه الدؤوب الى الزعامة والسلطة ، كان يستوجبه اغتنام كلّ فرصه ليبرهن على انه يبزّ أقرانه أو حسّادهُ جرأة وإقداما » وهذا استدراك مضطرب لا يُثْبِتُ به الاستاذ الاّ تناقضه ، وبأنه لم يكن مستوثقا من تخميناته ، ولم يقرأ حياة المتنبى وسيرته وشعره قراءة تحقيق وتذوّق واستقراء ونقد وإحاطة .

ولا ادرى كيف جعل دعواه أن نائبة السجن إذا نزلت بفتى يافع جعلته رفيق « المخاوف وتوجس الشر طوال حياته » من الأمور « المسلم بها ؟ ونحن نعلم ان النوائب تصقل الرجال ، وتهذب النجباء ، شيوخا وشبانا وشوقى يقول :

يا مصر أشبال العـرين ترعرعت   ومشتْ اليك من السّجون أسودا !

و« بقايا السيوف » ! ولا سيما اذا كانوا من المؤمنـين بالله كالمتنبـى لا تزيدهم المصائب الاّ يقيناً وثباتاً وايماناً بالحق واصرارا على المضى فى سبيله ، وقد مارستُ ذلك تجربة ، وما بلغت الثالثة والعشرين إلاّ واناخذن السجون والقيود والأغلال ، وعرفت فيها من النجباء من هم اصغر سنّا من المتنبى صامدين ، وعندمـا خرجـوا من السجـن لم يكونـوا فريسـة للمخـاوف والتوجّسات ، وعندما كنت فى سجن قاهره حجة بعد أن أمضيت رهـن الاعتقال اربع سنوات دار نقاش طويل بين المعتقلين حول موضوع « الخير والشر » ، وهل الانسان بفطرته « خيرّ » أم « شرّير » ، فى حوار نشرت مقالاته فى مجلّتنا الخطية « الندوة » .. التى كنت أرأس تحريرها فى المعتقل ، وكنت فى جانب من يقول : أن الله قد فطر الانسان على الخير ، وكتبتُ يومها مقـالا طويلا قلـتُ فيه : « وقـد استـدلّيت من مقـالات كتّابنـا الأفاضل ، ومناقشاتهم على أن اكثرهم متأثرون بعوامل بيئتهم ، ولذلك لا يميّزون بين ما هو فطرىّ أصيل ، وما هو طارىء دخيل ـ وهم معذورون فى ذلك بعض العذر ـ إذا شكّوا فى « خيريّة » الانسان فى مثل محيطنا فى السجن وبين الأغلال ـ فانّ ما تزخر به الحياة وما يطفح به الوجود مهول جداً ، ومرعب جداً ؛ ينصب بين الباحث وبين الحقيقة سدوداً من الشك والحيرة ، والقليل هم الذين يستطيعون تبديد ظلمات الشك ، وهتك استار الحيرة بنور ربّانى ، وقد يقول قائل : وأنت ألست متأثرا بعوامل بيئتك الكئيبة ؟ فأقول : لو كنت منفعلاً بعوامل بيئتى ، متأثراً بما حولى ، لما قلت

إلاّ أن الانسان شرّير ظلوم ، لا يستجيب لصوت الخير والهدى ، ولا يتأثر إلاّ بالشر والباطل ، ولكن ها أنا أصرخ حتى فى وجه هذا الانسان الذى أثقلنى بالحديد ، وألهب ظهرى بالسّياط ، وقذفنى بلعناته : إن كلما أتيته وتأتيه إنّما هو شذوذ وخروج عن فطرتك التى فطرك خالقك عليها ، وإنك لم تخلق لهذا ، بلْ للخير الأسمى ، ولتحقيق المثل الأعلى ، وإنك تتكلّف كلّما أتيته أو تأتيه من شرّ تكلّفاً ، وتتعلمه تعلماً ؛ وقديماً قال الرسول عليه الصلاة والسلام لمن رموه بالحجارة « اللهم اهدِ قومى فإنّهم لا يعلمون » وعفا سقراط عمّن سقاه السّم ، وهو على قوله : « إن الانسان خبيئة الكمال » .

هذا ما كتبته وقلته وأنا فى السجن سنة ١٩٥٢ م ١٣٧١ هـ . ؛ وأين أنا من أبى الطيب ووجدانه وعلمه ، حتى قبل أن يبلغ العشرين ؟ ذلك الفتى الكريم فطرة ونسباً والذى نشأ يتيماً تحت رعاية جدته « المرأة الصالحة » فى احضان الحنان والزهد والورع والتقشف وتقوى الله ، بين إخوانه ورضعائه من اولاد الأشراف ، ومارس كل انواع الفروسية من ركوب الخيل والمصارعة والمصاولة بالسيوف والرماح وهو لا يزال صبياً ؛ فشبّ معبّد النفس فطرةً وبيئة وتربية للفتوّة والمروّة والاقدام منذ نعومة اظفاره حتى طرّ شاربه ، منصرفا عن الفواحش وسفاسف الأمور ومن تكن هذه نشأته وفطرته لا يصاب بالأمراض النفسيّة والاضطراب العقلى ..

ومن العجيب أن الاستاذ الشمرى فى تخميناته السيكولوجية لم يعط اية أهمية لتربية المتنبى ونشأته الأولى فى « الكوفة » ولم يفكر انّه قد تغذّى مع

اللبن الايمان بالله تُتْلى عليه آيات الكتاب المجيد ، ويؤدى الصلوات المكتوبة فى الجامع صباح مساء ، وأن اوّل ما حفظه من القرآن سورة « الفلق » وسورة « الناس » وفيهما التعوّذ « من شرّ الوسواس الخنّاس » و « من شرّ حاسدٍ إذا حسد » ومن شر ما خلق » ، ومن هذه نشأته وفطرته لا يُضار بوسواس ، ولا يصاب بما سماه الاستاذ الشمرى « عُصاب القلق » فضلاً عن شخص مثل ابى الطيب العالم الحكيم المحسّد المفترى عليه القائل :

وهكذا كنتُ فى اهلى وفى وطنى إن النفيس غريب حيثما كانا
محسّد الفضل مكذوبٌ على أثرى ألقى الكمى ويلقانى إذا حانا !

ولقد ناقض الصديق الشمرى نفسه مرة اخرى ؛ حين زعم ان سجن المتنبى قد جذّر وأصّل مرض « عُصاب القلق » فى جبلّة المتنبى ، ثم عاد فقال انّه غدا بعد سجنه أقل تهورا واكثر حيطة للأمور » ! ومعنى ذلك انه قد انتفع بسجنه ، واصبح عاقلا حكيما ، وهو ما لا يتفق مع صاحب « المزاج الصفراوى الشرس » والذى « يتلظّى بعدوانية وحقدٍ اغرقاه فى مستنقع الداروينيّة : المصاب « بهول العذاب النرجسى ينهشه كبداً ووجداناً » !.

وأمّا انه كان يستعطف ، ويسترحم ، ويخاف ويقلق ، ويخشى ان يسجنه أعداؤه ، ويفر منهم ، ويتجنّب الوقوع فى المحاذير والمخاطر ، ويخادع خصومه ، ويمكر بهم ، فذلك ما يعمله البشر فى كل زمان ومكان ، ولقد كان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم انى اعوذ بك من الهمّ

والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، واعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ودعا كليم الله موسى عليه السلام ربّه فقال : « ربّ نجّني من القوم الظالمين » وقال : « ولهم علي ذنبٌ فأخاف أن يقتلون » ، وقال تعالى : « وقلّ ربّ أعوذ بك مِنْ هَمَزَات الشّياطين ، وأعوذ بك ربّ أن يحضرون » وقال : « وإمّا ينزغنّك من الشيطانِ نزغٌ فاستعذ بالله » .

ولعلّ سبب اهتزاز الصُّور التى تبتدعها ريشة « الفيلسوف الشمرى » من تخميناته « السيكولوجية » لأبى الطيب ، وتشويش الوانها ، واختلاف أشكالها ، أنه أتقن معرفة وفهم ودراسة معايير النقد الغربية ، وتقديرات مؤرّخى آدابه ، وكتّاب سِيَرَ علمائه وشعرائه وزعمائه ، وتحليل آثارهم واعمالهم وأقوالهم على ضوء الدوافع المنفعلة بتيّارات الحياة الاجتماعية التى عاشوها ، وتأثروا بأحداثها ، وأراد أن يحلّل بها سيرة وشعر المتنبى متجاهلاً التباين الجوهرى والفوارق الطبيعية والواقعية بين بيئة ولغة وتقاليد وموازين وقيم المجتمع الغربى المسيحى أو الالحادى ، وبيئة ولغةِ وموازين وتقاليد وقيم الأخلاق فى المجتمع العربى المسلم .

فكما لا يمكن أن تجرّد سيف الدولة أو صلاح الدين أو ابن سيناء من عمائمهم وملابسهم العربية .. وتعرضهم فى « قبّعات » أو « بنتلونات » أو مسوح « كرومويل » أو « نابليون » أو « لوثر » كذلك لا تستطيع أن تحلّل حياة الجاحظ أو المتنبى أو الشريف الرضى بنفس المعايير والمقاييس التى تحلّل بها « غوتيه » أو « شللر » أو « فولتير » فهؤلاء كانت مجتمعاتهم

يباح فيها ما لا يباح في مجتمعات اولئك ديناً وسياسة وسلوكاً : بل ولغة ووجدانا .

ولا يجوز أن يؤخذ من كلامي هذا انني اقلّل من قيمة اتقان الاستاذ ذيبان الشمري لمعايير الغرب النقدية وتبحّره في معارفه الأدبية والفلسفية فلقد افاد امته ولغته العربية بما نقله اليها عن الغرب بلسان عربيّ مبين ، ولكنني أخالفه في محاولته أن يزن أو يقيس نفسيّات واخلاق شعراء العرب والمسلمين ـ ولا سيما المتنبي ومن عاش ظروفه وبيئته ـ بتلك الموازين والمقاييس .

ان الاستاذ الشمري العالم الأديب الناقد من المعجبين بشعر المتنبي ويقدّر جوانبَ من حكمته وفلسفته وفروسيته ، ولكن عدم تخصّصه في دراسة الأدب العربي مثلما هو متمكّن من دراسة الفلسفة الغربية ، وربما وآداب الغرب ، قد سبّب هذا الخلط بين صور الاعجاب وصور تخميناته السيكولوجية المستوحاة من دراسات خاطئة ، أو قراءات ما كتبه اعداء المتنبي وخصومه ، او عدم احاطته بكل شعره ، وتذوّقه التذوق الذي يميّز شعر كل مرحلة من مراحل حياته ، ويفرّق بين المتشابه منه والمحكم ، او انه لسبب من الأسباب يكره أبا الطيب ، أو لطغيان معارفه الغربيّة على معارفه العربية والاسلامية ؛ أو كل ذلك هو سبب الخلط بين الصور الشوهاء التي يبتدعها لشاعر مكارم الأخلاق . فهو احياناً يبرزه قوياً جباراً شرساً ، في ملابس وقفّازات وأنياب وأظافر « نيتشه » ، وأحياناً يظهره مشرّدا عاجزاً في مراقع « شللر » وتارة وحشاً في غابة « داروين » وآونة مريضاً قزماً في

مشرحـة « فـرويد » ثم ما نلبـث أن نراه وعليه مسـوح « غـوتيه » أو « شكسبير » أو أحد = الطّامحين المغامرين من المغاوير الأوروبيين .

لا .. لا .. يا استاذ ذيبان أن أبا الطيب كان عربياً حنيفاً مسلما ، تخلّق أوّل ما تخلق بالقرآن ، وتطبّع بما يتطبّع به العربى المسلم فى مجتمع علميّ محافظ ، وتأثّر بما يتأثّر به أيّ فتى يتيم مرهف الحس موهوب الفطرة فى محيط ورعٍ وتقشّف وفـروسية ، ثم صارع الحياة ، فنجـح واخفـق ، وأخطـأ وأصاب ، واحسن وأساء وفرح وحزن ، واطمأن وقلق ، وأمن وخاف ، لكنه ظل مشدود السلوك بقوانين الفتوّة والمروّة والإبـاء والوفـاء ، وتفـوّق على معاصريه وسابقيه بل وعلى من جاء بعده فيما نسمّيه « الشعر » وهو ما لم نختلف عليه ولله الحمد .

د) مراحل تطوّره :

لقد اتفقنا على أن اصدق مرجع لدارس المتنبى وحياته هو ديوان شعره .. دراسة تحقيق واحاطة وتذوق ، وبناء عليه فلن اكون صريحاً معك إذا لم اخبرك أن المراحل الثلاث التى تخيلتها لتطور المتنبى « السيكولوجـى » لا تصوّر المتنبى تصوير من أتقن معرفة حياته وفتراتها اعتمادا على « تذوق شعره » فليس صحيحا ما قلته :

« ولكن أبا الطيب لم يتجاوز مرحلة الصبا الى مرحلـة الشبـاب بل تجاوزها الى مرحلة الكهولة وهو لما يبلغ الحادية والعشرين من عمره بعد ، فالمتنبّى لم يتمتّع بصباه الاّ قليلا ، أما مرحلتا « الشباب والرجولة فلـم يعرفهما فى حياته » الخ .. وتعليلك لذلك بتأثير السجن فى نفسه قد سبق

تفنيده ، وكل ما اوردته فى ما سميته المرحلة الثانية ، والمرحلة الثالثة « مرحلة اليأس والاستسلام للواقع » لا يقرّه منطوق ومفهوم شعره ، ومنقوضٌ بما سبق ايراده فى الفصول السابقة ولا فائدة فى سرده من جديد ، ولقد نقلتُ لك فى المقالة السادسة عن استاذنا محمود شاكر « عمود صورة المتنبى » منذ مولده حتى فارق الحياة وبالرجوع اليها ستعرف أن مراحل حياته قد نمت وتطوّرت فى اربع فترات كان شعره يتطوّر خلالها منفعلا بأحداثها المختلفة خيراً وشراً ، وشدة ورخاء ، وأملاً ويأساً وقوة وضعفاً .

١ ـ الفترة الأولى طفولته منذ ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ . ودراسته بها حتى خرج منها سنة ٣٢٠ هـ . الى بادية الشام ، وثار على السلطة فسجن ، الى أن أفرج عنه سنة ٣٢٣ هـ . وهى فترة صباه وشبابه طيلة عشرين عاماً .

٢ ـ الفترة الثانية بعد خروجه من السجن وعودته الى الكوفة ثم رجوعه الى الشام فى سنة ٣٢٦ هـ . وحتى سنة ٣٣٦ هـ . وهى فترة ثلاثة عشر عاما .

٣ ـ الفترة الثالثة : أوّل لقائه بأبى العشائر الحمدانى سنة ٣٣٦ هـ . الذى قدمه الى سيف الدولة حتى فارقه الى مصر سنة ٣٤٦ هـ . وهى عشر سنوات .

٤ ـ الفترة الرابعة : ذهابه الى مصر وبقاؤه عند « كافور » ثم فراره منها ورجعته الى الكوفة ثم الى فارس حتى مقتله سنة ٣٥٤ هـ . وهى فترة ثمان سنوات .

ولكل فترة احداثها واخبارها وأشعارها وقد حلّلها بدقة بالغة الاستاذ محمود شاكر فى كتابه النفيس عن « المتنبى » وأوصيك كصديق يجلّك أن

تقرأه بإمعان .

هذا وأمّا ما تطرق إليه « الفيلسوف الشمرى » من حديث فى حلقته الأخيرة عن نسب المتنبى والرواية العجيبة التى أوردها دون أن يذكر مصدرها ، فسوف نناقشه حول ذلك فى الأسبوع القادم إن شاء الله .

بروملى ١/ذى الحجة ١٤٠٣ هـ . ١٩٨٣/٩/٨ م

المتنبي : شاعر مكارم الأخلاق

اختلافى مع « الشمرى لا يخدش اجلالى لمواهبه .
لو امعن النظر لرجع عن معظم تخميناته .
لا نختلف روحاً وعقيدة .
وسائلنا متشابهة ، والرؤية متباينة !
انه يكابد هماً ويعانى حزناً .
غاضب على الزمن وناسه كالمتنبى !
« هوبنز » الفيلسوف المادى انكر الضمير الانسانى ، وسقراط اكد وجوده ..
الذين يحاربون العبقرية هم الأقلية الضالّة .
الحق اقوى من أن ينهزم : فما عدا مما بدا ؟
عصرنا أنحس يا صديقى ! ماذا سيقول المتنبى لو عاشه ؟

مأســـاة العبقرية :

الله يعلم أنى اكنّ للكاتب الاستاذ ذيبان الشمرى من الاكبار ما تستحقه جودة بيانه ، وفصاحة لسانه ، وغزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، وما يليق بألمعيّته ، ونبل سجاياه ، وحيوية ذكائه ، وخفّة روحه ، وكلّ ذلك ـ وما

هو اكثر من الفضائل والشمائل يلمسه قرّاء ابحاثه ويطالعونه بين سطور مقالاته التى يدبجها قلمه الساحر ، ـ والصديق الذى أنسيته ـ إن كان لا يزال كما عهدته ، ـ على يقين من صدق قولى : والله ما حلنا ، ولا ملْنا عن العهد القديم . كما قال الآنسى :

وإذنْ فاختلاف وجهات نظرينا عن المتنبى هل كان خيرّاً أم شرّيرا ؟ ملحدا نرجسيا ، أم حنيفاً مسلماً فارسا ؟ وحش الفطرة حقوداً غدّاراً ؛ أم انسانى الوجدان حكيما وفيّا ؟ لا يجعلنى أتبرّم بذلك الاكبار ، ولا يخدش إجلالى لمواهبه ، بل ولا أضيق بمحاورته وجداله والاصغاء إلى وجهة نظره والأخذ بها لو عرفت صحتها وقوة حجتها .

وليسمح لى الاستاذ الكريم أن اصارحه بأني بعد أن فرغت من قراءة مقالتـه المنشـورة فى « الأربعـاء » العـدد السابـع والعشرون : ١٤٠٣/١١/٢ هـ . تحت عنوان « المتنبى ادخل سيف الدولة التاريخ من اوسع أبوابه » معلنا أنها ستكون « الحلقة الأخيرة » من سلسلة مقالاته عن « المتنبى » قد تأكدت أنّه لو أمعن النظر ودرس المتنبى بتجرد وانصاف ، وقرأ شعره قراءة إحاطة ، وتذوّقه بمفاهيم عربية واسلامية محضة ، لرجع عن معظم تخميناته «السيكولوجية » التى شتم وهجا بها المتنبى .

إنّنى اكاد أن أكون على يقين من هذا .. ولا اعزو اختلاف وجهتى نظرينا الى اختلاف فى الروح أو العقيدة أو المبدأ ، ودليل ذلك أنّنا كثيرا ما نلتقى فى « المقدمات » ولا نختلف الاّ على « النتائج » ـ وهذا أمرٌ عجيب وغريب وقلّ أن يحدث ـ أيّ أن وسائلنا لمعرفة الحقيقة متشابهة ورؤيتنا

متباينة !؟ .

أننى أشعر أنّنا رضيعا ينبوع ثقافيّ واحد ، مصـادره الثـرّوة الأولى ـ أو الأصيلة ـ هى العروبة والإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسلـه واليوم الآخر .. وان كان ـ كما يخيّل اليّ ـ قد تمكّن من الانتجاع الى اوروبا فدرس فى جامعاتها ، وقصرّتْ بى ظروفى السياسية والاجتماعية فلم أغادر « اليمن » الى أيّ قطر آخر الاّ بعد أن جاوزت « الثلاثين » ، وكانت وظلّت وما زالت وسيلتى الى المعرفة هى لغتى العربية فقط . وقد قرأت بها أهمّ وأروع ما انتجه عباقرة البشر .

لقد فكّرت مليّا ، وضربت الاخماس فى الأسداس ، واستعرضت معظم ما قرأته للاستاذ ذيبان الشمرى سواء فى مقالات حواره معى حول المتنبى ، أو ما يتحفنا به من مقالات سياسية وأدبية ونقدية وتاريخية فى جريدة المدينة وملحقها « الأربعاء » ، ثم عدت اقرأ من جديد مقاله الأخير المشار إليه فلمست ـ ويا للأسى ـ من تصوّره الـكئيب المتشائـم الحـزين لما سماّه « مأساة العبقرية » انّه يكابد همّاً طاحناً ساحقاً ، ويعانـى حزنـا مريراً ماحقاً ، يشبه ما كابده وعاناه أبو الطّيب من زمنه وناسه ، وأنّه غاضب على هذا الزمن وناسه أشد الغضب ؛ يائس من خيره وخيرهم « كما يئس الكفّار من اصحاب القبور » ينشد مع المتنبى :

من يهـن يسهـل الهـوان عليه ما لجـرح بميّت إيلام

أو يردّد فى نزق قوله :

ومـن عرف الأيام معرفتـى بها وبالنّاس روّى رمحه غير راحم

وتذكرت غضبة « نوح » عليه السلام فى قوله تعالى : « وقال نوحُ ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّارا ، انك ان تَذَرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا » . ومواقف أخرى عندما يستيئس الرسل والدّعاة والمصلحون بل تذكرت بعض مواقف يأس وقنوط وغضب ، قلتُ فى احداها وأنا مكبّل بالأغلال :

من عذيرى للأمة اليمنيّة وهمُ فى الوجودِ أشقى البريه
خلقوا للقيود والسّوط والجـلاّد ، لا للدستور والحريّه

واسترجعت متذكرا مواقف الحلم والاطمئنان والسكينة حين ينزّلها الله على عبده فيقول : « اللّهم اهدِ قومى فانهم لا يعلمون » وتذكرت أن « نوحاً نفسه » عليه السلام قد قال بعد تلك الدعوة الساحقة الماحقة : « ربّ اغفرْ لى ولوالدى ولمنْ دخلَ بيتى مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزدِ الظّالمين الاّ تبارا » .

بل ورجعتْ بى الذاكرة الى أنى نفسى العاجز الضعيف قد قلتُ وفى نفس السجن ، وبعد عام أو عامين ، حين نظمت « نشيد الميثاق » :

بالأمة نقسم والجمهورْ والعزّة والقدر المقدور
وبما فى مصْحفنا مسطور أن نطلب لليمن الدستورْ

وقلت فى أبيات أخرى :

أنا بين القيود راضٍ سعيدُ ليقينى بعدْل ربّ السماء
رحمة الله قد افاضتْ على قلبى نوراً محا ظلام الشقاء

تذكرت كل ذلك فقلت لنفسى : الصديق ذيبان الشمرى واقع فى براثن

أزمة نفسيّة ولا بد أن ينزل الله عليه السكينة فيطمئنّ وتعود إليه نظرته الصافية .

لقد هالنى قوله : « لعلّ عقدة المأساة فى تاريخ البشر ، ان العبقرية مهما بلغ اشراقها من الشدة ، وحضورها من الطّغيان فإنها تبقى الضعيفة أمام جبروت الواقع بقوتيه الأساسيّتين : السّلطان ، والمال ، فالبشر لا يرون من المستقبل أبعد من بطونهم ، ولا يطلبون من السعادة أعمق من جيوبهم ، ولا يعرفون ماضياً ، ونادراً ما يأبهون بالمستقبل ، فالحاضر فى نظرهم هو بداية الزّمان وهو كذلك نهايته ، ولذلك ، فان كلّ شىء لا يتواجد فى الحاضر ولا يتحقّق فيه ، ولا ينتهى واقعا الى كسب سلْطوى ، أو ربح مادى ، فانّما يكون ويبقى خارج عالم الواقع ، ومن مخلوقات عالم الوهم ، وهكذا نرى العبقرّى منتبذاً للبشر ، ومنبوذاً من البشر ، ومحارِباً للنّاس ومحارباً من الناس ؛ أنّه نادراً ما يكون على وفاق مع النّاس ، وأندرمن ذلك أن يكون النّاس على وفاق معه » « الأمر الذى يؤدّى فى معظم الأحيان الى خنق العبقرى وصلب العبقرية » . وهذه نظرة تشاؤم قاتم لا ينظر الناس بها إلاّ يائسٌ واقع فى أزمة معاناة ومكابدة ، أو متأثّر بآراء فلاسفة الغرب الماديين أمثال « هوبنز » الذى كان ينكر انّ للانسان ضميراً أو شعورا يقدّر الخير والفضيلة ؛ ولا استطيع الجزم بأن هذه هى فلسفة الاستاذ ذيبان الشمرى الحقيقية عن الانسان ، لأنه قد صرّح مراراً فى مقالاته السابقة انّه ضد فلسفة الماديين سواء كانت اجتماعية أو اخلاقية ، أو سياسية ، أو اقتصادية ، بل أنّه لم يتّهم « المتنبى » بالالحاد والأنانية و« النرجسية »

الاّ لأنه ـ كما خمّن ـ كان يؤمن بالقوّة الغاصبة ، وشريعة الغاب ، حقودا كنوداً ، يعبد نفسه والمال والسلطة ، وهذا هو ما يقوله الاستاذ ، ويؤكد انه طبيعة البشر وفطرة الناس في نوبته العصبيّة الغاضبة التي ربّما انه أصيب بها من جراء معاناته ، وهمومه وحزنه على واقع أمته العربية ، وما تكابده من أمراض اجتماعية وسياسية ! هذا ما أظنه وأرجوه ، أما إذا كانت هذه النظرة المتشائمة القاتمة الى الانسان والعبقرية ، هي فلسفة الاستاذ الشمري ، فما أسهل القول بأنّه هو نفسه الشخصية الغريبة المتباينة الأشكال والصور والألوان ، حاول أن يبرزها في « تخمينات سيكولوجية » امتلخها من « أبيات » للمتنبي ، وجعلها صورة مشوهة رهيبة له ، واستشهد بالمثل المشهور : « رمتني بدائها وانسلّتْ » ، غير اني استبعد هذا ، وأظنّ أن ما قاله لا يعدو أن يكون نفثة غاضب حزين غيور ، في ساعة من ساعات القلق النفسي ، والضيق الذي يعترض المؤمنين والبشر أجمعين ، إذ أنّه لا يمكن أن يجحد ـ وهو العالم الواسع الاطلاع ـ شعور الاعجاب والاعظام الذي نحسّ به كبشر تجاه العظماء والعباقرة أحياءً كانوا أم أمواتاً ـ دونما فائدة مادية نربحها ، أو جاه أو سلطان نناله ، ولا يمكن أن يجهل ـ وهو الفيلسوف ـ انقباض مشاعرنا ازاء أيّ قول أو عمل دنيّ خسيس ، وفي ذلك وحدة اكبر دليل على خيرية فطرة الانسان وبناءاً عليه قال « سقراط » : « ان للانسان عقلاً يعتصم بالحكمة ، ونفساً تمتح من ينابيع الهدى والمحبة .

ولو كان الأمر كما جاء في نفثة الصديق الحزين الغضبان على بني أمته

ودينه ، المتضايق من واقعهم المزرى ، فهم « لا يرون أبعد من بطونهم ، ولا يطلبون من السعادة اعمق من جيوبهـم » ! لو كان ذلك هو الطبـع الفطرى للبشر والجبلة الغريزية للإنسان ، لما وجد بين الناس قديماً وحديثا وفى كلّ مكان اولئك الذين تموت عندهم كل نزعة لإتيان الشر كالأنبياء والأولياء والحكماء والفلاسفة ودعاة الاصلاح على تفاوت درجاتهـم ، ولما تشرد من تشرد منهم وسجن من سجن و « منهم من قضى نحبهُ ومنهمْ منْ ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

ولو أنّ قول الاستاذ الشمرى : « وهكذا نرى العبقرى منتبذاً للبشر ومنبوذا من البشر ، ومحارباً للناس ومحارَبا من الناس » ، لما وجد أمثال « الصديق » و « ابن الخطاب » و « علي بن أبى طالب » و « الشافعى » و « ابن حنبل » ، و « عمر بن عبـد العـزيز» و « زيد بن علي » بل و « غاندى » و « جمال الدين الأفغانى » والآلاف من عباقرة الدين والفقه والسياسة والفلسفة والأدب والشعـر والطـبّ ، ممّـن عظّمهـم النـاس فى حياتهم ، ولا يزالون يقدرونهم ، ويقتدون بهم ، ويحتفون بآثارهم وأخبارهم ، ولما وجد أحمـد الشامـى وذيبـان الشمـرى يتحـاوران ويتجـادلان حول « المتنبى » ذلك « العبقرى » الذى « مـلأ الـدنيا وشغـل النـاس » فى حياته ، وعشِقَه الملوك ، وتهادوا شعره ، وأكبروه وخافوه ، ولا يزال بعد ألف عام حديث الكون .

ان الذين يحاربون العبقرية والعظمة والتفوق هم الأقلية المادية الضالة ، ممن هم حقاً كما وصفتهـم « لا يرون من المستقبـل أبعـد من بطونهـم

ولا يطلبون من السعادة اعمق من جيوبهم ، ولا يعرفون ماضياً ، ولا يأبهون بالمستقبل » ، أو هم من الطّغاة والمارقين على مكارم الأخلاق الذين حاربوا الأنبياء والمصلحين والآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر ، وينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله والحق والسلام .

وإذا تقرّر هذا فلا داعى لمناقشة الاستاذ فى استنباطاته التى جعلها نتائج لنفثته الحزينة الغاضبة ، وابرزها فيما سمّاه « المهزلة المأساوية » ، فإذا بطلت المقدمات بطلت النتائج ، ولن اناقش ما وردفى حديثه عن « العصر المنحوس » فانه بعيد عمّا نحن بصدده ، غير ان جملة وردت ، ونفث بها قلمه تؤكد ما ذهبت إليه من أن الأستاذ ذيبان العربى المؤمن لا يدين بفلسفة النظرة القاتمة المتشائمة نحو الانسان ، وأنه إنّما قال ذلك فى نوبة غضبٍ وضيق مما يعانيه ويكابده من جرّاء ما تعانيه وتكابده أمته ووطنه إذ قد قال : « ذلك العصر المنحوس العصر العباسى الثالث الذى يكاد يكون صورة طبق الأصل عن العصر الكئيب الذى نعيشه اليوم من حيث التمزق والفرقة ولا مبالاة الأمة العربية بقضاياها المصيرية بالاضافة الى طغيان العصبيّات الطائفية والعنصرية على اجهزة الحكم » .

وسواء صدق حدسى و« تخمينى السيكولوجى » أم لم يصدق فانّى أرى من واجبى أن ارفّه عن الصديق أو أعزّيه ، وأخفّف عنه حزنه جهدي كما فعل معى لمّا شعر أو ظنّ انى اصارع حزناً ، وأعانى كمداً عندما بدأنا هذا الحوار الذى طال أشهرا ؛ فقد قال فى ثانى مقال له ما يلى : « أن فشلك فى ميادين الديبلوماسية والسياسة خلال تلك الحقبة الدنسة ـ أواخر

الأربعينات وحتّى أواسط السبعينات ـ لهو الدليل القاطع على نجاحك كل النجاح فى ميادين الفضيلة والشرف ، ولكن تمثلك ببيت الشعر .

تقلّدتنـــى الليالى وهـــى مدبرةٌ   كأنّنـــى صارم فى كف منهزم

لا تتفق فلسفته وفلسفة الحياة وهدفيّتها ، فالمهزوم فى تلك الحقبة لم يكن الصارم وصاحبه بل كان الفضيلة والاخلاق ، أمّـا ما خلتـه أيهـا الصديق من ادبار وهزيمة فلم يكن يومذاك يزيد عن كونه تراجعاً تكتيكياً محضا قام به الحق أمام الباطل".

ثم قال الشمّرى يخاطبنى بلغة المتفائل المؤمن الصادق :

« وها أنك ترى اليوم ـ [قبل حوالى اربعة اشهر فقط] ـ الحقّ يكتسح الشر والأشرار ويضرب الثورية والثوّار ، ويصرع العدمية والعبث ، فالحق اقوى من ان ينهزم ، والباطل أضعف من أن ينتصر ، ولقد ورد فى كتابه العزيز قوله جلّ وعلا : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » لذلك فالحقّ يطلب بل يأمرك بالعودة الى الساحـة ، وبامتشـاق حسامك ، واسقاط شعارك الذى اوردته فى خطابك الأول القائل :

من يبلغ القوم شطّت دراهم ونأت   انى رجعـت الى كتبـى وأوراقى

لقد وجدت لزاما علي ان اكتب اليك ما كتبته كمدخل ، وذلك لأننى اشعر من خلال سطور مقالاتك بأنك تصارع حزناً أشدّ شراسة ونهشاً من الانفعال والغضب .

ثم قال ناصحاً أميناً : « ان حزنك أيّها الصديق الـكريم ينبغـى ان لا يدفع بك الى الانسلاخ عن البشر والنقمة على الحياة ، واننى لواثق من

أنه لن يفعل ذلك ، فحزنك لا تشوبه شائبة من نقمة أو غضب » .

هكذا يا صديقى الكريم كتبت ناصحاً محذّراً تخشى علي من « الانسلاخ عن البشر والنقمة على الحياة فما عدا مما بدا ؟ ! عجيب والله أمرى وأمرك فى هذا الحوار الذى لم يزدنى لك الاّ إكبارا لقد برزت فى نظرك حزينا غاضبا منهزما تخشى علي الانزلاق الى هاوية القنوط فحاولت تسليتى والترفية عنّى وتشجيعى جُهْد كرمك وودك ومروّتك ، وكان لذلك أثره فى نفسى واجبت عليك بما لا شك انك سررت به فى مقالى الثامن ، وطمأنتك جهد إيمانى بالله مفسرّا ما قصدت ، مؤكدا لك انى لستُ ممن ييأس أو يقنط من روح الله .. ولكن .. ولكن .. ها أنت فى آخر حلقة من سلسلة مقالاتك تبدو حزيناً غاضباً منهزماً يائساً فيحزّ ذلك فى نفسى وأحاول أن أرفّه عنك ، فلا اجد ابلغ مما قلته أنت نفسك قائلاً : « ان حزنك أيّها الصديق الكريم ينبغى أن لا يدفع بك الى الانسلاخ عن البشر والنقمة على الحياة واننى لواثق من أنه لن يفعل » وتذكر الآية الكريمة : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » وقوله تعالى : « حتّى إذا استيأس الرُّسُل وظنّوا أنهم قد كذّبوا جاءهم نَصرُنا فنُجي من نشاءولا يُردّ بأسنا عن القوم المجرمين » .

عصرنا انحس يا صديقى :

لقد قصدت بالعصر المنحوس أو ما سميته « العصر العباسى الثالث » القرنين الرابع والخامس الهجريين ؛ عصر الدول والامارات فى البلاد الاسلامية ، وكما انه كما وصفت بالنسبة الى القرون الثلاثة السابقة سياسياً

واجتماعيا ألاّ انه لا يمكن أن يكون صورة طبق الأصل لعصرنا الكئيب الذى نعيشه اليوم كما قلت ، وأنا لا اريد أن أزيدك حزنا ويأساً وقنوطا ولا أود أن اضاعف حنقك على عصرنا ولا ضيقك بناسِهِ ، ولا سخطك عليه وعليهم ؛ لكنى واثق من انك لن تخالفنى اذا ذكرتك بأن عصرنا هذا الذى نعيشه هو أسوأ عصر مرّ على العرب والمسلمين عبر التاريخ . وأن ذلك « العصر العبّاسى المنحوس » كان أفضل بكثير من عصرنا .

نعم لقد كان ذلك العصر المنحوس عصر تمزّق وفرقة وطغيان مثل عصرنا لكنه كان يوجد على الأقل شعور عام بأن دوله وأماراته تمثّل وطناً عربيا واحدا ، ولا تُحدث انقسامات مواطنيه المذهبيّة والسياسية والعنصرية أى تنابذ علميّ أو أدبى بين أفراده ، ولا تفتعل ـ أو يفتعل حكّامها ـ أى فوارق ثقافية بينهم ، وليس هناك أى فواصل سياسية أو جغرافية بين اقاليمه وبلدانه كما هو الحال فى عصرنا هذا .

وكان العالم أو الشاعر ، أو الفقيه أو الطبيب ، أو طالب العلم من « صنعاء » أو « الكوفة » أو « الفسطاط » يستطيع التنقل بحريّة ودون بطاقة شخصية ، أو هوية جنسية بين « بغداد » و « مكة » و « حلب » و « القيروان » و « شنقيط » و « مراكش » و « قرطبة » و« الحمراء » و « القدس » و « شيراز » وكأنّه يتنقل بين مدن وقرى وطنه ومسقط رأسه فى اليمن أو الحجاز أو فارس .

ولو شئتُ لقلت : انه كمسلم يستطيع أن يشعر وهو فى « الهند » أو « السند » أو ما وراءهما كأنه يعيش فى وطنه وبين أهله . وعند بنى ملّته .

وكان كِتابُ أو ديوان أيّ عاصمة أو مدينة من تلك العواصم والمدن هو كتاب وديوان كل العواصم ، والعالم والشاعر والمؤلف العربى والمسلم هو عالم وشاعر ومؤلف كلّ العرب والمسلمين فى تلك المساحة الشاسعة التى تحتل ثلثى العالم القديم .

وإذن فقد كان عصراً أفضل بكثير من عصرنا على الأقل فى وحدة الشعور والفكر ؛ والآذان يرتفع ويدوّى كل يوم خمس مرات من صوامع المدن والقرى ما بين « الأندلس » و« السند » و« الأفغان » و« طشقند » شمالاً وجنوبا .

ولا « روسيا » ولا « أوروبا » ولا « الولايات المتحدة » ولا « دولة الهند البوذية » ولا « الصين الشيوعية » ولا « اليابـان » بل ولا « اسرائيل » تحتل « القدس » و « لبنان » و « الجـولان » وتخطّـط لاكتسـاح ما بـين « الفرات » و « النيل » والسيطرة على ما بـين « بصرى » و « عـدن » ونحن فى ظلمات الغفلة والترف تائهون !! ونحن لا نؤرخ للأدب والثقافة والعلوم لذلك العصر المنحوس « كما سميته » ، فأذكر المئات بل الألوف من اسماء افذاذه وشعرائه وعباقرته لكي أقارن بهم اسماء افذاذ وعباقرة عصر إماراتنا ودولنا العربية هذا الذى نعيشه والـذى سميتـه بحـق « العصر الكئيب » !! ذلك لأنى لو فعلتُ لما كنت وحدك الحـزين البـاكى ، بل الآلاف من الواعين فى وطننا العربى الكبير !

ولا اريد أن ازيدك حزناً ، ولا أن أقرّك على يأسـك أيهّـا الصـديق الكريم ، ولكنه التذكير والذكرى تنفع المؤمنين .

ترى لو قدّر للمتنبى بمشاعره ومواهبه وفتوّته وفروسيّته وايمانه بربه ودينه وعروبته ، وهمته وطموحاته ، وعبقرية بيانه ، ان يكون من ابناء هذا العصر الكئيب ، ورأى نفسه خائفاً لا يستطيع ان يتنقل ولا يتجوّل بحريّة بين مدن وقرى وإمارات ودول ما كان يسمّى « الشام » من « اللاذقية » و « طبرية » و « انطاكية » ، الى « حلب » و « دمشق » و « جرش » ثم « حمص » و « لبنان » و « فلسطين » ؟ فضلا عن أن يقوم برحلته الشاقة الطويلة من « مصر » الى « العراق » فأرض « فارس » دون أن يحتاج الى « تأشيرة دخول » أو « اقامة عمل » ، أو « جواز مرور » ، غير قائم سيفه ورمحه ، ووجهه العربى ، ولسانه المبين ، فماذا كان سيكون شعوره واحساسه ، وماذا كان سيقول ؟ وبماذا سينعت الدهر والعمر والناس ؟ أم أن هول الفاجعة سيخرس لسانه ، ويلجم بيانه ، لأنها فوق الوصف والكلام ؟!

لقد قال فى السلاطين الطغام ، و « العلويين » الأدعياء فى « اللاذقية » و « طبرية » الذين آذوه وحاولوا اغتياله ، ووصف ما وصل اليه العرب وما رآه فى بلدانهم ومدنهم لما نزل على « المغيث بن على العجلى فى « انطاكية » سنة **٣٢٧** هـ . وكان فى الرابعة والعشرين من عمره ما يلى :

فؤادٌ ما تسلّيه المدامُ وعمرٌ مثل ما تهب اللئام
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ وان كانت لهم جثث ضخامُ !
وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ
أرانب غير انهم ملوك مفتحةٌ عيونهم نيام !

بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها الاّ الطعام !

وتأمل هذا البيت المرعب « بأجسام » ، وقد وقف معه صديقك الشيخ عبد العزيز التويجرى وقفة قصيرة وقال : « أبعد هذا من سخرية ؟ فانسان معركته مع الحياة والموت على مائدة دسمة هى قرينه فى معركة يسقط فيها جثة هامدة قتيلا لشرهه وبطنته ، إنسان كهذا ، يوم تعرّض به وتبقر بطنه ، وتشنقه على باب قصره ، وترسله إلينا جثة فائحة رائحتها بعفونة الشره المادى ، نتساءل أهذا الانسان البدين يقابله فى الجانب الآخر إنسان بارزة عظامه ؟ ممكن ؛ ولكن قتلى التخمة فى شهادة أبى الطيب عليهم ، أو فى شهادة النبي العظيم « صوموا تصحوا » وفى شهادة الطبيب تلومهم أشد اللوم ولكنهم غافلون عنها ومنحدرون مع بطونهم الى قاع القبر والى سخريّة ابى الطيب بهم : « فى أثر المتنبى : ص ٣٣٢ .

مع ان ابى الطيب قد الحق بالبيت أخاً له أبشع سخرية فقال :

وخيل ما يخرّ لها طعين كأن قنا فوارسها ثمامُ

فكيف لو رأى كتل الحديد من مدرعات ومصفحات ودبّابات وقاذفات قنابل ومدافع وصواريخ جاثمة فى مخازنها أو مطاراتها لا تستعمل إلاّ للزينة وفى المواسم والأعياد ؟!

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

ولو لم يعلُ إلاّ ذو محل تعالى الجيش وانحط القتامُ !

ولو لم يرع الاّ مستحقٌ لرُتبته أسامهم المسام

ولم أر مثل جيراني ومثلى لمثلى عند مثلهم مُقام !

بأرض ما اشـــتهيت رأيت فيها   فليس   يفوتهـــا   إلاّ   الكرام :
فهـــلاّ كان نقص الأهـــل فيها   وكان   لأهلهـــا   منهـــا   التمام ؟
بهـــا الجبـــلان من صخـــر وفخر   أنافـا : ذا « المغيث » وذا اللكام
وليســـت من مواطنِـــه ، ولكن   يمـــرّ   بهـــا   كما   مرّ   الغمام .

واللكام جبل بالشام يقال له جبل الأبدال .

أم ترى المتنبى ـ أيها الصديق الحزين الغضبان ـ قد اخترق بفطنته حجاب الزّمن واطّلع على عصرك الكئيب وعلم انه لن يجد الشاعر الذى يصفه فقال ما قال معزّيا ومُرَفِهاً وساخراً ومعلما ؟ .

هذا وأمّا ما ورد فى مقالتك عن « النبوة والنسب » وتلك الرواية الغريبة التى لم تسندها ، فالحديث عنه وعنها قد يطول ، فالى اللقاء فى الاسبوع القادم إن شاء الله .

بروملى : ١٤٠٣/١٢/٢ هـ ١٩٨٣/٩/٩ م

المتنبى : شاعر مكارم الأخلاق

خطةّ مناورة الانسحاب ولا غالب ولا مغلوب .
الأبحاث السيكولوجية مجرّد تخمينات تحتمل الصدق والكذب !
لا يجوز أن نحلل « سيكولوجيا » المتنبّى بعد ألف عام !
ان جرعة واحدة من الايمان افضل من الف وصفة « سيكولوجية » !
المتنبى خلق سليم الفطرة ، وبيئته كانت بيئة علم وفروسية !
شاكر : أوّل من قال إن المتنبى « علوى » ،
الاستاذ الشمرى لا يهتم بنسب المتنبى لأنه يريد اثبات ادعائه للنبوّة !
البعبع الرهيب ، فى عصرنا الكئيب !
أنا « زيدى » ولست « رافضياً » ولا « باطنياً » !

النبوّة والنسب :

أدرك الفيلسوف المتنكّر ، أو الصديق الذى أنسيت اسمه ؛ وإن لم أنس كرمه ، ولا انكرت علمه . أدرك بذوقه الفنّى ، وحسه النقدى ، أنّ « الأصلع المصْحر » المدافع عن « انسانية المتنبى » أوشك ان يربح المعركة ، وأنّ عليه كمصارع متنكّر « شمّرى » أن يغيرّ اسلوب المصارعة هجوما ودفاعا وكرّا أو فرّا ، فحاول أوّلا أن يسخر من معارف ومفاهيم خصمه « الأصلع » اللّغويّة والعلمية ليجرجره الى الثرثرة والسخرية ويهتك

حرمة جلال الحوار الرصين والنقاش الهادى الذى التزمه الجانبان ، وهو ما لا يليق بمثله ، ! أو ليحمله على التضايق والنزق فيغادر الحلبة محتجاً ! لكن شيئا من ذلك لم يحدث وظلّ « الأصلع » محتفظا بوقاره نوعاً ما وصبر وصابر ولسان حاله ينشد :

كيف يرجــون سَقاطــى بعدما جلّل الــرأس مشيبٌ وصلعْ !

فعقد الاستاذ ذيبان العزم على « الانسحاب الفنّى » وهو محتفظ بكلّ آرائه وافكاره ولو أمام .. المتفرجين ، وخطط للقيام بمناورة كلامية .. يُغطّى بدخان مصطلحاتها الفلسفية انسحابه من مسرح الحوار ؛ وكأنْ لا غالب ولا مغلوب ، وكأنّ كلاّ من المتصارعين قد وافق على مغادرة الحلبة مقتنعاً برأيه وفكرته ولسان الحال ينشد :

نحـن بمـا عندنـا وأنـت بمـا عند ك راضٍ ، والــرّأى مختلفُ

وكانت خطته كما يلى :

أولا : الإكثـار من ذكر الأمـراض النفسية ، والانهيارات العصـبيّة ، والشطحات العقلية وحشد وحشر مسمّياتها « الأوروبية » ، ومصطلحاتها العلمية ، عند « السيكولوجيين » موهماً القرّاء ـ بل مؤكدا لهـم بإسلوبـه البيانى المؤثّر ـ أن بعض الفلاسفة والزعماء والشعراء العباقرة قد يصابون بها ، وأنّ « مأساة العبقرىّ » من البشر أنه يخلق بطبعه وجبلّته « نابذا محارباً للناس » !! ويعيش بحكم كراهية البشر للتفوّق ، وغريزتهم الشريرة « منبوذاً محارباً من الناس » وكذلك كانت حالة المتنبى .

ثانيا : أن يبالغ ويُغرق فى تبشيع صورة « العصر المنحوس » ، العصر

الذى نشأ وعاش فيه « المتنبي » الذى هو بشع ورهيبٌ حقا .. لكى يثبت أنّه ـ وهو الشرير فطرة وجبلّة ـ قد تأثّر بمحيطه وبيئته وأمراضها الخطيرة الفتاكة .

وثالثا : أن يتراجع عن اتهامه للمتنبى بالضعة والخسّة حسبا ونسبا ، وأن يثير ظلالاً حول موقفه الغامض من « القرامطة » التى كان قد نفاها عنه نفياً قاطعاً مسفهاً آراء الدكتور طه حسين واستاذه « بلاشير » ، وأن يعلن ـ مرّتين أو ثلاثاً ـ أن نسبه لا يهمّه من قريب ولا بعيد فالناس لآدم وآدم من تراب ؛ وكان هذا التراجع هو أهمّ ما ترتكز عليه خطة « مناورته » ، لأنه يعرف ـ وهو العالم النفسانى » أنّنى لا اطيق مجاراته فى معلوماته الفلسفية ، وأن فى وسعه ، أن يرمينى بالجهل والغباء لو حاولت أن أحاوره فى أيّ موضوع « سيكولوجى » ، وقد قال فى أولى مقالاته إننى احسنت صنعاً عندما لم اعترض ـ بادىء ذى بدىء ـ على اتهامه لأبى الطيب بالمرض « النرجسى » ؛ وعندما اقحمت نفسى فى الموضوع صال كالأسد الهصور على « ظبيٍ » نفور ، ولم اتخلّص من هجماته إلاّ باعترافى انى أجهل « علم النفس » ، وإن كنت قد اكدت أن كلّ « الأبحاث السيكولوجية » فى نظرى وفى اعتقادى ليست سوى « تخمينات » تحتمل الصدق والكذب ، وان معظم دراسات الناس عنها تخرّصات وأوهام ، بل وبعضها دجل وتضليل ، وأنه إذا جاز لنا أن ندرس نفسياً وسيكولوجياً حالة مصاب بين أيدينا يعيش حياً يُرْزَق جلسنا معه الليالى والأيام فلا يجوز أن ندرس « نفسياً وسيكولوجياً » شخصاً قد مات .. بلْه من بيننا وبينه ركام

من التاريخ فيه الصدق والكذب والحق والباطل راكمته أهواء ونزعات الف عام وخمسين عاما ، وهو فى عظمة و عبقرية أحمد بن الحسين المتنبّى . فضلا عن أننى كمؤمن بالله اعتقد أن جرعة واحدة من الثقة بالله والاعتماد على النفس والتعوّذ من الشيطان الرجيم ، وشرّ الوسواس الخنّاس من الجنّـة والناس أفضل ألف مرة ، من ألف وصفة « سيكولوجية » لأكابـر علماء النفس .

والاستاذ الشمرى يعلم أيضاً أننى لست أقلّ معرفة منه بتاريخ العرب والمسلمين ، واننى لست اقلّ منه فهماً لطبيعة العصور العباسية ولا سيما ذلك « العصر المنحوس » الذى عاشه « المتنبى » والذى كان عصر ذلّ وهوان للعنصر العربى وتسلط لدول الشعوبيين والمماليك والعبيد والخدم كما قال « المتنبى » .

كما يعرف ـ وهو الأديب ـ اننى قد اثبتّ ومن شعر المتنبى انه لم يكن مصاباً بالتّهم البشعة التى كالَهَا لَهُ ، وصبّها عليه ، وهجاه بها ، لا جبلّةً ، ولا انفعالاً بمحيط ، إذ قد خلق سليم الفطرة عبقريًا موهوباً ، وكانت بيئته بيئة صلاح وفروسية وعلم وتقوى ، ونشّىء على محبة معالى الأمـور وكره سفاسفها .

وإذن .. وإذن فليعلن أنّه « لا يهتم بنسب المتنبّى لا من قريب ولا من بعيد » وليس لكى يقرّ ما أكدناه انه كان شريف النسب : بل ليسقط الحجة المؤيدة بالبراهين العقلية والنقلية وبأقوال المتنبى انه قد سجن لأنّه اعلن نسبه العلوى الشريف ، ويثبت ويؤيد الدعوى الملفقة بعد وفاة المتنبى

ومن قبل خصومه وجاحدى فضله والمناصبين العداء للعروبة والاسلام بأنه سجن لأنّه ادعى النبوّة وزعم لنفسه « معجزات » واصطنع « قرآناً » .

وقد اراد بقوله : « إنّه لا يهمه نسب المتنبى ولا حسبه » التمهيد بلباقة ليصل الى هدفه « انه ادعى النبوّة » لأنّه إذا استطاع أن يثبت هذه الدعوى الباطلة عقلا ونقلا ؛ يكون قد اثبت وأكّد كل اقواله وتخميناته ودعاوى وتخرّصات غيره من أن المتنبى كان زنديقاً شرّيراً ملحدا بالله ، أحمق مصاباً بكل أمراض « عُصاب القلق » و « النرجسية » و « الانهيار النفسى و « المزاج الصفراوى » . و « هول العذاب النرجسى » و « الشعور بالإثم » و « الحقد على البشرية » مما سبق تفنيده ودحضه وتبين بطلانه .

والصديق الكريم « ذيبان الشمرى » لا ينقصه الدهاء ، وهو يتقن فن الجدل ، والنقاش والمناورات الكلامية والمنطقية ويعرف من أين تؤكل الكتف كما يقولون ـ وعليه فقد اعمل الفكر طويلا حتى تأكد من أنه لن يتمكن من تشكيك القرّاء أو معظمهم فى دفاعى عن المتنبى الحنيف المسلم إلاّ إذا زجّ بكلمة « التشيّع » فى حوارنا الأدبى والتاريخى ! « التشيّع » .. هذا « البعبع » الرّهيب ، فى عصرنا الكئيب ، هو الذى يستطيع به أن ينقض كل براهين وحجج احمد الشامى . .

ولأنه يعرف اننى من الطائفة « الزّيدية » ولا يجهل أحد أنها من الطوائف « الشيعية » والاستاذ الشمرى لا يهمه نسب المتنبى ولا حسبه انما يهمّه اثبات انه قد ادعى النبوّة وسجن بسبب هذه الدعوى ؛ وإذن فأحمد الشامى انّما ينكر هذه الدعوى ويجحدها ويزعم انها افتراء على ابى الطيب

لأنّه « زيدى » أى من « كتّاب طائفة الشيعة » .

ليس كل شيعى « رافضيّاً » ولا « باطنياً » !

لقد عرف حقاً من أين تؤكل الكتف وبرز فى آخر جولاته متنمّرا ليوجه ضربته القاضية متجاهلاً انه قال فى المقالة الأولى أو الثانية من مقالاته بأن هدفنا هو معرفة الحقيقة وأن ليس للحقيقة إلاّ وجه واحد .، وقال : « ان الحق اقوى من أن ينهزم ، وان الباطل أضعف من أن ينتصر » . وقال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والسّاحر

قال الاستاذ الشمّرى فى « الحلقة الأخيرة » :

« ثمة ثلاث نقاط تسترعى انتباه المتابع للدراسات النقدية وغير النقدية الموضوعة عن المتنبى الشاعر والفيلسوف والسياسى والانسان ، وتلك النقاط الثلاث هى :

الأولى : ان الدراسات التى وضعها بعض الكتاب من « طائفة الشيعة » عن المتنبى دراسات تتجاوز الاطراء والمدح الى ما هو أبعد من ذلك بكثير .

الثانية : ان بعض الكتاب من « الشيعة » يحاولون بكل ما اوتوا من جهد منطق و « إجهاد عقل » أن ينفوا عن المتنبى تهمة ادعائه النبوّة .

الثالثة : إن الكتاب « المذكورين » [يعنى الشيعة طبعا] يلمحون حينا

ويصرّحون أحياناً بأن المتنبّى لم يكن بمجهول النّسب ، بل أنه ينحدر من اكرم العائلات الأمر الذى سأتطرق إليه فيم بعد » .

هذا كلام الاستاذ الشمرى بنصّه وفصّه لم انقص منه ولم أزد حرفاً ، ولولا إجلالى للصديق الكريم ، ولولا أن حوارنا منذ البداية قد كان وظلّ وما يزال هادئاً رصيناً ، ولولا أننى اعرف ان « فوق كل ذى علم عليم » لقلت : أن النقاط الثلاث لم تسترع انتباهه وهو يتابع الدراسات عن المتنبى وانه قد ابتدعها واخترعها دون أن يقرأ أيّ دراسة ـ بلهْ دراسات ـ وضعها كتّاب من « طائفة الشيعة » ! .

فأما النقطة الأولى ؛ فلا ادرى الى أيّ دراسات يشير وهو لا شك يشير الى دراسات حديثة كتبها الباحثون خلال الأربعين عاماً المنصرمة أى بعد أن اصدر « المقتطف » عدده الخاص عن « المتنبّى » بقلم الاستاذ محمود محمد شاكر سنة ١٩٣٦ م /١٣٥٤ هـ . والاستاذ شاكر بالطبع ليس « شيعيّاً » بالمفهوم الذى عناه وقصده وتعمّده الاستاذ الشمّرى ! ولا اعرف ـ أو على الأصحّ لم أقرأ بعد ـ أيّ دراسة حديثة لكاتب من « طائفة الشيعة » قبل كتاب « شاكر » لا دراسة عادلة تتحرّى الأمانة والصدق وتضع المتنبى فى مكانه اللائق مدحا واطراءاً ، ولا دراسة تتجاوز الاطراء والمدح الى ما هو « ابعد من ذلك بكثير » وأنا لا ادّعى ولا أزعم ان كاتباً « شيعيّاً » فى عصرنا الحديث الذى نعيشه لم يكتب كتاباً أو دراسة عن المتنبى وتجاوز فيه المدح والاطراء « الى ما هو أبعد من ذلك بكثير » وقرأه الاستاذ الشمّرى ، بل أنفى علمى بذلك . وربّما استبعد أنّه قد وقع ؛ وإذن

أفما كان من واجب الاستاذ الشمّرى أن يُسَمِيّ كاتب هذه الدراسة أو اصحاب تلك الدراسات من « طائفة الشيعة » بل وأن يحدّد « التجاوز » الى « ما هو أبعد بكثير من المدح والاطراء » وقد جعله هو نفسه « إمبراطوراً » على الشعر والشعراء ، هل قال احدهم انه « نبيّ حقاً » أو زعم انه « قد ادّعى الألوهية » ؟ أم أن « زيديّاً » زعم فقط انه كان سليم الفطرة مؤمناً بالله حنيفاً مسلما . وهل يعدّ ذلك «تجاوزا » للاطراء والمدح بكثير ؟ .

هذا أوّلا : وأمّا ثانيا ـ فلا ادرى أي طائفة أو فرقة ممن يسميهم علماء الملل والنحل « الشيعة » قد قصد الاستاذ الشمّرى ؟ هل « الكيسانية » ومنهم « الهاشمية » و « الرزامية » و « المختارية » ، وكلّ فرقه تنقسم الى عدّة فرق ؟ أم « الزّيدية » التى يعلم الاستاذ انى انتمى الى احد فرقها ؛ ومنها « الجارودية » ـ استعيذ بالله من بعض مزاعمها ـ و « السليمانية » و « الصالحية » و « البترية » و « الهادوية » وبعض فرقها تنقسم الى عدّة فرق أيضا ؟ أم انه قد عنى « الامامية » وقد ذكر « الشهرستانى » منهم سبع فرق منها « الجعفرية » و« الاسماعيلية » و « الموسوية » ، و « الأثنا عشرية » ؟ أم « الغالية » والمشهور منهم احد عشر فرقة « كالسبائية » و « المغيرية » و « النصيرية » ؟ فأى فرقة من طائفة الشيعة قد اراد ، فانّ منهم ـ شأنهم شأن سائر الفرق ـ من ضلّ وغالى فهلك ومنهم من برّ واعتدل فنجا تصديقاً للحديث الشريف .

ونحن « الزيود » سواء « الصالحية » « او السليمانية » أو « البترية »

أو الهـداة من « الهـادوية » لسنـا من « الغـلاة » أو « البـاطنية » أو « الروافض » ؛ بل و « الزيدية » عموما هم أقرب فرق الشيعة الى من يسمونهم أهل « السنة والجماعة » وإمامهم « زيد بن على بن الحسـين » رضى الله عنه اجمعت كل الفرق الاسلامية على اجلاله والثناء عليه وهو استاذ الامام « أبو حنيفة » ، وخرج معه وأيد إمامته جلُّ علماء وفقهاء ، وفضلاء عصره ، ويا ليت الاستاذ الشمرى يقرأ كتاب « الزيدية » تأليف الدكتور احمد محمود صبحى استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة الاسكندرية وهو فى سبعمائة وثمانية وستين صفحة ، ولم يُكتب مثله فى بابه إحاطة ودقّة وانصافا وتجرّداً ، ومن قبل عالم ليس « زيديّاً » ولا يتعصب لهوى . هذا بالنسبة لما ورد فى النقطة الأولى .

وأمـا نقطـة الاستـاذ « الثـانية » : فكان عليه ان يذكر من هو هذا « البعض » من « كتاب الشيعة » الـذين حاولـوا أو « يحاولـون » بكلّ « اجهاد عقلى » أن ينفوا عن المتنبى تهمة ادعائه النبوّة والذى اعلمه ـ ولعل الاستاذ يعلمه ـ أن أول من دحض تلك التهمة وأبطلها عقلا ونقلا من كتاب هذا القرن هو الاستاذ الجليل محمـود محمـد شاكر فى كتابـه « المتنبى » الذى نشر السفر الأول منه سنة ١٩٣٦ م ـ ١٣٥٤ هـ . كما ذكرنا ، ثم فى النقاش الذى دار بينه وبين الاستاذ سعيد الافغانى فى مجلة « الرسالة » ـ نفس العام ـ وقد اثبت مقالات ذلك الحوار استاذنا شاكر فى السفر الثانى من كتابه المذكور، وبعد صدور كتاب « شاكر » بستة اشهر أى قبل سبعة وأربعين عاما من عامنا هذا الف الدكتور عبد الوهاب عزّام

كتابه « ذكرى ابى الطّيب بعد الف عام » ثم الّف الدكتور طه حسين كتابه « مع المتنبى » ووقف الاستاذ « شاكر » منه الموقف المشهور ، وجاء آخرون فألفوا كثيرا من الكتب عن « المتنبى » ولم يكن الاستاذ محمود محمد شاكر ولا يمكن أن يكون ، من كتاب « طائفة الشيعة » وبالمفهوم الذى عناه ذيبان الشمرى بل هو من أئمة أهل السنة ، وكذلك ليس الدكتور عزام ، ولا الدكتور طه حسين من « الروافض » أو « الغلاة » . وإذن فمن ذا يقصد الاستاذ الشمرى بالتحديد ؟

وأما النقطة الثالثة فهى على أهميتها مقتضبة مجملة إجمالاً مخلاً باسلوب النقاش ، ولا يقرّها المنهج العلمى والحوار المنطقى ، فمن هم الكتاب المذكورون ؟ أما كان من الواجب عليه أن يذكر اسم واحد منهم على الأقل ؟ لنعلم هل هم من طائفة « الشيعة أم لا ؟ ولنعرف هل الذى قال أو كتب أو حاول تلميحاً أو تصريحاً فى دراسةٍ ما ، أن يثبت « أن المتنّبى لم يكن بمجهول النسب أو انه ينحدر من أكرم العائلات » قد فعل ذلك قبل الاستاذ محمود محمد شاكر سنة ١٩٣٦ م .

أنّنى اعلم ـ وأظن الصديق الشمّرى يعلم ـ أن اول من تشكك فى نسب المتنّبى تشككا لا ليهدم حسبه أو يجعله وضيعاً بل ليرتفع به الى مرتبة سامية هو استاذنا العالم الشاعر الناقد المفسرّ المحدث الكاتب المبدع محمود محمد شاكر ، ولا اعلم ـ بل ولا يعلم الاستاذ الشمرى فيما أظن ان احداً قد اشار وأيّد وأثبت ان نسب احمد بن الحسين المتنبى ينتهى الى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه قبل محمود محمد شاكر .

والاستاذ شاكر يقول فى كتابه « والقول بأن المتنبى « علويّ النسب » قولٌ لم يسبقنى اليه أحد من القدماء ولا المحدثين ، ولا جاء به خبر يدلّ عليه ، أو يعين على افتراض هذا الفرض من قريب أو بعيد » : السفر الأول قصة هذا الكتاب ص ـ ٦٩ ـ أما كيف جاء وكيف صار جزءاً من « عمود صورة المتنبى » بل هو الصورة كلّها فان الاستاذ شاكر قد شرح ذلك وفصّله فى كتابه وهو ما لو قرأه الاستاذ الشمرى لعرف أنّ بعض « العلويين » فى الشام والكوفة هم الذين طعنوا فى نسبه وان الكثير من « الشيعة » وبالمفهوم الذى يعنيه الاستاذ هم الذين ظلموا « المتنبى » وتاريخه وشعره ولذلك هجا من عرفهم وعاصرهم منهم بمثل قوله :

وفارقت شرّ الأرضِ أهلا وتربةً بها « علوىّ » جدّه غير هاشم

وقال وهو يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوى يعرّض بهم وكانوا قد نصبوا له كمينا ليقتلوه فى قرية بالشام من اعمال « حلب » :

أتانى وعيدُ الأدعياء وأنهّم
أعدّوا لى السودان فى « كفر عاقب » .
ولو صدقوا فى جدّهم لحذرتهم
فهل فيَّ وحدى قولهم غير كاذب ؟

مع انه يقول فى مدح طاهر العلوى من نفس القصيدة :

كذا الفاطميون الندي فى بنانهم أعزّ امحاءً من خطوط الرواجب
اولئك أحلى من حياةٍ معادةٍ واكثر ذكرا من دهور الشبائب
نصرت عليا يابنه ببواتر من الفعل لا فلٌّ لها فى المضارب

اذا لم تكن نفس النّسيب كأصله فماذا الذى تغنى كرام المناصب !
اذا علـويّ لم يكن مثـل طاهر فما هو الاّ حجـة للنواصب !

ومن يتذوق هذا الشعر يحسّ أن الشاعر انما يمدح ذويه وأهله بل ونفسه ، ويتبرّؤ من الادعياء واللؤماء ، واستاذنا شاكر كان قد قرأ جلّ إن لم يكن كلّ ما كتب عن المتنبى وتذوّق شعره تذوق المدرة الالمعى الشاعر العالم الناقد حتى اهتدى الى سر الأسرار فى حياة المتنبى وكأنما اكتشفه وبعثه من جديد ولذلك قال الاستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كلمته التى نشرتها مجلة « الرسالة » يقرظ بها كتاب شاكر عن المتنبى : « كان الرجل « يعنى المتنبى » مطويّا على سر ألقـي الغمـوض فيه من أول تاريخـه « يعنـى علويته » وهو سرّ نفسه ، وسرّ شعره ، وسرّ قوته ، وبهذا السرّ كان المتنبى كالملك المغصوب الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعا ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفّف والغموض ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل » .

ومن هذا السرّ بدأ كاتب المقتطف « يعنى الاستاذ شاكر » فجاء بحثه يتحدث فى نسق عجيب « متسلسلاً بالتاريخ كأنّه ولادة ونمـو وشبـاب ، وعرض بعد ذلك شعر المتنبى عرضا خيّل اليّ أن هذا الشعر قد قيل مرة اخرى من فم شاعره على حوادث نفسه واحوالها » الرسالة ـ ١٣٢ ـ شوال سنة ١٣٥٤ هـ . ١٣ يناير سنة ١٩٣٦ م .

ومع ذلك فقد نشر الاستاذ شاكر فى السفر الثانى من كتابه المتنبى ثلاث تراجم لم تنشر من قبل ؛ والأولى نقلها عن كتاب « بغية الطلب » لابن العديم المتوفى سنة٦٦٠ هـ . وقد جاء فيها : [٢٥٢ ـ السفر الثانى] .

« وكان مولده بالكوفة فى كنده سنة ثلاث وثلاثمائة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » فعلّق على ذلك الاستاذ شاكر بقوله : « هذا خبر الربعى صاحب المتنبى الذى جاء فأيد قولى فى علويّة ابى الطيب وكنت استخرجت هذا القول استخراجا من دراسة ديوانه ، بلا دليل قاطع فى الرواية إلاّ ما رواه البغدادى فى الخزانة عن الاصفهانى من أن المتنبّى « اختلف الى كتّاب فيه اولاد ـ اشراف الكوفة » فالمتنبّى إلاّ يكن علويّا كل العلوى فانه اخوهم من الرضاع ، و« آل عبيد الله » هم بنو عبيد الله بن على بن عبدالله بن الحسين ابن علي بن الحسين بن علي بن ابى طالب ومنهم العلوى الذى مدحه المتنبى صغيرا وهو الأشتر أو المشطّب « أبو الحسين محمد بن عبيدالله بن عبدالله بن الحسين » .

وجاء فى ترجمة ابن العديم ما يلى :

« قال الربعى : وقال لى المتنبى : « كنت احبّ البطالة وصحبة البادية ، وكان يذم اهل الكوفة لأنهم يضيّقون على انفسهم فى كل شىء حتى فى الاسماء فيتداعون بالالقاب ولماّ لُقِّبْتُ بالمتنبى ثقل ذلك علي زماناً ثم الفته » . وقد علق على هذا الاستاذ شاكر بقوله : « وهذا أيضا خبر جديد مهم جدّا فى سبب تلقيبه « المتنبى » وكلّ اخبار الربعى مهمة » وإنما قال استاذنا شاكر انه « خبر جديد مهم » لأنّه عندما كتب كتابه عن « المتنبى » لمجلة « المقتطف » لم يكن قد اطلع على ترجمة ابن العديم للمتنبى فيؤيّد بها شطبه ودحْضه لتهمة إدعاء ابى الطيب للنبوّة ، لأن ما قاله المتنبى نفسه يعلل السّبب ويؤكد انه لقب بهذا اللقب وهو لا يزال يافعا

فى « الكوفة » ولا علاقة له بسجنه وتهمة ادعائه النبوّة ، وكان الاستاذ شاكر قد تحدث حديثا ممتعاً طويلا فى كتابه « المتنبى » (السفر الأول) ـ عن نشأة المتنبى ونسبه وحججه فى اثباته الى على عليه السلام وعن شدّة اثر هذه النسبة فى حياته ، وعن أم المتنبى وجدته وعلاقتهما بالعلويين وبأسلوب منطقى رصين كاد الرافعى وهو هو ، أن يحسبه عين اليقين ؛ فليراجعه من يودّ الافادة ، أو من يريد أن يتذوق شعر المتنبى تذوقاً سليما . « المتنبى السفر الأول ص ١٣ ـ ٧٦ ـ » .

غير انى سأختم هذا المقال بنبذة مما قاله الاستاذ شاكر حول الموضوع : « اقرأ ديوان الرجل كلّه تجده تياهاً يتسامى بنفسه على كلّ ممدوح ويتعالى على كل اهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سخريته وهو قد قطع أرزاقهم ، وألوى بهم وبذكرهم ، وكلامه كلام الواثق الذى لا يدخله الشك ولا يروعه الكذب ، ولا يردّه الافتراء ، فلو كان فى نسب الرجل اذ ذاك ، مطعن لطاعن ، أو فى اصله تهمة لمتّهم ، لتردّد فى قوله تردّد الحيران ، ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والهمهمة والتلفيق والدس عند الأمراء ومن اليهم من رجال الدولة ، ولو كان فى نسب الرجل شىء لسمعت عند كل موضع من فخره فى شعره نادرة يتناقلها الأدباء ، وغمزة قد غمزه بها انداده واعداؤه من الشعراء ، الم يسمع هؤلاء الى قوله فى فخره :

لا بقومى شرفتُ بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كلّ من نطق الضاد وعوذُ الجانى وغوث الطريد

فهذا من اكبر الفخر ، فما من قوم يفخر بهم « كلّ من نطق الضّاد »

غير ابناء علي رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ « ص ـ ٣٥ ـ ٣٦ » .

وما اظن ان الاستاذ الشمّرى حين يقرأ هذا الكلام سيعتبر الاستاذ محمود شاكر من « كتاب طائفة الشيعة » أما أنا ـ وقد صنفنى من « مدرسة شاكر » ـ ويا ليتنى كنت حتّى احد تلاميذه ـ فأنا « زيدى » و« شيعى » بهذا المفهوم الاسلامى الذى صرّح به استاذنا شاكر ، والطّيبون الأخيار من أبناء علي بن ابى طالب وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ هم أجل من يفخر بهم « كل من نطق الضاد » وليرحم الله الإمام محمد بن ادريس الشافعى فله فى هذا الموضوع شعر بديع . وأنا « كزيدى » مسلم ابرؤ الى الله والحق والاسلام مما يقولوه « الغلاة » و« الرافضة » و« النواصب » .

وإذن فماذا قصد الاستاذ الشمرى بهذا الابهام والايهام فى مقالته ؟ ومن هم كتاب « طائفة الشيعة » وما أسماء كتبهم التى ألّفوها قبل كتاب « شاكر » سنة ١٩٣٦ م ـ ١٣٥٤ هـ . ؟

وهل ذلك الابهام والايهام وعدم اسناد الروايات من أساليب الكتابة العلمية والحوار المنطقى ؟ أم أنه فقط قد قصد التهويل والتخويف لكى يصل الى هدفه المشار اليه ، ويغطّى « مناورته الانسحابية » ؟ ولكن هيهات .

نعم لا جدال ان المتنبى كان شيعيًا ؛ ولكن من أى اصناف الشيعة كان ؟ وما هو المفهوم الأدبى والدينى الذى يقصده أى مؤرخ للأدب العربى قديماً وحديثاً اذا قال : ان المتنبى كان شيعيًا ؟ .

وذلك ما قد نتعرض لذكره فى مقال الاسبوع القادم عندما نناقش تلك الرواية الغريبة العجيبة التى اوردها الاستاذ ذيبان الشمرى دون اسناد الى مؤلّف أو مؤرخ أو حتى كتاب والتى تقول : « أن ثمة قولاً متواترا لدى البعض من ادباء الشيعة ان المتنبى هو ابن الإمام الغائب محمد المهدى نجل الامام محمد بن الحسن العسكرى » فالى اللقاء إن شاء الله .

بروملى : ١٩٨٣/٩/١٤ م ـ ١٤٠٣/١٢/٧ هـ .

المتنبى : شاعر مكارم الأخلاق

الرواية العجيبة .. من رواها ؟ وفى أي كتاب ؟ .

لو أسندها الشمرى الى مؤرخ قالها قبل شاكر لأضافت شيئا جديدا !

هل قصد بطريقة سردها السخرية ؟ .

هل إهمال إسناد الأقوال الى اصحابها من « المألوف فى الأبحاث الموضوعية » ؟ .

من المحال أن يكون الطوسى قد قال أن المتنبى ابن محمد بن الحسن العسكرى .

المتنبى سخر من « رجعة » العسكرى !

كتاب الأصبهانى « مقاتل الطالبين » سجلّ دامى !

قصة القاسم بن ابراهيم الزيدى !

هل كان المتنبّى زيديًا ؟ .

قبل أن أناقش الرواية العجيبة الغريبة التى أوردها الاستاذ ذيبان الشمّرى دون أن يسندها الى كاتب معروف ، أو الى كتاب معينّ ، والتى زعم أنها تقول أنّ أبا الطّيب احمد بن الحسين المتنبى هو ابن الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية وهو الذى يزعمون انه المنتظر والقائم والمهدى محمد بن الحسن العسكرى : لابد من الإشارة الى انّه قد مهّد لذلك بتأكيد

اهمّ ما بنى عليه خطة « مناورته الانسحابية » ، وهو التراجع عن اتهام المتنبّى بضعَةِ النسب كما بيّنت فى مقال الاسبوع المنصرم فقال من جديد : « لقد سبق لى أن قلت فى مقالة أو مقالتين من سلسلة المقالات التى كتبتها عن المتنبى ، أنّنى لا اهتم ولن أهتم بأصله ونسبه ، وأنّ كونه ينحدر من أصل وضيع أو أصل رفيع ، أمر ليس بذى بال بالنسبة اليّ » وهو بهذا التأكيد انمّا يريد أن يثبت أن أبا الطيب قد ادعى النبوّة وانه سجن لذلك وليس لأنّه اظهر نسبه الى الحسن بن علي رضى الله عنهما وبالتالى يثبت تهوّر الرجل وحماقته وجنونه والحاده ، وكل ما الصقه به من تهم سبق تفنيدها وإبطالها عقلاً ونقلاً . وليس هذا فحسب بل وليحمل حملة شعواء على من يقولون أن المتنبى كان « علويًّا » واستنبط ذلك من شعره ، وكان أوّل من قاله وسبق اليه من الكتّاب هو الاستاذ محمود شاكر كما أسلفنا ، أو على من يقول أن المتنبى كان حنيفاً مسلماً مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو ما أكدته ، واثبته بشواهد صريحة من ديوان شعره . مبطلاً كلّ تخميناته التي حلّل بها « اخلاقية المتنبى وانفعالاته ونرجسيته الواضحة فى استعلائه على البشر واعجابه الشديد بنفسه بل عبادتها « فى هيكل الغطرسة والغرور » ، حسب التعابير الشمرية . ولـكى يصـل إلى هدفه بعد هذا التمهيد قال : « ولقد لاحظت فى متابعتى للدراسات التى كتبها الكتاب الأفاضل من الشيعة عن المتنبى [لم يقل من هم ؛ وبالطبع لا يقصد شاكرا ولا عزّاماً ولا طه حسين ولا سعيد الأفغانى] ان البعض منها إن لم اقل معظمها قد استعاض عن هدوء الموضوعية بنوع من تعصّب

بعيد عن العلم والروح العلمية ، اذا أنه يتلظّى بسورة شديدة فى حرارتها المذهبية ، الأمر الذى احترتُ فيه فى اوّل الأمر ، وأخيراً عثرت على تفسير قد يكون هو التفسير المنطقى المقبول لتلك الحميّا غير المألوفة فى الأبحاث الموضوعية فى الأدب أو الفلسفة أو الفن » ثم يقول : « ومفاد ذلك التفسير ان ثمّة قولا متواترا لدى البعض من ادباء الشيعة ان المتنبى هو ابن الإمام الغائب محمد المهدى نجل الامام محمد بن الحسن العسكرى [هكذا وهو خطأ مطبعى فإن محمد بن الحسن هو الغائب والثانى عشر وليس هناك محمد بن محمد] وأن المشرفين على نشأته قد حرصوا ، كما حرص هو بالذّات على كتمان نسبه تحت ضغط الظروف التاريخية التى احاطت به وبالحركة الشيعية التى يرتبط بها ، ويقولون ، أىّ بعض الكتاب من الشيعة أن الإمام الثانى عشر محمد المهدى قد تواجد فى عام ٣٠٢ هـ . فى الكوفة ، وأنّه تزوج فى ذلك العام بصورة سرية وكان يوم ذاك فى السادسة والأربعين من عمره ، وأنّه قد ولد له ولد هو أبو الطيب المتنبى فى عام ٣٠٣ هـ . ، ويقولون انّه تردّدت فى ذلك العصر تقوّلات عن أن للإمام الغائب ولدا ، وأن تلك التقولات قد امتدت عبر الزّمن حتى بلغت مسمعى الطوسى صاحب الكتاب الشهير بعنوان « كشف الغمّة فى معرفة الأئمة » . ويقولون أيضاً أن الطوسى وهو شيخ طائفة الشيعة فى عصره ، على الرغم من أنّه دلّل على عدم جواز وجود إمام ثالث عشر ، لأن جوهر مذهب الإمامية قائم على « الاثنى عشرية »، أيّ على أن لطائفة الشيعة اثنى عشر إماما بمن فيهم الإمام الغائب محمد المهدى والد المتنبّى كما يزعمون ، فان الطّوسى لم ينف

وجود ولدٍ للامام الغائب ، ويقولون أيضاً أنّه حفاظاً على حياة المتنبى عهدوا بتربيته الى شيخ طاعن فى السنّ يدعى عيدان السقاء ؛ تلك رواية متواترة لدى بعض الكتاب من الشيعة ولعلّها تفسرّ تلك الحميّا المذهبية التى نحسّ بحرارتها اللّفوح عندما نطالع دفاعهم ودفوعهم عن المتنبى » . ثم قال الاستاذ الشمرى : « والحق أنّنى لم اكن ارغب فى ايراد تلك الرواية التى تتحدّث عن المتنبى بوصفه ابناً لمحمّد المهدى الإمام الغائب عند الشيعة لو لم يكن فى الرواية المذكورة شيء من طرافة قد ترفه عن القارىء ، وقد تضيف جديداً الى الأقوال والأقاويل عِن المتنبى الذى ملأ الدنيا وأشغل الناس » . انتهى كلام الاستاذ ذيبان الشمرى . وهذه الرواية الغريبة العجيبة التى تجعل المتنبّى احمد بن الحسين ابناً شرعياً للمهدى المنتظر القائم الغائب فى معتقد الشيعة من طائفة « الإمامية » لو انّه اسندها الى مؤلف أو عالم قالها أو عُرفتْ عنه ، أو نشرها ، قبل كتاب مجلة « المقتطف » بقلم الاستاذ محمود شاكر الصادر فى يناير سنة ١٩٣٦ م شوال ١٣٥٤ هـ . لكانت من الأهمية الأدبية والتاريخية بمكانة لا يصحّ أن يصفها الاستاذ بقوله « فى الرواية شيء من طرافة قد ترفّه عن القارىء » ، لأنها كانت حقاً « ستضيف جديداً » ، وجديداً خطيراً أرهق أديبٌ كبير وعالم فذّ مثل محمود شاكر نفسه ارهاقاً شديداً ، واعنتها تنقيباً وقراءة واستنباطاً حتى يثبت « علويّة » المتنبى . وليس له من دليل نقلى أو تاريخى الاّ انه نشأ بالكوفةودرس فى كتاب لأولاد الأشراف ، أو أنّ إمرأة علوية قد ارضعته ! أو ما استيقنه مما يوحى به شعر الرجل وان « كل من نطق الضاد

يفخرون بقومه » وهى منزلة لا يدّعيها غير أولاد علي عليه السلام وفاطمة بنت رسول الله ﷺ .

لو أن الاستاذ الشمّرى اسند هذه الرواية الى كتاب تاريخى أو الى كاتب نشرها فى كتاب أو مقال قبل كتاب الاستاذ شاكر لبطلت دعوى شاكر بأنّه أوّل من قال ان المتنبى « علوىّ النسب » ، وان أحداً « لم يسبقه اليه لا من القدماء ولا من المحدثين ، ولا جاء به خبرٌ يدلّ عليه أو يعين على افتراض هذا الفرض من قريب أو بعيد » [المتنبى ص ٦٩ ـ سفر أول] وأظن ان استاذنا شاكر لم يقل ذلك إلا وهو على بصيرة ، وبعد أن قرأ كل ما كتب عن المتنبى ، وكل شروح ديوانه المعروفة ما طبع منها وما لا يزال مخطوطا ، بل وجلّ تراجمه فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ والسّير . ولو أنّه قد ظفر بهذه الرواية أو اطلع عليها أو بلغتْه هلّل لها وكبّر واغتبط وانشرح صدره لأنّها ستؤيد ما زعمه وذهب اليه دون خبرٍ يدلّ عليه أو يعين على افتراضه » غير ما قيل من أن المتنبى قد ادعى نسبته الى الحسن بن علي عندما ادّعى النبوة وغير ما استنبطه من شعره وهو يفنّد اسطورة ادعاء المتنبى للنبوة وابطالها ، بل ولكانت هذه الرواية جديدة على مثلى وقد قرأت الكثير مما كتبه الناس قديماً وحديثاً عن المتنبى .

وأنا لا انفى ان الاستاذ ذيبان الشمرى وهو أديب واسع الاطلاع قد وقف على ما لم اقف عليه واطلع على ما لم يصل الى يد الاستاذ شاكر ، ولكن أما كان على الاستاذ الشمرى أن يسند الرواية وأن يقول لنا من قالها ؟ وفى أى كتاب اطّلع عليها ؟ وهل هذا أو ذلك الكتاب أُلّف أو نشر

قبل كتاب الاستاذ شاكر أى قبل سنة ١٩٣٦ م ـ ١٣٥٤ هـ . إذ أنّ أىّ قول يُراد منه إثبات أو تأييد القول بأن « المتنبى » علوىّ النّسب ، ينتسب الى الحسن ، أو الى الحسين ، أو من أولاد الهادى أو المهدى المنتظر أُلِّفَ أو نشر بعد كتاب « شاكر » لا يثبت ولا يؤيد الاّ النظرية التى كان « شاكر » أوّل من اشار اليها ، وحاول التدليل على ثبوتها وكانت قبله سر من الأسرار كما قال الرافعى .

ولقد أورد الاستاذ الشمّرى الرواية الغريبة بطريقة لا يريد من وراءها « الترفيه على القارىء لطرافتها » ولا لأنها « قد تضيف جديداً الى الأقوال والأقاويل عن المتنبى كما قال . بل قد قصد بها اكثر من ذلك السخرية ممن سمّاهم « الكتّاب الأفاضل من الشيعة » الذين هم أو « البعض منهم » حسب تعبيره ـ يستعيضون فى دراساتهم « عن هدوء الموضوعية بنوع من تعصب بعيد عن العلم والروح العلمية ،إذ أنه يتلظّى بسورة شديدة فى حرارتها المذهبية » ـ أو كما قال ـ بتلك « الحُميّا غير المألوفة فى الأبحاث الموضوعية فى الأدب أو الفلسفة أو الفن » ! لقد أراد الاستاذ الشمّرى ذلك ، ولكنّه وقع فيما هو أبشع من « التعصّب المذهبى » ، وفيما هو غير « مألوف فى الأبحاث الموضوعية » ولا معروف ولا يقرّه الاسلوب العلمى أو الأدبى .. حين قال : « إن ثمة قولاً متواترا لدى البعض من ادباء الشيعة ان المتنبّى هو ابن الامام الغائب محمد المهدى » ثم لم يذكر اسماء هؤلاء الأدباء بل ولم يذكر واحداً من اولئك « البعض » ! فهل هذا من « المألوف » فى الأبحاث الموضوعية » ؟؟! ثم يغلو به الابتعاد

عن « الموضوعية » ويقول « ان بعض الكتاب يقولون أن الامام الثانى عشر محمد المهدى قد تواجد فى عام ٣٠٢ هـ . فى الكوفة وتزوج بصورة سرية وقد ولد له ولد هو ابو الطيب المتنبى فى عام ٣٠٣ هـ . الخ » ! ومرة ثانية لا يسند الرواية الى كتاب ، ولا كاتب بل الى « البعض » ، مع ان المعروف المشهور المتداول فى كتب « الإمامية » وسائر « الشيعة » ، بل وعند العلماء والمؤرخين وعلماء الملل والنحل كالشهرستانى وياقوت وابن خلّكان ، ان محمد بن الحسن العسكرى الذى تزعم « الامامية » انه « المهدى المنتظر » وصاحب الزمان » قد ولد سنة ٢٥٥ هـ . توفّى والده الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ هـ . الذى هو فى معتقدهم الامام الحادىْ عشر فتوجّهت الإمامة الى ابنه محمد وهو ابن خمس سنين وفى سنة ٢٦٥ هـ . وعمره تسع سنين دخل السرادب فى دار ابيه وأمه تنظر اليه فلم يعد يخرج اليها [انظر وفيات الاعيان لابن خلكان جـ : ٤ : ص ١٧٦] و « العلويون » و « الإمامية » يسمّونه الحجة والمهدى والمنتظر وصاحب الزمان وخاتم الأئمة والأوصياء !! ولا اعلم أحداً قال انه قد « تواجد فى عام ٣٠٢ هـ . فى الكوفة وتزوّج بصورة سرية وولد له « احمد بن الحسين » أبو الطيب المتنبى » كما ذكر الاستاذ الشمّرى فى روايته العجيبة الغريبة التى قال انها رواية متواترة » ! أفما كان من واجبه وهو ينحى باللّائمة على « الكتّاب الأفاضل » الذين يبعدون عن « الروح العلمية » و « المألوف فى الأبحاث الموضوعية » ويستعيضون عنها بالتعصّب المذهبى وحميّا الطائفية » ان يسند هذه الرواية ويذكر من هو الذى قال أو زعم ان

محمد بن الحسن العسكرى قد ظهر بعد أن دخل السرادب بسبعة وثلاثين عاما ؟ .

والأغرب والأبعد عن « المألوف والمعروف » فى « الأبحاث الموضوعية فى الأدب أو الفلسفة أو الفن « أن الاستاذ الكريم قد زعم « أن تلك التقوّلات قد امتدت عبر الزمن حتى بلغت مسمعى الطوسى صاحب الكتاب الشهير بعنوان كشف الغمّة فى معرفة الأئمة » وأنه ـ أى الطوسى ـ « لم ينف وجود ولدٍ للإمام الغائب » رغم انه قد « دلّل على عدم جواز وجود إمام ثالث عشر » وقد أورد الاستاذ الشمرى الخبر مكتفياً بعبارة : « ويقولون » أو « ويقولون أيضاً » أمّا من هو الذى قاله ؟ وفى أية زمان أو كتاب ؟ فلا اهمية له فى نظره وهذا غريب عجيب من كاتب باحث ناقد مثل الاستاذ ذيبان الشمرى !

ولعله عنى بالطوسى « شيخ طائفة الشيعة فى عصره » حسب تعبيره أبو جعفر الطوسى المتوفى حوالى سنة ٤٥٩ هـ . [١٠٦٧ م] وكان من أكابر علماء الإمامية فى عصره ومن مؤلفاته « تهذيب الأحكام » و« الاستبصار » وهما من الكتب والمراجع الأساسية عند الشيعة الإمامية .

وأعتقد أنّه من الصعب على الاستاذ الشمرى أن يوجد نصًّا للعلامة « الطوسى » يقرّ فيه أنّ « المهدى محمد بن الحسن العسكرى » الذى هو عند الإمامية الإمام الثانى عشر قد تواجد فى الكوفة عام ٣٠٢ هـ . بعد أن دخل السرادب واختفى بسبعة وثلاثين عاما وعمره ستة واربعون سنة كما يقول الاستاذ .

ان هذا فى نظرى صعب جداً ؛ أما أن يورد نصًّا للطوسى يقول فيه : « ان الإمام المذكور قد تزوّج بابنة عيدان السقاء « وأنه قد ولد له ولد هو أبو الطيب المتنبى » فهو من المحال ، أو فانّه سيكون « فتحاً » تاريخياً يقلب كل الدراسات عن المتنبى رأساً على عقب ويؤيد ما ذهب إليه الاستاذ محمود شاكر بقراءته الواعية لشعر ابى الطيب واجتهاده واستنباطه الذى لا يستند الى خبر يدل عليه أو يعين على افتراضه .

أما أن يأتينا الاستاذ الشمرى برأى لكاتب أو أديب أو باحث قد زعم هذا الزعم [ان المتنبى هو ابن المهدى صاحب الزمان] ولم ينشر او يؤلف هذا الرأى الاّ بعد أن صدر كتاب شاكر سنة ١٩٣٦ م ـ ١٣٥٤ هـ . فهو استنباط من كلام شاكر ، ولا قيمة له تاريخياً ، ويشبه تخمينى الذى ذكرته فى احدى مقالاتى السابقة وقلت فيه انى لو جاريت « المخمّنين » وبطريقة الدكتور طه حسين لزعمت ان « المتنبى » هو ابن للعلوي أو « الطّالبى » الذى قال الطبرى انه خرج بواسط سنه ٣٠٢ هـ . واستشهد ولم يذكر اسمه . وعلى كلّ فقد كان من واجب الاسلوب العلمى والأدبى ان يذكر الاستاذ اسم الكاتب الذى زعم ذلك سواء كان شيعياً امامياً أو شيعياً زيدياً أو كان من أهل السنة والجماعة ، أو من المستشرقين فكل ذلك لا يهمّنا ما دمنا نبحث عن الحقيقة وبالاسلوب العلمى المألوف .

وإلى أن يقول لنا الاستاذ من هم الذين زعموا تلك المقولات أو التقوّلات من الكتاب الأفاضل اقول جازماً بأنها لا يمكن أن تكون من أقوال « الطوسى » ولا من أقوال علماء الإمامية الأوائل ، ولم يتفوّه بها كاتب

معروف قبل كتاب الاستاذ محمود شاكر ولو كان ذلك قد حصل لما خفى على شاكر والرافعى وعزام وطه حسين وبلاشير وماسينون وبروكلمان وشوقى ضيف وأحمد أمين وغيرهم ممن كتب الأحاديث الطويلة عن المتنبى .

المتنبى سخر من رجعة العسكرى

ومهما كان مصدر هذا القول فانّ صاحبه لم يقرأ سيرة المتنبى بل ولم يتذوق شعره فبالرغم من أنّه قد نشأ فى بيئة « شيعية » بل وكان نفسه من شعراء « الشيعة » وتأثر بسيف الدولة الشيعى ، والذى ربما كان مثل ابن عمّه أبى فراس » إماميًّا ، ومدح ابن العميد وهو شيعى ، وأطرى بنى بويه وهم إماميون . فإن المتنبى كان لا يقول برجعة المهدى بل ويعرّض بسخافتها ، وقد صرّح بذلك فى قصيدته التى ودّع بها ابن العميد سنة ٣٥٤ هـ . [السنة التى استشهد فيها] والتى مطلعها :

نسيت وما انسى عتاباً على الصدْ ولا خفراً زادت به حمرة الخد

فقال :

فان يكن « المهدى » من بان هديه
فهذا ، والاّ فالهدى ذا ، فما المهدى ؟
يعلّلنا هذا الزمان بذا الوعد
ويخدع عماّ فى يديه من النقد !
هل الخير شىء ليس بالخير غائب
أم الرشد شىء غائب ليس بالرشد ؟

فتأمله يقولها صريحة : « ان كان المهدى الموعود هو من ظهر سمْته وصلاحه وهداه فهذا الذى نراه ـ أى الممدوح ـ الذى هو ابن العميد وليس من أولاد الحسن ولا الحسين رضى الله عنهما ـ هو المهدى الموعود الذى يظهر ويملأ الأرض عدلا كما مُلئت جوراً وظلما ـ وإن لم يكن هو المهدى الموعود فالذى نراه من تقواه وحسن سيرته هو الهدى كلّه فما معنى المهدى بعد هذا » ؟ [هكذا شرح البيت ألبرقوقى] ثم قال : « يعلّلنا ويلهينا ويشغلنا ويعدنا هذا الزمان خروج المهدى المنتظر بوعد طويل ويخدعنا عما عنده من النقد بالوعد يريد : أن الممدوح هو المهدى نقداً حاضراً ، وانتظار ظهوره خداع وتعليل ، ولا ينبغى ان يظن ان الخير والرشد المنتظرين من المهدى هما شىء آخر غير الخير والرشد الحاضرين لأن الشىء لا يغاير نفسه وإذن : فالخير والرشد ماثلان فى الممدوح ، وما ينتظر من المهدى ماثل فيه فلم لا يكون هو المهدى » ؟

أفيقول هذا من يعرف انه « ابن المهدى » ؟ وهل يرضى عن مثل هذا القول عالم أو كاتب من ابناء الطائفة « الامامية » ؟ أمّا المتنبى الراشد فقد استدرك واعرب عن رأيه فى الحاكم الصالح وحدّد صِفاته فى البيتين التاليين :

أحــزم ذى لبٍّ ، وآكرم ذى يدٍ   وأشجع ذى قلب ، وأرحم ذى كبْدِ
وأحســن مُعْتــمٍ جلوســاً ورِكْبةً   على المنبر العالى ، أو الفرس النهْدِ

وهذه هى اهم الشروط للزعامة عند الشيعة « الزيدية » .

لقد كان المتنبى « شيعيًا » لا ريب وكان « طالبيًا » لا بالرضاع بل

بالنسب كما اطمأن استاذنا شاكر الى ذلك قبل أن يطّلع على رواية « الأرضاع » ، وأنا أطمئن الى ذلك ايضاً ولنفس الأسباب التى أوردها ولأخرى سوف اتعرض لذكر بعضها ، ولا شك انه حفاظاً على « المتنبى » وتحت ضغط الظروف التاريخية التى احاطت به وبالحركة الشيعية التى يرتبط بها قد حرص المشرفون على نشأته كما حرص هو بالذّات على كتمان نسبه » كما قال الاستاذ الشمرى .. ولكن ليس كما روت الرواية المتواترة عن بعض ادباء الشيعة كما زعم ـ بل كما استنبط وأدرك وتخيل أيضاً الاستاذ محمود شاكر ؛ ولم يكن بدعاً خلال العهدين الأموى والعباسى أن يتوارى أبناء علي بن ابى طالب رضى الله عنه عن الأبصار ، وان يتشردوا فى الآفاق وهم يلاحقون ويطاردون ويقتلون ويذبحون ويسجنون وما قام خليفة أموى بعد معاوية ولا خليفة عباسى الاّ وعارضه داعية علوى او دعاة وقاتلوا وقتلوا، وفى كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبى الفرج الأصبهانى صاحب « الأغانى » سجل دامى لمن قتل أو عذب أو سجن أو توارى منهم والأصبهانى كان من معاصرى « المتنبى » وهو شيعى الهوى والرأى وإن كان أموى العنصر والنسب ، وقد سجّل مقاتل الطالبيين الى سنة ٣١٣ هـ . وأبى الطيب لما يتجاوز العاشرة ؛ ولقد كتم نسبه واخفى اسمه قبل المتنبى المئات من « العلويين » ولهم اخبار غريبة وأشعار مبكية ، وأقاصيص حزينة ، كتلك التى تحكى مأساة الامام القاسم بن ابراهيم [١٦٩ ـ ٢٤٦ هـ] الرسى الزيدى الذى دعا الى نفسه بعد وفاة أخيه سنة ١٩٩ هـ . وأجابه خلق كثير فى مكة والمدينة والكوفة وفارس وخرج من

الحجاز الى السودان ومنها الى مصر واقام بها متخفياً طيلة عهد المأمون وعهد المعتصم وعاد متخفيًا الى مسقط رأسه فى بلده « الـرسّ » ، قرب المدينة المنوّرة ، ولما وصلها خائفاً يترقب كان قد غاب عنهـا اكثـر من عشرين عاما وابنه الحسين بن القاسم رضيع أو جنين فى بطن أمه وحين دخل المسجد الجامع وجد حلقة علم يحدّث فيها بصوت جليل شاب وسيم الطلعة بهيّها وأصغى القاسم للشيخ الشاب واعجبه حسن حديثه ، واصالة رأيه ، وغزارة علمه ، وطلاقة لسانه وسأل احد الطلبة من هذا ؟ فقال : هذا الحسين بن القاسم بن ابراهيم الذى يطلبه الخليفة ولا احد يعرف عنه شيئا منذ اكثر من عشرين عاما ، وصلى الشيخ الشاب بالناس صلاة العشاء وحين بدأ الناس يغادرون المسجد الجامع اقترب القاسم من ابنه الحسين وحيّاه ، فردّ التحية بأحسن منها ورحّب بالضيف الغريب ولا يدرى انّه إنما يرحب بأبيه ، وعندما قال الشيخ الغريب خذنى الى البيت ، إنّنى لست غريبا ولست ضيفاً ! إنّنى أبوك ؛ أوجس الابن الحسين خيفة فى نفسه ، وخشى أن يكون الخليفة العباسى أو عامله بالمدينة قد دس من يتجسس على الحسين وأهله فيما إذا كانوا يعلمون من أمر القاسم الرسّى شيئا فقال فى حزم : والدى رحمه الله توفى قبل عشرين عاما ! فقال القاسم الا تزال والدتك فلانة على قيد الحياة ؟ قال نعم . قال : خذنى إليها وستعرفنى . فقال الابن : بل انتظر هنا حتى اعود اليك بما يقوم بأودك من شراب وطعام اوّلا .. وأسرع الى البيت وقال لأمّه : بالمسجد شيخ وقور يقول إنه والدى القاسم بن ابراهيم فهلاّ ذكرت لي علامة فى جسده لا يدرى بها احـد

سواك ؟ قالت نعم فى كتفه أثر جرح عميق لضربة سيف ، وفى صدره طعنة رمح ؛ وعاد الابن وطلب من الشيخ ان يخلع قميصه وفهم القاسم انه يريد أن يرى الطعنتين ، ولما رآهما الحسين تعانقا يبكيان ، فهذه قصة من مئات قصص توارى « العلويين » قبل المتنبى ، ولقد توارى بعد « المتنبى » وتشرد بلا اسم ولا لقب ، أو باسماء مستعارة ، الآلاف من العلويين ومن غير العلويين ، ولقد ذكر الاستاذ محمد كرد على انه حين بلغه ان الوالى التركى فى دمشق قد صدّق الحكم عليه بالاعدام هرب الى لبنان ولجأ الى فندق باسم مسيحى مستعار ، ولما تبين له ان الاسم المستعار الذى ادعاه هو اسم صاحب الفندق تركه ولجأ الى بيت « خورى » باسم مسيحى جديد ، ولبث مدة يتظاهر انه « نصرانى » وكان يغافل زوجة « الخورى » حين تقدم له كأساً من الخمر ويسقى به زهور الحديقة . وأنا اعرف أناساً من العلماء والأدباء والزعماء قد تشردوا بأسماء مستعارة خوفاً من أن يلقى القبض عليهم ، وأظن ان الاستاذ ذيبان الشمرى سيد العارفين بالضرورات التى تدفع بالزعماء والمصلحين الى التوارى والتستر وكتمان انسابهم فى كل زمان ومكان ، وفى ديوان شعرى « من اليمن » قصيدة بهذا « العنوان » جاء فيها :

كان يكنّى باسمه .

كان يقول : إنّه من الجنوب ، أو من الشمال .

وتارة من « جنوا » !

وقد يقول انه من « أسْمَرَه » !

من أىّ أرض .. لا يبالى عنه .. أن يقال ..
وكلّ ما يخشاه أو يكرهه ،
وكلّ ما يخيفه ..
بأن يقال : إنّه من « اليمن » .
فى السوق أو فى المسجد الكريم ،
فى مجمع الغوغاء أو فى المحفل العظيم ،
يغير اسمه ،
يحرّف اللهجة والكلام .
يلوى لسانه ..
يودّ ان يمحو حتّى سحنة الجدود ،
من وجهه الكريم !
ولا يبالى أن يقال إنّه من الهنود ،
أو من جبال « التبت » .. ، أو من « كينيا » ،
لأنع يخاف أن يُقال : « شافعى » ،
أو يعرفون أنّه من فرقة « الزيود » .
جاء من « اليمن » .

لعلّ قد أسهبت ، غير انى لم اخرج عن الموضوع المتعلّق بنسب المتنبى وأسباب كتمانه له ، وسجنه وخصوماته ومذهبه وكل ذلك قد اضطربت فيه الآراء والألسن بالحق وقد أيدناه ، بالباطل وقد فندناه ، واستاذنا محمود شاكر يقول : « وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظنّ بأن المتنبى كان من

أبناء العلويين ، فإن هذا يفسرّ كلّ غموض فى حياة الرجل ، وفيما روى عن نسبه من الملفّقات » ؛ ثم يقول فى تصوّر وضع قضيّته :

« تزوّج رجلٌ من العلويين ، ولا جرم ان يكون من كبارهم بنت جدّه المتنبى فحملت منه ووضعت احمد بن الحسين [وهذا الحسين غير عِيدان السّقاء الذى يمكن أن يكون جدّه لأمّه] ، ولأمر ما أريد هذا الرّجل العلويّ على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت الى أمّها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً اهلكها ، فاستلّها الموت وذهب بها ، وبقى الطفل فكفلته جدته وتعهدته وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلّته على الطريق بعد أن صرّحت له بحقيقة أمره ، وصحيح نسبته ، وكان من حزمها أن حذّرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه ، وأخذت عليه المواثيق والعهود ، بحبّها له وحبّه لها ، وانّه إن فعل كان فى ذلك هلاكها وهلاكُه ، فبقى على ذلك متملْملاً حتى كان من أمره ما كان من ادعائه العلوية بالشام ، فقبض عليه ، فاضطرّ الى الاخلاد والتسليم ، وحرص على أن يطيع أمر جدّته ، بعد أن علم حَزْمَهَا وصوابَ رأيها ، وإخلاصها له المشورة ،ومحضها له النصيحة » [ص ـ ٤٦ ـ سفر أول] .

وما تصوّره الاستاذ شاكر ورجّحه ظنه ، هو ما يتصوّره ويرجّحه ظنّى بل وما أكاد اجزم به ، لأنّه حقّاً يفسرّ « طول تكتّم المتنبّى على نسبه ويفسرّ مخرج قصة « أبيه السقاء وحرص خصومه على حبكها » ، وأودّ أن أضيف اليه ما ربّما يجعله اقرب الى اليقين ، وهو ما لم يهتد إليه استاذنا شاكر أحد أئمة أهل السنة فى عصرنا ، ولم أفطن له إلاّ لأنه قد فتح لى باب التأمل ،

ولأنى قد عاشرت شعر المتنبى وعرفت سره بل وعشته يتيماً ، وضياً ، ومذهباً ، وسجناً ، وسعادة وشقاءً ، وهو يفسّر خصوماته مع الكثير من طوائف الشيعة كالباطنية والقرامطة والغلاة وبعض الامامية ، ومع اعلام ونبلاء وشعراء الشيعة كالوزير المهلبى وابن خالويه وابن الفرات والصاحب بن عباد والحاتمى وابن الحجّاج وابى فراس وحتى الأصفهانى الذى تعمّد عدم ذكره فى كتابه الأغانى .

سأضيف شيئا جديدا لم يسبقنى إليه أحد « من القدماء ولا المحدثين ولا جاء به خبر يدل عليه » وقد يجيبُ على بعض الأسئلة التى ظلّت معلقة ، ولم يجب عليها الاستاذ محمود شاكر ، وما أخاله قد فكر فيها ، وإن كنت لن افطن اليها لو لم اقرأ كتابه عن « المتنبى » ، وهو مما تركه السابق للآحق والأوّل للآخر .

نعم ، سأضيف الى ما ذكره استاذنا شاكر فى « عمود صورة المتنبى » انه كان « زيدياً » ، ولم يكن « إماميا » ولا « رافضيا » ، أما كيف كان ذلك ومن أين جاء لى ، فسأحاول تبيينه فى مقال آخر فالى اللقاء ان شاء الله .

بروملى : ١٩٨٣/٩/٢١ م ـ ١٤/ الحجة ١٤٠٣ هـ .

تعقيب :

أوردت قصة توارى الامام القاسم بن ابراهيم وعودته وتحاوره مع أحد أولاده بالمعنى والرواية من مقروء أتى قبل اربعين عاما ، وليس فى حوزتى الكتاب بل ولا اذكر حتى اسمه الآن ، والقصة مشهورة ، ولو اطلع عليها

« الرافعى » لصنع منها قصة رائعة تشبه اقاصيصه « سمو الحب » و « قصة زواج » و « زوجة إمام » وقد يحاول ذلك كاتب إن شاء الله .

وكذلك أوردت قصّة اختفاء الاستاذ محمد كردعلي بغير الفاظها فى مذكراته لأنها ليست فى حوزتى الآن .. فليعذرنى القارىء إذا وجد نقصاً أو خللاً .

المتنبي : شاعر مكارم الأخلاق

كان المتنبّى « شيعيا » ولكن ليس رافضياً ولا باطنياً !
زيد بن علي خسر معركته العسكرية من اجل ولائه للصّديقين أبى بكر وعمر !
كان « العباسيون » أشدّ ظلماً و بطشاً من « الأمويين « .
هل كان « البويهيون » والحمدانيون » مخلصين فى « تشيّعهم » .
أهم طوائف الشيعة ثلاث .
لم يكن المتنبى « اسماعيلياً » ولا « اثنا عشر ياً » وكان « زيدياً » !
فلسفته عن القوة والحكم لا تخرج عن اطار « التفكير الزيدى » .
تمهيد :

لا جدال ان « المتنبى » كان « شيعياً » ، وعلينا فقط أن نتساءل من أيّ أصناف « الشيعة » كان ؟ بل وأن نتساءل أيضاً : ما هو المفهوم الـذى يقصده مؤرخ الأدب العربى أو ناقده ، سواء كان من القدماء كالأصفهانى والحاتمى والجرجانى ، أو العكبرى أو المعـرى ، أو ابـن العـديم ، أو من المحدثين والمعاصرين كالرافعى وشاكر والعقاد ، أو طه حسين ، واحمد أمين وشوقى ضيف ، إذا قال أحدهم : « كان المتنبى شيعياً « ؟

أما أنا فلن احمّل اللفظة فوق طاقتها إذا سمعت ذلك عن المتنبى أو عن

غيره من الشعراء ، ولم افهم الاّ المعنى اللغوى المتداول لأصل الكلمة ؛ وقد كانت تطلق أيّام الصّحابة رضى الله عنهم على من يتشيع لعلى و بحبه ، و يفضّله على غيره من الصحابة وكان فى مقدمة هؤلاء ـ كما حدثنا الرواة ـ العباس بن عبد المطلب والزبير بن العوّام والمقداد ، وسلمان الفارسى ، وابو ذر الغفارى ، وعبادة بن الصامت وعمّار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وآخرون ثم تطوّرت بعد « الجمل » و « صفين » و « كربلاء » وصُبغتْ بمعانى مذهبية ، سياسية ودينية ، طيلة العهدين الأمويّ والعباسى ، تغذّيها وتنمّيها مآسى الصراع والفتن والكوارث ، فانقسم من يوصفون بها الى عشرات الفرق ضلالاً وهدىً ؛ كما هو مفصّل فى كتب « الملل والنحل » وعلم « اصول الدين » .

و بالمفهوم اللّغوى البرىء لكلمة « شيعى » أستطيع أن أقول بأن معظم أئمة المسلمين امثال « أبى حنيفة » و « زيد بن علي » و « جعفر الصادق » و « احمد بن حنبل » و « الشافعى » و « سفيان الثورى » و « عمر بن عبيد » كانوا من « شيعة علي » بعضهم يفضلونه على « ابى بكر وعمر » و بعضهم يفضلونهما عليه ، ونهج هذا المنهج معظم علماء المسلمين وعامتهم ، دونما افراط كما صنع «الغلاة » ، ولا تفريط كما عمل « النواصب » و « الخوارج » .

ولقد كان « ابو تمام » و « البحترى » و « المعرى » و « ابن الرومى » و « الشريف الرضى » والمئات من فحول الشعراء « شيعة » بهذا المفهوم ، وكذلك كان « المتنبى » ، ولم يكن تشيّعه كتشيّع « الكميت » أو « كثير

عزة » أو « السيد الحميرى » أو « مهيار الديلمى » أو المئات من أضرابهم الـذين مزجـوا تشيعهـم بمذهـب « غلـوّ » أو « رفض » أو « قرمطـة » أو « حلولية » أو شتم وسباب للخلفاء الراشدين ، أو نحو ذلك ممـا يؤكد الحديث الصحيح القائل انه ستهلك فى « علي » فئتان : « محبّ غال » و « مبغض قال » ، والآخر الذى خاطب به الرسول ﷺ « عليًا » رضى الله عنه فقال : « لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق » ؛ وبناءً عليه قال الكثير من الصحابة : كانت علامـة الإيمـان والنفـاق عندنـا حبّ عليّ أو كراهيته . وذلك فى نظر الباحثين المحققين هو سبب بقاء هذا المعتقد على مدى اربعة عشر قرناً ، وقد انتهـى أمـر « علي » من الـدنيا ، وتحـوّل « التشيع » له وتطوّر ، حتى أصبح مذهباً ومعتقداً ، واضطربت فيه الأهواء حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً ، ولا تزال تضطرب ، وجاء احد أئمة « الزيدية » فقال العلامة بيننا وبين « المنافقين » علي ، والعلامة بيننا وبين « الغلاة » زيد بن علي ؛ أو كما قال ، والحديث ذو شجون .

وقد اردت بهذا التمهيد ان أوضح بل أن أؤكد للاستاذ ذيبان الشمرى أو الصديق الذى أُنْسِيتُ اسمه ، ولم أنس علمه وفضله ، انّه إذا كان يلمّح بأنى انّما ادافع عن انسانيّة المتنبى وسلامة معتقده وعبقريّة تفوقه ، لأنى « شيعى » فقد أقول له وبكلّ شجاعة وصدق واخلاص : « نعم » ، ولكن على أساس هذا المفهوم اللّغوى الأصيل الذى كان به عمّار بن ياسر والبراء بن عازب والامام الشافعى والامام زيد بن علي بل والمتنبى وأبو العلاء المعرّى بل ولو شئت لقلت وأحمد شوقى والرافعى والعقّاد من

« الشيعة » ، وليس بالمفهوم « الرافضى » أو « الكيسانى » أو « الباطنى » فانّ هؤلاء من الهلكـــى فى مذهبى « الزيــدى » ، كما كانوا فى نظر « المتنبى » ، والامام زيد بن على هو الذى من أجْل إجْلاله للصّديقين الفاروقين الخليفتين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما خسر معركته العسكرية وربح دينه وتاريخه ، لمّا قال للغلاة الذين أرادوه أن يتبرّأ منهما . لا فلقد كانا خليفتين عادلين ، فلما خذلوه ورفضوه صاح فيهم صيحته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الرافضة » وقاتل حتى خرّ شهيدا يرحمه الله .

نسب المتنبى ومذهبه :

لقد مُنى تاريخ المتنبّى فى حيـاته وبعد موته بضروب من الافتراءات والعداوات صيرّته كما قال الاستاذ شاكـــر : « مزلّة لا تثبت عليها قدم ولا يهتدى فيها الاّ بصيرٌ متثبت ».

كان « علويّ النسب » لا ريب فى ذلك عندى ، وقد كتم نسبه زمناً ؛ ثم اعلنه زمناً ، ثم عاد فسكت لا يذكره الاّ تلميحاً عندما يقول انّه فوق كل الانساب والأحساب . ونحن نعلم ان « شيعة علي وبنيه » كانوا قد بلغوا فى زمن المتنبّى ـ أعنى القرن الرابع الهجرى ـ قمّة السيــطرة على العالم الاسلامى فكريّا وجغرافياً ؛ واعتنق مبادئهم المتفاوتة اعتدالاً ، او غلّوا ، معظم البشر من سكان ما بين ما سماّه المفكر الجزائرى « مالك بن نبى » محور « طنجة » .. « طوكيو » .. غرباً وشرقاً ، وما بينهما من بلاد المسلمين شمالاً وجنوباً .

وكانت أوروبا لا تزال تسبح فى ظلام دامس فكراً وعقيدة ، وتشحت النور من « الأندلس » حيث بدأ حكّامها وسلاطينها يخشون ان يزحف « التشيّع » على بلادهم ، وفى نفس الوقت ، وبعد أن أمعنوا فى الترف والخلافات فهم يخافون ذئاب الكنيسة الأوروبية أن تهجم على قصورهم وجواريهم وغلمانهم ، الأمر الذى ما زال يتطور بهم حتى فضّل ملوك طوائفهم الاستسلام لنواقيس الكنائس والصليبيين على ان يستسلموا بإسلامهم لشيعة « عليّ وبنيه » ، واستساغوا ان يرتفع على الصّوامع رنين « النواقيس » على ان يسمعوا هتاف « حيّ على خير العمل » شعار شيعة « عليّ وبنيه » !

وكانت المأساة ، وكان ما كان مما لا يختلف ولا يشذّ عما يتوقع ، أو كان مُنتظرا أن يكون ؛ تصديقا لكلام الرسول ﷺ « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً » أو كما قال ، وهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو الاّ وحى يوحى » .

ونحن نعلم ان ادواء النفاق ، والعصبيّة العرقية ، والطائفية القبلية ، والعنصرية الأسرية قد بقيت آثارها متحكمة فى بعض النفوس ، ولا سيما من ابناء « البيوتات » فى قبائل « قريش » و « الأوس » و « الخزرج » و « بنى عبد المدان » و « كنده » و « تغلب » و « غسّان » و « ربيعة » وكان ما كان من « حروب الرّدة » بعد نجاح « السقيفة » ثم « الجمل » و « صفّين » و « النّهْروان » بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رحمه الله . هذا والصّحابة الذين شافهوا الوحى ، وتلقّفوه من فم الرسول الأمين

عليه الصلاة والسلام لا يزالون أحياء ، فكيف بعد اغتيال ثلاثة خلفاء وقتل « حفيد الرسول » وأولاده وبنى عمه ، ومعاملتهم كأسرى الزنج والروم ! ثم كانت وقعة « الحرّة » وسُبى فيها أولاد وبنات المهاجرين والأنصار ، وضربت « الكعبة » بالمنجنيقات ، ونشبت الفتن وشبت حرائقها فى جميع اصقاع الجزيرة ، وقد اختلط الحابل بالنابل ، ونجمت قرون اعداء الاسلام من اليهود ؛ أحفاد بنى « النضير » و « قريظة » و « خيبر » و « الطلقاء » ونصارى الروم ونجران والشام ، وعبدة النار من « المجوس » الذين لم يدخلوا فى دين الله الاّ على دخن ورءاء الناس ، ولم تجد عصاباتهم حقلاً ترتع فيه دواجن تربّصهم وتبيض وتفرخ مثل « التشيّع » ولم تر فئاتهم لأفاعى مكرها وعقاربه ملجأ تأرِزُ إليه ، ولا مُدَّخلا تأوى نحوه ، ولا غابة تسرح فيه وتمرح بسمومها إلاّ قضية « آل البيت » المظلومين المقتّلين المشردين فى عهد بنى أمية والشاعر ينشد :

بنات زيـاد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى الفلوات ؟!

وتقلقلت الساحة الاسلامية بالثورات يقودها التوابون والأبرار حيناً ، وأحياناً كثيرة « الخوارج » والمتآمرون والطامحون فى الجاه والمال والسلطان ، حتى قُضى على « الأمويين » وتلقّف الحسام « العباسيون » وما لبثوا حتى كانوا أشدّ ظلما وطغيانا وبطشا « بآل علي » من اسلافهم حتى قال شاعر « الطالبيين » :

يا ليـت جور بنى « مروان » عادَلَنا
يـا ليـت عدل بنى « العبّاس » فى النار !

وتواثبت الفتن هنا وهناك وانقسم الدعاة باسم « آل الرسول » الى فئات وطوائف وفرق شتّى : هذا يثور فى « الديلم » وذاك فى « الكوفة » وذلك فى « المغرب » واولئك فى « مصر » و « السودان » و « الشام » و « اليمن » وآخرون فى الكهوف والمخابىء يخططون ويتآمرون ويشحذون سكاكين الانتقام لليوم « المنتظر » .

ولكلّ عَلمٌ واسم وشِعار !!

وفى خلال العهد الذى نتحدث عنه « قرن المتنبى » الرابع الهجرى والقرن الذى سبقه ، والذى تلاه سمعنا بنشوء عشرات المذاهب والطوائف والملل والنحل التى تدّعى انها « شيعية » ، وما نشأت الاّ لتنصر « آل الرسول » من ابناء علي وفاطمة رضى الله عنهما ، ولتعيد الحق الى نصابه ، والسّلطان المغتصب الى ذويه .. ولكن الذين وصلوا الى سدة السلطة والحكم من تلك الفئات والطوائف ولا سيا فى الساحة الجغرافية التى انحصر فيها نشاط شاعرنا « المتنبى » ما بين مصر و « الشام الكبرى » والعراق وفارس لم يك أىّ منهم صادقاً مع نفسه ، مخلصا لمبدئه ، فيزحزح عن العرش من يعتقده مغتصباً ، ويسلّم كرسيه للرضى من « أهل البيت » كما يدّعون فى رسائلهم وخطبهم ، واشعارهم ، التى كانوا يهيجون بها الجماهير ! ولقد كان بنو « بويْه » « شيعة » ولمّا استولى « معزّ الدولة بن بويه » على بغداد ، وقبض على السلطة المطلقة بيد من حديد يفعل ما يشاء ولا يتحرّج حتى من إهانة الخلفاء العباسيين والتعدّى على اشخاصهم ، فكرّ فى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خليفة علوى وكان ذلك عليه يسيرا ، ولكنّه عدل عن

الفكرة لّما قال له احد مستشاريه ومن « الشيعة » طبعاً : إذا قام الخليفة العلوى فسيطيعه الجند والناس فى العراق وفارس عن ولاء وعقيدة ومباشرة ! وسيكون الجميع طوع ارادته لا يعصونه فى شيء ؛ فلو أراد قتلك وكلّ اسرتك ، وأمر بذلك ، لنفّذوا أمره غير هيّابين » فخاف وأعرض عن التفكير فى اقامة خلافة علوية .

هذه حال العلويين الشيعة من العجم فى العراق وفارس وفى عهد « المتنبى » وكان كذلك شأن شيعة العلويين من العرب كبنى حمدان فى الشام فانهم رغم تشيّعهم مظهراً وشعاراً ، وكُتباً ورسائل وأشعاراً، كانوا ينصرون بنى العباس ويخطبون لخلفائهم لا حبّاً لهم ، ولكن للجاه والسلطان ، وكيداً وعداءاً لخصومهم ومنافسيهم « بنى بويه » وغيرهم .

ان طوائف الشيعة وفئاتها كثيرة لكن اهمها ممن كان ولا يزال لها اثره فى العالم الاسلامى لا يتعدى ثلاث فئات ، وهى التى كان لها ولا يزال دول وتراث ولكلّ منها تشريعاتها الفقهية ، ونظرياتها الفلسفية ، ومبادئها الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية وفى اطار الاسلام وأركانه الخمسة ونصّ قرآنه المجيد .

وهذه الفئات الثلاث هى : الزيدية ، والاثنا عشرية ، والاسماعيلية .

فمن أى الفئات الثلاث كان شاعر مكارم الأخلاق المتنبى ؟

ليس اسماعيليّا

ما كان لأبى الطيب لا طبعاً ولا نشأة ، ولا تثقيفاً أن يكون

« إسماعيليّا » لأن هذه الفئة التى يتفرع منها عدّة فئات تتبنى على وجه العموم سياسة « الامامة الباطنية » القائمة على القول بأنّ لكلّ ظاهر باطن ، وهى دائماً سياسيا واجتماعياً ، وفلسفياً ، تخفى مقاصدها وأفكارها ، وتعتمد على الغموض والكيد ، وسلاح « الحركات السرية » . وأنّا لِلمتنبّى أن يكون « باطنياً » وهو قد اشترك فى محاربة « القرامطة » ، وهو صاحب « الصوت الجهير » فى محاربة الظلم والطغاة وأشعاره تنطق بالوعيد والتهديد والخروج والثورة ؟!

وليس أثنى عشريّاً

والمتنبى لا يمكن أن يكون من طائفة « الأثنىعشرية » لا جِبلّة ، ولا تربية ، ولا تعلماً .

ونحن نعلم ان « الأثنىعشرية » يتبنّون « الامامة الروحية » وانّهم قد هادنوا خلفاء بنى العباس ، وسائر « الشاهات » ، فى فارس ، واتخذوا من « التقية » مبدءاً أساسيا لمعتقداتهم ، واعتمدت سياستهم على المعارضة المتمثلة فى « سلاح الكلمة » التى لا تضرّ قائلها ، ورفضوا « الخروج » وحمل السيف من اجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مفضّلين « الانتظار » لأوامر « حجة الزمان » المهدى !! وأئمتهم الأقدمون قد خالفوا « الامام زيد بن علي » ومن ثار بعده على « العباسيين » أمثال يحيى بن زيد ومحمد بن عبدالله وأخيه ابراهيم ، ولقد سُئل أحدهم لماذا نرى الناس إلى أبناء عمّكم « اتباع جعفر الصادق رضى الله عنه » أميل منهم

اليكم » ؟ فأجاب ؛ نحن ـ «أيّ الزيدية » ـ ندعو الناس الى الموت وأبناء عمنا يدعونهم الى الحياة !

والمتنبى لم يكن من دعاة الحياة والخنوع ، وقد خرج وحارب وحرّض وتشرّد ، وخاصم وعادى جهارا ، بل وعرّض بسخافة وجود إمام فى كهفٍ ينتظره الناس ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، وعقليته وثقافته لا تتقبل مبادىء « الأثنى عشرية السياسية » .

وإذن فقد كان « زيدياً »

أما كيف جاء لى ، ذلك وكيف جزمت به ، فلمّا كان المتنبّى قد نشأ بالكوفة ، وقد كانت دائما معقلا للشيعة على اختلاف طوائفهم ، ووكرا وملجأ من وكور وملاجىء « الزيدية » الذين كانوا كما يذكر الطبرى وأبو الفرج الأصفهانى وغيرهما ، وقود كلّ ثورة ضد « الأمويين » و « العباسيين » ، وكان شجعانهم وأبطالهم هم انصار كل خارج يدعو الى دولة « التوحيد والعدل » ، سواء مع « زيد بن على » أو « النفس الزكية » محمد بن عبدالله ، أو أخيه ابراهيم أو العشرات من بعدهم . فلماذا لا يكون الشرّيف العلوى محمد بن عبيدالله ترب المتنبى وزميله فى « مدرسة الأشراف » والّذى مدحه بقصيدته :

أهلاً بدارٍ سباك أغيدها أبعَدُ مابان عنك خرّدها

من الطائفة « الزيدية » ولماذا لا يكون «كتّاب العلويين الأشراف »

الذى قال المؤرخون إنّ المتنبى « تعلم فيه العربية وعلوم الأشراف » إنما هو مدرسة زيدية ، قد درس فيها « المذهب الزيدى » فِقْهاً واصولاً وسياسة حكم ؟؟ و « المتنبى » فى هذه القصيدة التى كانت أولى ما نعرفه من قصائده الرائعة وهو لما يبلغ الثامنة عشر من عمره قد أعلن عن شخصيّته القويّة المتوعّدة الواعدة ولا سيما فى قوله :

خير قريش أباً وأمجدها ، اكثرها نائلاً ، وأجودها ،
أطعنها بالقنا ، وأضربها بالسيف ، جحجاحها مسوّدها
يا ليت بى ضربة أتيح لها كما اتيحت له « محمدها »
أثّر فيها وفى الحديد ، وما أثّر فى وجهه مهندها ..
وأيقن الناس أن زارعها بالمكر ، فى قلبه سيحصدها .
أصبح حسّادهم وأنفسهم يحدرها خوفه ويُصعدها
تبكى على الأنصل الغمود إذا أنذرها ، انه يجرّدها ،
لعلمها أنها تصير دماً وأنّه فى الرقاب يغمدها .
قد أجمعت هذه الخلائق لى أنّك يا بن النبى أوحدها

وهذا ما لا يخطر ببال شاب لا تتطلع نفسه لأمر خطير ، ولمّا يعلم الكثير عن مقاتل الطالبيين ومبادىء الامام زيد بن علي مما قرأه فى « كتاب الأشراف » ، ومما سمعه ووعاه من الرواة .

ومّما لفت نظرى ، ودعانى للتأمل والتفكير ، والتساؤل عن الطائفة الشيعية التى ينتمى اليها المتنبى ، ان فلسفته عن القوة ، والحكم ، والحياة ، لا تخرج عن نطاق الدعوة الاسلامية ، والمنطق القرآنى ، وفى اطار

« التفكير الزيدى » الذى أنا من تلاميذه ، وما ورد فيه من طفرات أو مبالغات يكـون من السّهل حسبانه من « المتشابه » وإرجاعه الى « المحكمات » كما أوضحت فى فصل سابق ، وكنت أقف موقف المشفق او المنكـر من الذين يتّهمون المتنبى بالمـروق والالحاد ، أو الوحشيـة و « القرمطة » وأجزم انهّم لم يقرأوا « المتنبى » قراءة سليمة !! ولأنّه شيعى الهوى والرأى واللّسان فقد ظلّ السؤال ؛ الى أيّ طائفة من طوائف الشيعة ينتمي يشغل بالى ، حتى قرأت كتاب الاستاذ محمود شاكر عن المتنبى فى طبعته الثانية ، فلفت نظرى ايضا ان « العلويين » فى الكوفة هم الذين اضطرّوه الى كتمان نسبه ، وأنّ جدّته قد اخذت عليه العهود أن لا يظهر نسبه خوفا عليه منهم .. وفى نفس الوقت ، فانّ الذى حبسه وعذّبه حـين أظهر نسبه العلوى كان « علويّا ، او « هاشمياً » ، فى بادية الشام ؛ ثم أن الذين رصدوا عبيدهم ليغتالوه هم « علويّـون » من اللاذقيـة وانطاكيـة فهجاهم وندّد بهم كما سبق ، وفى نفس الوقت أراه قد مدح بأول قصائده الرائعة رجلا علوياً من « آل عبيدالله » واعترف بفضله عليه واحسانه اليه فقال :

وكـم وكـم نعمة مجلّلة رُبيتها كان منك مولدُها
وكـم وكـمْ حاجة سمحت بها أقرب منى الىّ موعدها
ومكـرمات مشت على قدم البر ، الى منزلى تردّدها
أقرّ جلدى بها عليّ فلا أقدر حتى الممات أجحدها !

وليس ذلك فحسب بل وتأتى الرواية أنّ امرأة من « آل عبيدالله » هى

التى ارضعته . وإذن فهناك « شيعة » و « علويون » ، يخاصمون المتنبى ويظلمونه ، ويناصبونه العداء لأنه يختلف معهم « مذهباً » و « عقيدة » واسلوب حياة ، وهناك « شيعة » و « علويون » هم أهله ورضعاؤه والمحسنون إليه ، وهو يلتقى معهم رأيا وحسبا ومذهبا .

وما إن قرأت كلام « التنوخى » الذى نقله الاستاذ شاكر فى السفر الأوّل من كتابه ص ـ ١٤ ـ ١٥ ـ وهو : « حدثّنى أبو محمد بن يحيى العلوى الزيدى قال : كان المتنبى وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة الى آخر الرواية حتى تنفست الصعداء وقطعت الشك باليقين ، وجزمت بأن المتنبى كان « زيديا » ويسكن فى حى « الزيود » بالكوفة ، ويتلقى العلم فى احدى مدارسهم ، وكان يجاور الشريف أبا الحسن محمد بن يحيى « الزيدى » وقد غمرتنى بهجة الاطمئنان واليقين عندما قرأت بقية رواية « التنوخى » حيث قال : « فاتفق مجىء المتنبى بعد سنين منصرفا من «فارس » فذكرته بأبى الحسن « الزيدى » فقال : تِرْبى وصديقى وجارى بالكوفة وأطراه ووصفه » وإذن فالمتنبى كان من اسرة « زيديّة » وعاش فى حىّ « الزيود » ودرس فى احدى مدارسهم وهذا هو الخليق بأحمد بن الحسين الثائر ، وهو الذى ينسجم مع اقواله واشعاره ويفسرّ أسرار حياته وتطلعاته وطموحاته ، وينفى تهم خصومه واعدائه من كل الفئات وقدامى ومحدثين .

لقد كان « شيعياً » بالمفهوم اللغوى السليم لكلمة « التشيع » أى محبة علىّ وتفضيله ومحبة الطيبين الطاهرين من عترته ، دونما غلوّ أو افراط فلا يقول بعصمة احد منهم ، ولا يشتم الخلفاء الراشدين ، ويقول بالخروج

على الظلمة ، والعدل والتوحيد ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهذا هو مذهب زيد بن على والهداة من اتباعه ، وقد رفضه وعاداه الغلاة من الشيعة وأنكروا إمامته وخذلوه فسماهم الرافضة وهم فئات كثيرة منهم العلويون الفاطميون ، والقرامطة والباطنية وقد كان « المتنبى » يعلن لهم الخصام ويندّد بهم ولو أن الاستاذ شاكر قرأ تاريخ الطائفة الزيدية فى اليمن واطلع على مصنفاتهم واخبارهم واشعارهم لرأى كيف ظلّوا فى حروب بالسيف والقلم والرأى والسنان مع « الباطنيــة » و « القرامطة » و « الفاطميــين » الغلاة ، قبل المتنبى وبعده ، لأن « الزيــود » لا يقولون بعصمة الأئمة ، ولا بحصرهم فى اثنى عشر ، ولا بالتقية ، وليس بغالٍ ولا رافضى ولا كيسانى من يتبع الامام زيد بن علي .

وزيدية المتنبى هى السبب المجهول الذى منعه من دخول الكوفة عندما سار اليها لزيارة جدته ، والذى استغرب الاستاذ شاكر نص خبر امتناعه من دخول الكوفة فقال ص ـ ٤٤ سفر اول « وهو نصٌ غريب كما ترى !! وليت شعرى وشعرك ما الذى ارادوا بقولهم : « لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك « وهو قد اتاها قاصدا دخولها ورؤيــة جدته التى تحبّه ويحبها »..؟ فالمتنبى كان قد اعلن « زيديته » ودعى الى « الخروج » وهجا بعض « العلويين » ! ومنهم الذين حالوا بينه وبين دخول الكوفة ولذلك قال فى مرثاته لجدته :

هبينى اخذت الثأر فيك من العدى فمن لى بأخذ الثأر فيك من الحمى

ولو لم تكــونى بنت اكــرم والدٍ لكـــان أباك الضخم لى أما

لئن لذ يوم الشامتين بيومها فقد ولدت منى لأنفهم رغما
تغرّبَ لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلاّ لخالقه حكما
ولا سالكــا الاّ فؤاد عجاجة ولا واجدا إلاّ لمكــرمة طعما ..
يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ما ابتغى جلّ أن يسمى !

فأهم اسباب محاربة من سماهم استاذنا شاكر « العلويـين » من اهل الكوفة أو بغداد أو اللاذقية أو مصر أو فى أىّ مكان ، للمتنبى هو أنه كان « زيدياً » والأدلة والشواهد على ذلك من شعره كثيرة ، وهذا المـوضوع خليق ببحث مستقل ، ولعلّه من المفيد أن أشير فى هذه العجالة الى بعض اصول ومبادىء الزيدية التى خالفوا بها سائر أو معظم فرق « الشيعة » وجهر شعر المتنبى بها وتبناها ، وعاداه الناس وعاداهم من اجلها :

١ ـ : الخروج على الظالم من اهم اصول « الزيدية » ولا يكون الإمام إماماً الاّ إذا قام وخرج على الظلم شاهراً سيفه ، ولا يكون إماماً من يرخى ستره ويغلق بابه .

والمتنبى قد صرّح وجهر بذلك اشكالاً وألواناً من التصريح والجهر : فقال ولا يزال شاباً فى الكتاب يخاطب صديقا له عذله على تركه لقاء الملوك :

أبا سعيــد جنّب العتابا فربّ رائى خطاءٍ صوابا !
فأنهم قد اكثروا الحجّابا واستوقفوا لردّنا البوّابا
وإن حدّ الصارم القرضابا والذابلات السمْر ، والعرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

وقال :

وإن عمرت جعلت الحرب والدة والسمهرى أخاً والمشرفى أبا
بكل اشعث يلقى المـوت مبتسما حتى كأن له فى قتله أربا !

وقال :

ولا بد من يوم أغرّ محجّل يطول استماعى بعده للنوادب

وقال :

جهلونى وإن عمرتُ قليلاً نسبتنى لهم رؤوس الرماح

وقال :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مردُ

وقال يتوعد الظالمين بالخروج عليهم :

علىّ لأهل الجور كل طمرةٍ عليها غلام ملء حيـــزومه غِمرَ

وعبارة « أهل الجور » هى التى يستعملها علماء « الزيـود » فى كتب « اصولهم » بل انه كان داعيـة زيديـاً عندما قال يخاطب من ينتظرون « قيامه » ودعوته :

محبى قيـامى ما لذلكـم النصل بريئا من الجرحى سليما من القتل

ولقد كان الاستاذ شاكر على حق عندما قال : « وقوله « محبى قيامى » يعنى ثورته وظهوره وخروجه » ولكنّه لم يكن فى نظرى مصيباً عندما قال : « وما نظنّ أحداً كان يحب ذلك منه غير جدته » ! فلا شك انّ ثمة انصارا له كانوا يحرّضونه ويـرون فيـه الرجل الكفؤ الجامع للشروط فى مذهبهم الزيـدى ولم يكن المتنبى من فساد الرأى الى الحدّ الذى لا يفكـر معه بالنصير !

وقال يخاطب نفسه ويحثها على الوثوب واثقاً بالله :

إلى أيّ حين أنت فى زيّ محرم وحتى متى فى شقوة والى كمِ
وإلاّ تمت تحت السيـــوف مكرماً تمت ، وتقاسِ الذُّل غير مكرّم
فثب واثقا بالله وثبه ماجد يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وكل ذلك يؤكد ما ذهبت اليه من انه كان « زيدى » المذهب ، وانه قبل ان يتجاوز العشرين كان قد اعتنق مبادئهم الخمسة التى منها « الخروج على اهل الجور » ، ومعظمهم كانوا فى زمنه كما وصفهم ؛ من طغاة العجم وضعاف العباسين ، والموالى والخدم ، ولذلك بادر فأعلن نسبه الحسنى وثار ، فحشد السّلطان عليه القوّة وتألب عليـه اعداؤه ، وفشل ، وألقى عليـه القبض ، وكان ما كان مما فصله الاستاذ شاكر فى كتابه « المتنبى » .

وما اخاله اقدم على ما اقدم عليه الاّ بعد مصابرة نفسية ، ومشاورة مع بعض زملائه ، وقد رأى وجوب الخروج واشهار السيف فوثب واثقاً بالله ينشد :

سيصحب النصل منّى مثل مضربه وينجلى خبرى عن صِمّة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبرٍ فالآن اقحمُ حتى لات مقتحمِ
ميعاد كل رقيــق الشفرتين غداً ، ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدى بها همُ وان تولّو فما أرضى بها همِ

وكأن البعض كان قد حذره مغبة ما هو مقدم عليه فقال :

ومن يبغ ما ابغى من المجد والعلى تساوى المحايــا عنده والمقاتلُ

ولعلّه بعد أن فشل ووقع فى السجن وخذله انصاره كما فعلوا من قبل مع

الكثير من الدعاة قد لمس الحقيقة ، ورأى وجهها المتهجّم ، وعرف ان المطلوب إذا عظم قلّ المساعد ، فلجأ الى الحيلة كي يُطلق سراحهُ وكاتب الأمير ابن طغج يستعطفه ويدافع عن نفسه مثل قوله :

ان أكن قبل ان رأيتك أخطأت فانى على يديك أتوبُ

وقوله :

فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبأنّ بعجل اليهود
وكن فارقاً بين دعوى « أردت » ودعوى « فعلت » بشأو بعيد

ولا شك أن الأمل قد ظل يخامره ، ويقلق خاطره ، ويتوسل الى تحقيقه بشتى الحيل ، بعد أن يئس من الأنصار ، وأدرك تحكم الأشرار ، وكان يساقط من لسانه فى قصائده مثل قوله فى نونيته التى انشأها سنة ٣٣٥ هـ . وقد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره :

لله حال ارجّيها وتخلفنى وأقتضى كونها دهرى ويمطلنى ،
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم قصائداً من اناث الخيل والحصُنِ

وقوله بعد ذلك :

تخوفنى دون الذى أمرت به ولم تدر أنّ العار شر العواقب
ولا بدّ من يوم أغر محجّل يطول استماعى بعده للنّوادب

وربّما أن قلق ذلك الهم الكبير قد خفّ بعد اتصاله بسيف الدولة ، فظنّ انه قد وجد الأمير الذى سيضمّ اشتات العرب فى ظلّ حكومة « العدل والتوحيد » وراية القرآن وهو لا شك قد ناقش الأمر مع سيف الدولة كما ذكرتُ فى وقفتى مع قصيدته :

لكلّ امرىء من دهره ما تعوّدا » . ولعلّ الأمير قد وعد الشاعر بتنفيذ ما كان يحثه على فعله والقيام به ، وما أن فارقه الى مصر وخابت آماله فى « كافور » ونَهَدَ الى العراق ، حتى عاوده الأمل من جديد فقال من قصيدة الى سيف الدولة سنة ٣٥٢ هـ . وهو يومها فى الكوفة :

أنت طولَ الحيـــاة للروم غاز فمتى الوعد أن يكـون القفول ؟
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أىّ جانبيك تميل ؟

وقال أيضا سنة ٣٥٣ هـ . قبيل استشهاده بعام مجيباً على رسالة وردته من سيف الدولة : وهى صرخة حزنٍ وأسى لما يكابده المسلمون :

أرى المسلمين مع المشركين إمّا لعجزٍ وإمّا رَهَبُ
وأنت مع الله فى جانبٍ قليل الرقاد كثير التعب
كأنّك وحدك وحّدته ودان البريّــة بابن وأب !

هذا هو موقف شاعر مكـارم الأخلاق من احد مبادىء « الزيديـة » الرئيسيـة وهو الخروج على اهل الجور ووجوب القيـــام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر وقد ملأت الفراغ المخصص لمقالى فى ملحق « الأربعاء » قبل ان استكمل إيراد الشواهد وقبل أن أورد من شعره ما يدلّ على ايمانه ببقية مبادىء « الزيديـة » وهو ما سأتعرض له فى مقال الاسبوع القادم إن شاء الله .

بروملى : ١٩٨٣/٩/٢٩ م ـ ٢٢/ ذى الحجة / ١٤٠٣ هـ .

المتنبى : شاعر مكارم الأخلاق

الشعر ديوان العرب ومرجع المؤرخين .
شعر المتنبى اصدق مصادر تاريخ حياته .
كان المتنبى « زيديا » يؤمن بالعدل والتوحيد .
ربما كان الأمير «دلّير » زيديا مثلما كان الصّاحب بن عبّاد !
الألفاظ والعبارات « الزيدية » فى شعر المتنبى .
وانكر « التقية » و « مهدوّية » السرادب !
تشيعه وعلويّاته الضّائعة .
٢ ـ التوحيد والعدل :

من اصول « الزيدية »التى لا يكون المسلم « زيدياً » الاّ إذا عرفها ، وفهم مسائلها ، واستوعب مفهوماتها ومدلولاتها عقيدة وسلوكاً ، « التوحيد » ومسائله عشر ، و « العدل » وله أيضاً عشر مسائل وكلّها مذكورة ومفصلة ومشروحة فى كتب القوم ، وقد لخّص معظم أفكارهم ونظرياتهم وما قاله فطاحل علمائهم قديما وحديثاً الدكتور احمد محمود صبحى فى كتابه النفيس « الزيدية » .

ولقد لفت نظرى وأنا أقرأ كتاب الاستاذ محمود شاكر قوله فى ص . [٢٧٠ السفر الأول] : « لم يرد فى خبر ابى الطيب ومدخله الكوفة فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ . شيء يمكن ان يتوجّه به التاريخ فى هذه

الفترة إلى وجه بعينه . والذى فى رواية الرواة انّه توجّه بعدها الى مدينة السلام « بغداد » ولكن من قبل رحلته حدث بالكــوفة حدث حضره المتنبى ، وذلك ان رجلاً خارجياً كان قد ثار بالكـوفة ، وكـان من بنى كلاب ، واجتمعت اليه فئة من المقاتلة الخوارج فانتهض اليهم أبو الفوارس دِلّير بن لَشْكَرَوَّز ، وانصرف هذا الخارجى قبل وصول دلّير الى الكوفة ، فمدحه ابو الطيب ، وأنشده وهو فى الميدان على فرس بمركب ذهب . ولسنا نعرف سبباً لمدح أبى الطّيب هذا الرجل « دلّير » ، ولم يرد فى كتب التاريخ التى بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجى الذى ثار بالكوفة فى سنته تلك وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر فى القطع برأى ، والظاهر ان لهذا الرجل « دلّير » علاقة بالمشاكل العلوية التى كانت لذلك العهد بالكوفة ، وانّه كان ممن يميلون الى الجانب الذى فيه سيف الدولة وابو الطيب » .

واذا كان الاستاذ محمود شاكر ـ وهُو من هُو ـ لم يجد فيما بين يديه من كتب التاريخ ذكر الحادث ولا ذكر الخارجى ، ولا ذكر دلّير بن لشْكَرَوَّز ، ومكتبته عامرة بأمهات كتب التاريخ والأدب وهو فى « القاهرة » ! فكيف بى أنا فى « بروملى » ! ؟ ولذلك فلم اجهد نفسى طويلاً بحثا عن الحادثة ، أو الخارجى ، أو هذا الرجل « دلّير » !

لكنا نعلم جميعاً ان الشعر ديوان العرب، ومرجع المؤرخين للأمة العربية وتاريــخ دولها ، وطوائفها وآدابها ، وضبط اسماء رجالها وبلدانها وجبالها وأنهارها ، وحسبنا أن نعلم انّه لولا أن اسم هذا الرجل « دلّير بن لشكـرَوَّز » قد اثبته المتنبى فى شعره مضبوطاً بالوزن الشعرى الذى لا

يخطى ، لما عرفنا كيف نتهجاه ، أو ننطق به نطقاً سليما . ولمّا كان شعر المتنبى هو اصدق مصدر يسجل تاريخ حياته الذى عبث به المؤرخون ذوو الأهواء كما لم يعبثوا بتاريخ شاعر ، فقد رجعت الى ديوان شعره بشرح « البرقوقى » فوجدت أوّلا أن الحادثة وقعت فى سنة ٣٥٣ هـ . وليس سنة ٣٥١ هـ . كما قال الاستاذ شاكر ، ولا يهمّنا ان تكون قد وقعت فى سنة ٣٥١ هـ . او فى سنة ٣٥٣ هـ . فالوقعة قد نشبت بين اهل الكوفة وبين خارجى يقود جيشاً ، وقد نجم هذا الخارجى من بنى كلاب ، وهاجم الكوفة ، والمتنبى يومئذ بها فساهم فى اخماد حركة الخارجى ، إن لم يكن هو الذى قد قاد المعركة بنفسه ، ولا شك انّه وأهل الكوفة هم الذين استنجدوا بالأمير « دلّير » ولا شك انّه كان قد أنفذ اليهم رسله يعلمهم بقدومه ، وان يصبروا ويصابروا ويثبتوا فى وجه الخارجى ،وهم قد فعلوا ذلك بل وتمكّنوا من هزيمة الخارجى وجيشه الزّاحف قبل ان يصل الأمير « دلّير » بنجدته وجنوده ، ولا شك لدى انّ « المتنبى » قد كان على صلة اكيدة بهذا الرجل « دلّير » الذى لا ندرى من أين أقبل ، ومن أرسله لانقاذ الكوفة هل « بنو بويه » أو « ابن العميد » ؟ وهل كان حين استصرخه المتنبى مستنجدا فى بغداد ، أم الموصل أم البصرة أم فى مكان آخر ؟ وكل ذلك قد تساءلت عنه وأنا أقرأ قصيدة المتنبى الذى مدح بها الأمير « دلّير » واصفا المعركة التى دارت بين اهل الكوفة وبين خارجىّ بنى كلاب ، مبتهجاً بالإنتصار وبوصول الأمير ، ومعلنا عن « زيديته » وايمانه بدولة « العدل والتوحيد » وهو تعبير زيدى أصيل يخوّل لى الظن الذى يبلغ حد اليقين ان الذين وقفوا

فى وجه الخارجى وربما كان « قرمطيا» ـ هم « زيدية » الكوفة بل ان الأمير دلّير بن لِشكروَّز كان « زيديا » ، مثلما كان الصاحب بن عبّاد وغيره من أمراء ووزراء وشعراء ذلك العصر الكئيب عصر الفتن والثورات ، والذى لم يشهد تاريخ العربية مثله ازدهاراً ثقافيا وعلمياً وعمرانياً !!

نعم ؛ رغم ان كتب التاريخ التى كانت بأيدى الاستاذ شاكر لم يرد فيها ذكر ذلك الحادث ، ولا ذكر الخارجى الثائر ذلك العام ، ولا اسم « دلّير » .. لكن شعر المتنبى قد سجّل الحادث ، وان بنى كلاب قد أرادوا « الفوز بدولة » فزحفوا لاحتلال الكوفة ، وأنّه مع المؤمنين « بالعدل والتوحيد » قد حاموا عنها وقاتلوا الغزاة وهزموهم ، وأنّ الأمير أو القائد الذى اسمه « دلّير بن لشكروَّز » قد كان فى طريقه الى نجدتهم ، وان ذلك قد رفع الروح المعنويّة لدى جيش الكوفة الذى يقوده أو يناصره المتنبّى ، واضعفها فى صفوف الثائر الخارجى أو « القرمطى » من بنى كلاب ، كل ذلك قد سجّله شعر المتنبّى ، ووصف « دلّير » بالشجاعة والكرم وطيب المحتدوشرف الأصل ، وإن لم يذكر هل كان قد جاء بنجدته من قبل « بنى بويه » أو « الخليفة العباسى » أو أنه كان أميراً مستقلاً من أمراء المنطقة فى ذلك العصر الكئيب ، والكوفة كانت وظلّت كما قال الاستاذ شاكر [فى ص ـ ١٦ ـ سفر اول] « معقلا من معاقل الشيعة والعلوية والزيدية الى يوم الناس هذا » ، ونحن نعلم ان القوى فى العراق وفارس ومعظم الشام والمغرب كانت فى قبضة « الشيعة » على اختلاف طوائفهم ومنهم « بنو بويه » و « آل حمدان » ومن وزراء دولهم الصاحب بن عبّاد « الزيدى المذهب » وله فى

اصول « الزيدية » المؤلفات المشهورة والرسائل المعروفة .

وقد افتتح المتنبى قصيدته بغزل وتشبيب ليس فيه حرارة العاشق الولهان ، ولا لوعة الوجدان ، بل نشوة المنتصر الظافر فقال :

كدعواك كلّ يدّعى صحّة العقلِ ومن ذا الذى يدرى بما فيه من جهل ؟
لهنّك أولى لائم بملامة .. وأحوج ممّن تعذلين الى العذلِ ،
تقولين ما فى النّاس مثلك عاشق جدى مثل من أحْببته تجدى مثلى !
محبّ كنى بالبيض عن مرهفاته ، وبالحسن فى أجسامهنّ عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا ، غير أنّنى جناها أحبائى ، وأطرافها رسلى ،
عدمت فؤاداً لم تبتْ فيه فضلةٌ لغير الثنايا الغرّ والحدق النجل !
فما حرمت حسناء بالهجر غبطةً ولا بلغتها من شكى الهجر بالوصل

وهو كعادته التى تفرّد بها يهيىء سامعيه وقرّاءه فى معظم مطالع قصائده وفواتحها لمعرفة واستكناه ما يريد أن يفضى به فى قصيدته من غضب أو رضى ، وقدح أو مدح ، وسعادة واطمئنان ، أو شقاء وقلق ، تحريضاً أو سخرية ، أو ثورة أو حنينا ؛ ناثرا درر حكمه الغالية ، ونظراته وافكاره الفلسفية فى الحياة والكون والانسان بين سطورها . .

وهو فى هذه القصيدة يريد ان يهجّن خوارج بنى كلاب ويسخر بهم ويسفّه احلامهم ، وأن يعتز ويفتخر بموقفه الشجاع مع ابناء مدينته ومسقط رأسه « الكوفة » ، فى الدفاع والمحاماة عنها ، وأن يعبّر عن فرحته الكبرى بملاقاة امير كريم وقائد شجاع كان هو نفسه يعزم السفر اليه اثناء انشغاله بالغزاة من بنى كلاب ، ثم يطمئن قومه من « زيدية » الكوفة الذين قاتلوا

وصبروا وصابروا بأن تضحياتهم لم ولن تذهب سدى فقد رفعوا راية الاسلام وناصر مبادىء « العدل والتوحيد » .

وهو أوّلا يقول للائمته التى تطلب منه الخلود الى الراحة والاستسلام ولا سيما بعد أن جاوز الخمسين ، وخلص من مصارع المخاوف والتربصات ، وعاد الى مسقط رأسه :

ذريني أنلْ مالا ينال من العلى فصعب العلى فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين لقيان المعالى رخيصة ولا بدّ دون الشّهد من ابر النحل !
حذرت علينا المـوت والخيل تلتقى ولم تعلمى عن أيّ عاقبة تجلى !

ثم يتخلّص تخلصاً بارعاً الى مدح الأمير الذى قدم لنصرة مدينته الكوفة فيقول لعاذلته وعلى فرض ان المعركة التى خضتها من اجل الدفاع عن مدينتى ومبدئى قد انجلت عن قتلى ، وكانت الدائرة علينا فأنا لا اعد ذلك هزيمة ولا غبنا ، بل ربحاً ونصراً مقابل ما لقيته من اكـرام هذا الأمير الجليل :

فلست غبينا لو شربت منيتى بإكـرام « دلّير بن لَشْكَرَوَزٌ »لى
تمُرّ الأنابيـب الخواطر بيننا ونذكـر إقبال الأمير فَتَحْلو لى !

وهذا دليل على أن الأمير كان قد اشعر المتنبى واصحابه بأنه فى طريقه الى نجدتهم فكانت الرّماح الخاطرة بينهم وبين اعدائهم تصيرّ الحياة مرّة كريهة بشعة فاذا تذكروا ان الأمير سيقبل اليهم بنجدته صارت الحياة حلوة جميلة .

ولو كنت ادرى انها سببٌ له لزاد سرورى بالزيـادة والقتل

فلا عدمت ارض العراقين فتنة دعتك اليها كاشفَ الخوف والمحل

ولا يصدر مثل هذا القول من مثل « المتنبى » الى شخص لم يكن على صلة وثيقة به صداقة ومبدأ ، أو قرابة وزمالة ، والاسمان « دِلّير » و « لشكـــروّز » : اسمان اعجميـــان قال المسعودى ان معناهما : الشجاع والمسعود .

ثم اراد ان يقول للأمير إنك اذا كنت لم توافنا الاّ بعد انقضاء المعركة ولم تشهدها فنحن لم ننتصر عليهم الا بذكرك قبل وصولك فأنت المنتصر لا نحن .

ظَلِلنا إذا أنْبى الحديـــد نُصُولنا نجرّد ذكـــراً منك امضى من النصل

ونرمى نواصيها من اسمك فى الوغى بأنفذ من نشّابنا ومن النبل

فإن تك من بعد القتال أتيتنا فقد هزم الاعداء ذكـــرك من قبل

ثم ماذا ؟ ها هو « المتنبى » ذلك التيّاه المتشامخ الذى قال :

وجنّبنى قرب السلاطين مقتها وما يقتضينى من جماجمها النسر

والذى أنشد سيف الدولة متوعّدا :

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدمُ

لئن تركت « ضميرا » عن ميامننا ليحدثنّ لمن ودعتهم ندمُ

والذى ترفّع عن مدح خلفاء بنى العباس والوزير المهلّبى ، والصاحب بن عبّاد ، والذى كان يتمنى كل ملوك عصره ووزرائهم أن ينادمهم أو يقصد بلاطاتهم فيمتنع ويأبى ، والّذى لم يجفّ بعدُ مداد حروف قصيدته عن خروجه من مصر ، وفراقه لكافور وقد قال فيها :

فلما انخنا ركـــزنا الرماح فوق مكـــارمنا والعلا
وبتنا نقبل أسيافنا ، ونمسحها من دمآء العدا
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنّى الفتى
وأني وفيـــتُ وانّى أبيتُ وانى عتوتُ على من عتا

ها هو مسعر الحرب الفارس العملاق يتطامن متودّدا ، ويعلن فى صدق واخلاص انه كان قد عقد النّية والعزم على زيارة هذا الرجل « دلّير » وان يقصده الى عقر داره غير مبال بالصّعاب والمخاطر :

وما زلت اطوى القلب قبل اجتماعنا على حاجة بين السنابك والسُّبل
ولو لم تسرْ سرنا اليك بأنفس غرائبَ ، يؤثرن الجيـــاد على الأهل
وخيل اذا مرّت بوحش وروضة أبت رعيها ، إلا ومرجلنا يغلى
ولكن رأيت القصد فى الفضل شرِكةً فكان لك الفضلان بالقصد والفضل
وما أنا ممّن يدّعى الشوق قلبه ويحتجّ فى ترك الزيـــارة بالشّغل

أليس فى هذا ما يدلّ على ان هذا الرجل « دلّير » كان صديقا للشاعر ومعروفاً لديه ولدى أبناء نحلته وطائفته ، ولعلّه كان منهم ، وكان فى نفسه اكبر من كل من عرفهم من الأمراء والملوك والسلاطين ، وقد مدح فيه شمائل لا يتخلق بها الاّ الأمير الفذّ من المسلمين ؛ فهو صادق الوعد ، يجُبر أحوال الناس ، ويصلح ما لحقهم من الرّزايا ، يزيل شكوى الموتور والمرزوء ، عفيف عن كلّ أنثى حتى عن الشمس ، شجاع ، تقي لا يشرب الخمر فقال :

وأهدتْ الينا غير قاصدة به كريـم السّجايـا يسبق القول بالفعل

تتبّع اثار الرزايــا بجوده .. تتبّع آثار الأسنة بالفُتل
شفى كلّ شاك سيفه ونوالُه من الدآء حتى الثاكلات من الثّكل
عفيف تروق الشمس صورة وجهه ولو نزلت شوقا لحاد إلى الظلّ
وريّان ، لا تصدى الى الخمر نفسه ، وعطشان لا تروى يداه من البذل

ثم التفت وكأنّه يخاطب قومه من « الزيدية » المؤمنين بمبادىء « العدل والتوحيد » والوعد والوعيد والخروج على « أهل الجور » قائلاً :

فتمليك « دلّير » وتعظيــم قدره شيهدٌ « بوحدانيــة » الله و « العدل »

وهذا البيت الأخير هو بيت القصيد ، وهو الذى لفت نظرى عندما وجدت استاذنا شاكر حائرا يتساءل ويقول : « ولسنا نعرف سبباً لمدح ابى الطيــب هذا الرجل « دلّير » ، والظاهر أن لهذا الرجل علاقة بالمشاكل العلوية التى كانت لذلك العهد بالكوفة » ، نعم لقد كان ذلك هو الظاهر والباطن ؛ وأكاد أجزم بأنه كان « زيدياً » ، كما كان المتنبى وطائفته من أهل الكــوفة الذين تعرّضوا لِغزو « خارجى » او « قرمطى » ، فأقبل « دلّير » الأمير « الزيدى » بجيشه منجدا ، وكان ما كان مما وصفه المتنبى فى قصيدته :

وما دام « دلّير » يقلّب كفّه فلا خَلْقَ من دعوى المكـارم فى حلّ
فتى لا يرجى ان تتم طهارةٌ لمن لم يطهّر راحتيــه من البخل
فلا قطع الرحمن اصلا أتى به ، فأنّى رأيت الطيــب الطَيّــب الأصل

٣ ـ والمتنبى مثل سائر الزيدية يشترط فى الحاكم ان يكون عالما مجتهداً فيقول :

عليـــم بأسرار الديـــانات واللّغى   له خطرات تفضح الناس والكتبا

وأن يكون حسن السيرة ورعاً :

فمن كان يرضى اللّوم والكفر ملكُهُ   فهذا الذى يُرضى المكـــارمَ والربّا

٤ ـ الالفاظ الزيدية فى شعره :

وهو يكثر من استعمال الألفاظ والعبارات التى يكثر ورودها فى كتب الأصول « الزيدية » ولها مدلولاتها الخاصة لديهم كما رأيناه فى استعماله ألفاظ « القيـــام » و « الوثوب » و « الوثوق بالله » و « أهل الجور » و « التوحيـد » و « العدل » ، وحتى الألفاظ التى تدل على انه كالزيديـة « معتزلىّ » الرأى والتفكير ، والمفسرّون منهم يقولون إنّ « ناظره » فى قوله تعالى : « وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى رَبهّا ناظِرهْ » بمعنى « منتظره » ، وينفون بهذا التفسير الرؤية التى نصّ عليها الحديث الشريف « سترون ربّكم كالقمر ليلة البدر » فقال المتنبى :

فقد « نظرتُك » حتى حانَ مرتحلى   وذا الوداع ، فكن أهلاً لِما شيتا !

أيّ لقد « انتظرتك » .

وقد سمى سيف الدولة « إماماً » ووصم المخالفين بالشقاق فقال :

« إمام » للأئمة من قريش   الى من يتقون له « شقاقا »

واستعمل لفظة « الفاسق » وعنى به « فاعل الكبيرة » وهو عند « الزيديـــة » لا يسمى مؤمنا ولا كافراً ، وهذا هو معنى « المنزلة بين المنزلتين » فى اصولهم ، ولولا أنّه قد تأثّر بقراءة تلك المصطلحات لما قال :

وأغْيَــدُ يهوى نفسه كلُّ عاقلٍ   عفيف ، ويهوى جسمه كلُّ « فاسق »

ولولا أن لغته المذهبية قد طغت على لغته الشعرية لكان فى امكانه ان يقول بدلاً عن كل عاقلٍ كلّ « مؤمن » وهو قد اراد ذلك لكنّه «معتزلىّ » الرأى يحكم « العقل » ويجعله أصلاً ولذلك قال :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

كما وظّف لفظة « المارق » ، وهو من يخرج عن طاعة إمام الحق فقال :

فقد عاينوه فى سواهم وربّما أرى « مارقاً » فى الحرب مصرع مارق

ويستعمل الفاظ « التحسين » و« التقبيح » حين يستوحى المعانى الدقاق فيقول :

والغنى فى يد اللئيم « قبيح » قدر قبح الكريم فى الاملاق

ويقول :

وما شكرت لأن المال فرّحنى سيان عندى إكثارٌ وإقلال

لكن رأيت « قبيحا » أن يجادلنا وأننا بقضاء الحق بخال !

فَحُسن الأعمال وقبحها تُدْركُ عنده بالعقل مثل « الزيدية » .. وأهل « الاعتزال » .

ويقول بوجوب طاعة الامام العادل :

وكلّ اناس يتبعون إمامهم وأنت لأهل المكرمات إمام

والامام ليس ملكاً ولكنه رمز « التوحيد » :

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك « التوحيد » للشرك هازم

ويقول بأن « المعصية » من العبد :

أبوكـــم آدم سنّ « المعاصى » وعلّمكـــم مفارقة الجنان

وهو يمجد ويحبّذ الصفات التى يشترطها « الزيدية » فى الامام ويجملها فى بيت واحد :

قدَرُوا : عفوا ، وعَدُوا : وفَوْا ، سئلوا أغْنوا ، علوا ، أعلَوْا ، ولوْا : عَدَلوا

ويصف من يمدحه بما استوعبه من كتبهم من صفات لإمامهم ؛ مثل «القائم » و « الهادى » فيقول :

« القائم » الملك الهادى الذى شهدتْ « قيامه » و « هداه » العرب والعجمُ

وهو يشترط « جودة الرأى و « الشجاعة » فى الحاكـــم كما يشترطون فيقول :

« الرأى » قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحلّ الثّانى

فإذاهما اجتمعا لنفسٍ مرة بلغت من العليـــاءكلّ مكانِ

ومن يخرج على إمام الحق يسمّيه « باغياً » :

يبيد عداوات« البغاة » بلفظه فان لم تبد منهم ، أبادالأعاديا

وهو يخص علياً عليـه السلام بالوصايـة وبالمفهوم الزيـدى الأصولى فيقول :

وتركـــت مدحى للوصى تعمداً اذا كان نوراً مستطيـــلاً شاملاً

وإذا استطال الشىء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

ويدعو من ينتسب الى الحسن أو الحسين رضى الله عنهما بابن النبى كما يفعلون فيقول :

قد أجمعت هذه الخلائق لى أنّك يابْنَ النبي أوحدها

أو « ابن الرسول » فيقول :

هو ابن رسول الله ، وابن وصيّه وشبههما شبّهت بعد التجارب

٥ ـ التقية ومهدية « السرداب » :

وللزيديـة موقف ايجابى من « التقيـة » و « المهديـة والرجعة » و « العصمة » ؛ فان التقية مبدأ القائلين بالقعود والزيدية مبدأهم « الخروج» فهم يتكرونها ، وقد خلع « الامامية » على أئمتهم «العصمة » حتى عن الصغائر وحدّدوهم باثنى عشر ؛ آخرهم « المنتظر » الذى اختفى وهو فى الرابعة من عمره ! وذلك ما لا يقره زيد بن علي وأتباعه ، وحياة المتنبى المستوحاة من شعره و « قيـامه » و « خروجه » على « اهل الجور » كما فصلنا سابقا ثم ما نقرأ من نفثات شعره وافكـاره الفلسفيـة ، ونظراته المستفادة من تجاربه تؤكد انه كان « زيدى » « المـذهب » ، « معتزلى » الرأى ؛ فهو يحذر ممدوحه من نفاق « التقية » التى يدين بها « الباطنية » فيقول :

فما تركـوا الامارة لاختيار ولا انتحلوا ودادك من وداد

ولا استفلوا لِزهدٍ فى التعالى ولا انقادوا سروراً بانقياد

ولكن هبَّ خوفك فى حشاهم هبوب الريـح فى رجْل الجراد

فلا تغررك ألسنة موالٍ تُقلبهن أفئدة أعادى

ويقول :

بنفسى الذى لا يزدهى بخديعةٍ وإن كثرت فيـه الذرائع والقصد

ويحرّض سيف الدولة على الثورة بشعر صريـح لا يتّقى به محذوراً

فيقول :

كيف لا يأمن الراق ومصر وسرايــاك دونها والخيول
ليس الاّك يا عليُّ همامُ سيفه دون عرضه مسلولُ
أنت طول الحيــاة للرّوم غازٍ فمتى الوعد أن يكــون القفولُ ؟
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل ؟
ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشّمول !

ويقول :

لعلّ لسيف الدولة القرم هَبَّةٌ يعيش بها حقٌ ، ويهلك باطل !

الى غير ذلك ممّا لا يجهر بمثله من يقول «بالتقية » وسبق ايراد امثله له ؛ كما أننا قد اثبتنا انه لا يمكن أن يكــون قد ادّعى انه من أولاد « المهدى » صاحب السرداب لأنّه قال منكراً وجوده على قيد الحياة مخفياً :

يعلّلنا هذا الزمان بذا الوعدِ ويخدع عما فى يديــه من النقد !
فإن يكن المهديّ من « بانهديه فهذا ، وإلاّ فالهدى ذا ! فما المهدى ؟

٦ ـ تشيّع المتنبى وعلويّاته الضائعة :

كان المتنبى « شيعيّا » وبالمفهوم الأصيل الذى بيناه ، والذى لا علاقة له برفض أو غلوّ ، وكل ما دوّنوه فى ديوانه يؤكّد ذلك ومنه : ما قاله فى سيف الدولة عندما هزم جيــوش الاخشيديــين فى وقعة حدثتْ بصفّين [شرح الواحدى] .

يا سيف دولة ذى الجلال ، ومن له خير الخلائق والأنام سميُّ
انظر الى « صفّين » حين دخلتها فانحاز عنها العسكــر الغربىّ
فكــأنّه جيش « ابن هند » رعته حتّى كأنك يا عليّ « عليّ »

وعندما قال فى سيف الدولة :

مبارك الاسم أغرّ اللقب كريم الجرشي شريف اللقب ،

انما قال « مبارك الاسم » لأنّه سمىّ علي بن .. ابى طالب رضى الله عنه .

ولقدجزم الاستاذ شاكر بأن « المتنبى » لم يمدح من « العلويين » الاّ رجلين الأول محمد بن عبيدالله المعروف بالمشطّب ، والثانى ابو القاسم طاهر بن الحسين ؛ ثم قال مستغرباً : « فعجبا لأبى الطّيب ايّما عجب ، ان لا يكون مدح من العلويين الاّ رجلين ما امتدّ به العمر » ص ٢٦ ـ أول » ! وما كنت أتوقع مثل هذا الجزم الصّارم ، والحكم القاطع من مثل استاذنا محمود محمد شاكر ! ونحن نعلم ان كثيراً من شعر المتنبى قد ضاع وبعضه قد اهمله هو نفسه ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد مدح القاضى أبا الفضل احمد بن عبدالله الأنطاكى بقصيدته :

لك يا منازل فى القلوب منازل اقفرت انت وهنّ منك أواهلُ

وقد ورد فيها قوله :

لو طاب مولد كل حيّ مثله ولد النساء وما لهنّ قوابل !

ليـزدْ بنو « الحسن » الشراف تواضعاً هيهات تكتم فى الظلام مشاعلُ !

ستروا الندى ستر الغراب سِفاده فبدا وهل يخفى الرّبابُ الهاطل ؟

وقد قال التبريـزى : كان لهذا الممدوح نسبٌ فى ولد الحسن بن على عليهم السلام فأمرهم بالتواضع لأنهم كلّما ازدادوا فى التواضع ظهر شرفهم » وهو ما ينسجم ورأى المتنبى الذى ظلّ يكرره بشتى الاشكال والصور مثل قوله :

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله ، فماذا الذى تغنى كرام المناصب ؟
وما قربت أشباه قوم أباعدٍ ولا بعدت اشباه قوم أقارب
إذا علويّ لم يكن مثل طاهر فما هو الاّ حجّة للنواصب !

وإذا قال الاستاذ شاكر : إن هذا « القاضى الأنطاكى » لم يكن علويا من قبل الأب وأثبت ذلك تاريخيا وهذا فرض جدلى ، فالمتنبى قد مدح العلويين ـ أىّ الذين ينسبون الى عليّ عليه السلام ـ عموما فى كثير من اشعاره مثل ما ورد فى قوله يمدح طاهر بن الحسين .

الطّيب مما غنيت عنه كفى بقرب الأمير طيبا
يبنْى به ربنا المعالى كما بكم يغفر الذنوبا ..

وفى هذا تقرّب وزلفى اكثر من المدح واقوى وأبقى ! كما أنه قد قال :

كذا الفاطميّون الندى فى اكفهم أعزّ امحاء من خطوط الرواجب

وقرأت فى كتاب « نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر » ، وهو لم يطبع بعد ، ومؤلفه العالم الأديب الشاعر يوسف بن يحيى بن الحسين بن الامام المؤيد محمد بن القاسم المتوفى سنة ١١٢١ هـ . ما نصّه : « وأخبرنى القاضى ابو محمد احمد بن ناصر المخافى عن والدى رحمه الله تعالى أن أبا الطّيب كان يتحقّق بولاء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تحقّقاً شديدا ، وأنّ له فيه عدّة قصائد سماها « العلويّات » وإنما حذفت من اكثر نسخ ديوانه لشدة العصبيّات فى المذاهب » . ورقه رقم ـ ٤٤ ـ مخطوطة آل المتوكل بصنعاء .

هذا وأما الكلام عن المتنبى « اللغوى » و « العالم » و « الفقيه » و « المتصوف » فسأرجئه الى المقال الختامى فى عدد « الأربعاء » القادم ان شاء الله .

١٩٨٣/٩/٣٠ م ١٤٠٣/١٢/٢٣ هـ .

المتنبى: شاعر مكارم الأخلاق

المتنبى اللّغوى العالم .
كان من اعز اصدقائه الفيلسوف الفارابى ..
لم يمدح الوزير المهلبى لأنه كان ماجنا !
كان مفسرا كبيرا .. ومتصوفا !
وكان فقيها ، وفتح باب الحكمة للمعرّى .
اعتراف لكتاب الاستاذ محمود شاكر .. وخاتمه .

١ ـ تمهيد :

ما كنت احسب ان افكارا خلتها ستخطر فى بال « المتنبى » لو قرأ كتاب الشيخ عبد العزيز التويجرى : « فى أثر المتنبى بين اليمامة والدهناء » ، وأردت أن اترجمها فى رسائل عن لسان ابى الطيب احاور بها الشيخ الصديق ستتطوّر الى هذا الحوار الذىُ طال لِيناً هادئا حينا كالنّسيم العليل ، نزقاً ثائرا أحيانا كرياح الخريف واستمر بضعة أشهر بينى وبين « الفيلسوف الشمّرى » وما كنت اتوقع انه قد يؤلف كتابا فى الامكان ان يخرج على الناس يوماً من الأيام تحت عنوان « المتنبى شاعر مكارم الاخلاق » .

وما كنت احسب ايضا ، ولا اتخيل ان نقاشنا سيتطور بى من مدافع عن انسانية المتنبى وايمانه بالله وإقناع الصديق ذيبان الشمرى بأنّه كان حنيفا مسلما ، ولم يكن ملحداً ولا شاذا ولا وحشيا الى مؤرخ يحاول إبراز المتنبى فى ثوب داعية على رأسه عمامة « إمام زيدى » !!

وربما كان هذا مثار عَجَبٍ بل وضحك وسخرية عند قوم ! ولكنى اقول إنّى عندما ذهبت فى شهر رجب سنة ١٤٠٣ هـ . لأداء العمرة وزيارة الرسول ﷺ قرأت ما كتبه الاستاذ ذيبان الشمرى فى مقالته الأولى التى قرظ بها كتاب الشيخ التويجرى وقال فيها عن المتنبى ما نصّه : « ومن العجب العجاب ان المتنبى لا يأتى فى معظم قصائده على ذكر الله ، وذكر العناية الآهية ، وإنك لتشتم فى ديوانه روائح شديدة من روائح الالحاد ، الأمر الذى يتفق ويوافق القائل بفلسفة القوة ، فمثل هذا الانسان ملحدٌ بحكم فطرته ؛ إذ أنّه مؤمن بشرعة الغابة وقوانينها ؛ الشرعة الرافُضة للتراحم والمرحمة والرحمة » .. وقد رأيت في هذا القول ظلماً لشاعر الاسلام احمد بن الحسين بل وتكرارا لما ردّده بعض المستشرقين وتلامذتهم ممن يستكثرون على « المسلم » فى كل زمان ومكان أن يكون عالما أو حكيما أو فيلسوفا ، وكنت اعلم أن الصديق ذيبان الشمرى وان كنت قد أنسيت اسمه الحقيقى يتمتع بأخلاق الحنيفية الغرّاء ، وقلت لنفسى ربما وقع فيما وقع فيه من الأخطاء لأنه لم يقرأ ديوان المتنبى قراءة مستوعبة فكتبت على لسان المتنبى رسالة الى الشيخ التويجرى أثبت فيها أن أبا الطيب كان حنيفا مسلما يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأوردت من شعر

المتنبى ما لا يحتمل ردّ أو شكا أو مكابرة ، وكنت أظن ان مجرّد نشر المقال فى ملحق المدينة « الأربعاء » سيقنع الصديق الشمّرى وسيجد فيما ذكرته من شواهد ومن شعر المتنبى نفسه ما يغيرّ رأيه فيه ، لكنّ الصديق رد عّلى مقالى وكان هذا الحوار الذى قد يصبح كتابا .

وإذن ففضل إثارتى واهتمامى بقراءة ديوان المتنبى من جديد يعود الى الاستاذ الشمرى ولقد كشفت لى قراءتى الجديدة نواحى لم اتنبّه اليها من قبل ، فى عالم شاعر مكارم الأخلاق وأودّ أن أشير اليها قبل أن اختتم بهذا المقال النقاش والحوار الذى طاب ولذ لى وأفادنى كثيرا .

٢ ـ اللّغوى العالم :

لم يكن المتنبى شاعرا فذّاً فحسب بل كان لغويّا ضليعاً يفقه العربية فقه الخبير المجتهد المجدّد ، وكان لا يترك القراءة ولا يفارق الكتب حتى فى اسفاره وتنقلاته ، وله على « الأمهات الأدبيـة » تصحيحات وتعليقات وملاحظات كما روى المؤرّخون الذين قالوا انه قد ارتحل الى البادية وصحب الاعراب بقصد إتقان العربية ، ولقد سأله ابو على الفارسى عن الجموع على وزن فِعْلى فأجاب فوراً حِجْلَى وظِربى قال فمكثت أيـاماً انقّب مستقصيا فلم أجد لهما ثالثا .

وقد كان بعلمه الجم وتبحّر معارفه علماً بارزاً بين من ضمهم بلاط سيف الدولة من فطاحل وعلماء وشعراء فلاسفة القرن الرابع الهجرى وكان منهم ابن خالويه ، وأبو على الفارسى ، وأبو الطيب اللغوى ، والقاضى التنوخى والفيلسوف الفارابى ، والصنوبرى ، وابو فراس الحمدانى ، والنامى ،

والسرى الرفا ، وأبو الفرج الببغاء ، والوأواء وابن نباته السعدى ، والخالديان ، وأبو الفرج الأصفهانى وأضرابهم ، وكـان سيف الدولة وهو العالم والشاعر أيضا ـ يجمع العلماء والأدباء فى مجلسه كل ليلة كما حكى ابن خلّكان فيتباحثون ويتناظرون ويتساجلون ، ويتجادلون وكان للمتنبى بينهم القدح المعلى ، وأما كشاعر فهو كما قال :

ودع كل صوت غير صوتى فاننى أنا الصّائح المحكى ، والآخر الصدى

وكذلك كان اينما ذهب فى مصر أو العراق أو فارس نديم العلماء وقريع الأدباء وسيّد الشعراء وقد عقد عدّة مجالس يشرح فيها شعره فى كل بلد حلّه أو نزل به وكان يحاضر ويناظر ، ويملى الأمالى وممن سمع عنه ابن نباته وابو بكر الخوارزمى وابن جنى وعلى بن احمد المهلبى وكان من اعزّ اصدقائه الفيلسوف ابو نصر الفارابى واذا حضرا مجلس سيف الدولة تصدراه ، وفى مصر كانت له مناظرات مع علمائها وكان يعقد الحلقات العلميـة والأدبيـة فى مساجدها .. وفى بغداد ناقش وجالس وناظر السيرافى والرمانى وعلى البصرى وابن جنى ، وأبو الفرج الأصفهانى وخصمه اللدود الحاتمى وابن سكّره ، والصابى ، وحضر مجلس الوزير المهلّبى ولكنه امتنع عن مدحه وانما صدّه عنه ما سمعه من تماديـه فى السخف واستيـلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه كما قالوا ،وقد ربطته بالإمام اللغوى على بن حمزة البصرى صداقة أكيدة ولازمه طويلاً ، وقد استوحى العلامة ابن جنى شرح ديوانه واستمده عنه حتى قيل ان المتنبى كان يقول : « ابن جنى ادرى بشعرى منى » وعندما اجتمع بابن العميد قرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه بقصد المراجعة ، وقد ذكر الرواة ان المتنبى كان يحفظ كتاب الحدود للفرّاء فى النحو ، وكتاب « العين » فى اللغة للخليل

بن احمد الفراهيدى وأشاد الباحثون والرواة بسعة اطلاعه حتى قال احدهم كما روى ابن وكيع : « لم تضرب العرب بعصا الا وعند المتنبى منها خبر » . وقال ابن خلّكان فى وفيات الأعيان : « ما سئل المتنبى عن شيء الا واستشهد بكلام العرب من النظم والنثر » .

وكل ذلك معروف مشهور ما كان لى أن أكرّره لولا انى اودّ أن أسأل الصديق الاستاذ الشمّرى : هل من هذا شانه علما ووقارا ومكانة بين عظماء عصره يجوز أن يوصف بالنرجسية ، والحقد ، والوحشية والإلحاد ؟.

لا اظن ان الاستاذ الشمرى وهو ذو الخلق العربى الأصيل والوجدان الاسلامى المحض والعلم والفطنة سيكابر من جديد بعد أن وضح وجه الحقيقة التى نبحث عنها منذ أن بدأنا الحوار « والرجوع الى الحقّ من فضائل العلماء المنصفين .

٣ ـ ثقافته الشعرية وعلمه بالقرآن :

ومن يتأمل ما نقله عنه شراح ديوان شعره امثال ابن جنى والمعرى والواحدى والعكبرى يجد فيما يروونه مما أملاه على تلاميذه من الشواهد ما يعجب ذوى الألباب وكان كثيراً ما يستشهد بالقرآن : ولما أنشدهم قوله :

ليــت الملوك على الأقدار معطية فلم يكن لدنىء عندها طمعُ !

سأله احد تلاميذه : هل تهمز « دني » فأجابه المتنبى : « لا اهمز ، لأنّى رأيتهم ـ أيّ القرّاء ـ قد اجمعوا فى قوله تعالى : « اتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير » ، ولما أنشدهم قوله :

وعرّف انك من همّهِ وانك فى نصرة ترفل

قال شارحا : « الهمّ هنا : الارادة من قوله عز وجل : « ولقد همّتْ به وهمّ بها

لولا أن رأى برهان ربه » . وقد سبق أن أشرت الى تأثّره بالقرآن ولغته وصوره البيانية فى فصل مستقل . وقد كان حسن الذوق فى انتقاء الألفاظ ومعرفة المكان المناسب لها فى النسق الشعرى الرفيع البديع ولقد قال وهو يشرح قوله :

ألغَتْ مسامعه المــلام وغادرت سمة على أنف اللّئام تلوحُ

« اخترتُ ألغَتْ منْ بين أخوات لها عشر فقدّمْتُها : ومنها نبذت وتركتْ وطرحتْ وعادتْ وردّتْ الخ . » وهذا الذوق اللغوى العجيب هو الذى جعل الشاعر الناقد ابو العلاء المعرّى يقول : « لا تظن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها وجرّب إن كنت مرتاباً » ! والمعرّى قد قال فيه التبريزى : « ما اعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى » ..

فهل لو أردنا وبالمعايير والمقاييس « السيكولوجية » أن نحلّل « شخصية » تملك من الحسّ ، والذوق ،والذكاء ، والفطنة ، والاجتهاد فى التحصيل ، والحب للمعرفة مثل « المتنبى » يمكن أن نصفها بالقلق ، والانفصام ، وسائر الأمراض النفسية التى كالها له دون رحمة الاستاذ ذيبان الشمرى ؟! .

٤ ـ هل كان صوفيا يوما ما ؟

ويظهر انه كان على معرفة بالطرق الصوفية وآدابها أو انه كان روحانى المزاج شفاف الوجدان سماوى الطبع ، أو انه قد نحا منحاهم فى دورٍ من أدوار حياته ،ولا سيا وقد نشأ يتيماً وفى جوّ تحيط به المآسى ومناحات الشهداء ، وأسرار الترقب والتطلع الى المجهول ، فاننا نجد فى شعره الكثير من التعابير والألفاظ التى يستعملها القوم ويوظفها وبمدلولاتها الخاصة بدقةٍ وادراك بالغين .

فمن ذلك قوله فيا يسمونه « الكشف » ورفع الحجاب :

ولمّــا فقدنا مثله دام كشفنا عليــه فدام الفقد وانكشف الكشف

وقد اضطربت تفاسير شرّاح ديوانه لهذا البيت حتى قال الواحدى : « لو حكيت تخبط الناس فى هذا البيت وأقوالهم المرذولة ، والروايات الفاسدة لطال الخطب .

وقوله :

من كان ضوء جبينه ونواله لم يحجبا ؛ لم يحتجب عن ناظر
فاذا احتجبت فأنت غير محجّب وإذا بطنت فأنت عين الظاهر

ومن ذلك قوله :

يا أيّها الملك المصفّى جوهراً من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نورٌ تظاهر فيك لاهوتيّه فتكــاد تعلم علم من لن يعلما !

والمسحة الصوفية ظاهرة فى قوله :

وحالات الزّمان عليك شتّى وحالك واحدٌ فى كلّ حالِ

وقوله :

نفت التوهّم عنه حدّة ذهنه فقضى على غيــب الأمور تيقّنا

بل إنه يغرق احيــانا ويبالغ فى اقتباس ما يحُسبُ عند العقلاء من « الخزعبلات » فيصف ممدوحه بشمائل تضعهم فى مراتب خاصة مثل قوله :

ذا السراج المنير ، هذا النقى الجيب ، هذا بقيةّ الأبدال
فخذا مآء رجله ، وانضحا فى المدن تأمن بوائق الزلزالِ
وامسحا ثوبه البقير على دائكما تُشْفيا من الأعلالِ

وأمّا قوله فى الغزل :

سربُ محاسنه حرمت ذواتها دانى الصفات بعيــد موصوفاتها

ففقد قال فيه إحدنا قدّ به ساخراً :

كأنّه من كلام الشبلى أو سمنون الصوفى .

وقوله :

اذا ما الكــأس ارعشت اليدين صحوت فلم تحلْ بينى وبينى !

فيه مسحة صوفية ، بل هو من تعابير القوم كما ذكر ابن جنى .

المتنبى الفقيه :

وهو قد امضى شطراً من وقته يدرس الفقه على علمائه وأقطابه وقد ظهر ذلك فى الكثير من اشعاره مثل قوله فى شبابه :

تعجّل فيّ وجوب الحدود وحدّى قُبيل وجوب السجودِ
فمالك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهودِ
وكن فارقا بين دعوى أردتُ ودعوى فعلت بشأوٍ بعيدِ

وقوله :

أقاضينا هذا الذى أنت أهله ، غلِطت ولا الثلثان هذا ولا النصفُ

وقوله :

كأن سخاءك الاسلام تخشى اذا ما حلت عاقبة ارتداد !

وقوله :

ويــد كأنّ قتالها ونوالها فرض يحقّ عليك ؛ وهو تبرع

وقوله :

القى الكرام الألى بادوا مكارمهم على الخصيبيّ عند الفرض والسنن
فهن فى الحجرِ منه كلما عرضت له اليتامى بدا بالمجد والمنن

قاضٍ إذا التبس الأمران عنّ له   رأى يخلّصُ بين المـــاء واللّبن

وقال متغزّلاً :

قفي تغرم الأولى من اللّحظ مهجتى   بثانيـــة ، والمتلف الشيء غارمُهْ

وقـــال :

وزادك بى دون الملوك تحرّجى   إذا عنّ بحرٌ لم يجز لى التيمّمُ

وقـــال :

وزائرتى كأن بها حياءٌ   فليس تزور إلاّ فى الظلام

بذلت لها المـــطارف والحشايا   فعافتها وباتت فى عظامى

اذا ما فارقتنى غسّلتنى   كأنا عاكفان على حرام

٥ ـ المتنبى الحكيم الفيلسوف :

لا أظن انى فى حاجة الى القول ان المتنبى كان فيلسوفا أو حكيما فلا احد ينكر ذلك أو يجهله ولقد قال ابو العلاء المعرى معلقا على قول المتنبى :

الف هذا الهواء اوقع فى الأ   نفس ان الحمام مرّ المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ   والأسى لا يكـــون بعد الفراق :

انهما يفضلان كتابا من كتب الفلاسفة . واذكـــر انى قرأت لأحد الأدباء المعاصرين كلاماً يقول فيه ما معناه إذا كان هذان البيتان قد فتحا باب الحكمة لأبى العلاء المعرى فان « الزهاوى » شاعر العراق قد اغلقه بقوله :

عش بعيـــدا فى خلوة الأجداثِ   عن رغاء الخطوب والأحداث

إنّما المـــوت خير ما خلّفتهُ   لبنيها الآباء من ميراث !

٦ ـ اعتراف :

نعم ؛ لولا اننى قرأت ما كتبه الاستاذ ذيبان الشمرى عن « المتنبى » ما اقدمت على تقديـم استقالتى الخياليـة من السفارة الأدبيـة للمتنبى وكنت سأندفع فى تصوراتى واحبّر رسائل بلسان أبى الطيب الى ابى عبد المحسن التويجرى عن الحياة والكون والانسان والشعر والفن والسياسة كانت خواطرها تتوارد علىّوكأنها مناجاة روحانية من وراء الغيب ، ولا ادرى الآن الى أيّ مدى كانت ستبلغ ، ولا كيف كانت ستنتهى ، وربما كان الخير فى الواقع ..

لا بالنسبة لى وللشيخ الصديق ، بل ولأبى الطيب نفسه فيراعى ولسانى وبيانى اعجز من أن تعبّر عن روحه الكبيرة تغمّدها الله بالرحمة والرضوان .

غير انى وقد توفقت فأحسنت الدفاع عن شاعر مكـارم الأخلاق لا بد أن اعترف بأنّه لولا كتاب الاستاذ محمود شاكر بسفرَيه ، لما اهتديت الى كلّ ما طرقته من أبواب ، وما سلكته من سبل ، وما توصلت اليه من تصورات وخواطر ما كان ليتوصل اليها استاذنا الكبير محمود شاكر نفسه .

لقد كان كتابه الذى كتبه للمقتطف منذ ما يقرب من نصف قرن وقلمه فى عنفوان نشاطه وشبابه ، فتحاً مبيناً فى تاريخ المتنبى ، كشف به عن صورة جديدة له ، جعلتْ إمام الأدب العربى فى القرن الرابع عشر الهجرى الاستاذ مصطفى صادق الرافعى يقول : « ولست أغلو إذا قلت : إن هذه الروح المتكبرة [روح المتنّبى] قد اظهرت كَبريـــاءها مرة اخرى ، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الاستاذ محمود محمد شاكر مدّة كتابته هذا البحث النفيس الذى اخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة ، تدلُّهُ فى تفكيره ، وتوحى

اليه فى استنباطه ، وتنبّهه فى شعوره ، وتبصرّه أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها ، ليردّ بها على اشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب . ثم تعينه بكلّ ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الأشياء التى جاءت من نفوس اعدائها وحسادها » ثم يقول عن سر المتنبى الذى كشفه شاكر :

«ومن هذا السرّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدّر فى نسق عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنّه ولادة ونمّو وشباب ، وعرض بين ذلك شعر ابى الطّيب عرضاً خيّل اليّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه واحوالها . وبذلك انكشف السرّ الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر الفخم ، إذ كانت فى واعية الرجل دولة أضخم دوْلةٍ عجز عن خلقها وإيجادها ، فخلقها شعراً أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنّها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الامكان اللغوى » .

كما جعل كتاب شاكر عميد الأدب العربى فى جامعة القاهرة يومئذ الدكتور طه حسين ينطلق فيؤلف كتابه « مع المتنبى » محاولاً ان يعكس الصورة الحقيقية التى كشف عنها شاكر لشاعر الاسلام ابى الطيب احمد بن الحسين ، وليضع له صورة مشوّهة ؛ فهو وضيع الأصل يشعر بالضعف ، قرمطى يحب سفك الدماء ، جبان ، فلسفته هواء ، مغرور ، عبد للطمع والمال لا للفن والجمال ، متهالك على المنافع العاجلة ، قلق مضطرب متلوّن . الخ ..

وقد استعمل الدكتور طه حسين بإسلوب الذكيّ الداهية المعايير والمقاييس التى لولا كتاب شاكر لما اهتدى اليها مُوهماً انه هو الذى ابتدعها يرحمه الله .

كما ان كتاب الاستاذ شاكر هو الذى ساعد الدكتور العلامة الباحث الأديب عبد

الوهاب عزّام على تأليف كتابه النفيس « ذكرى أبى الطيب بعد الف عام » ولولاه لما اهتدى الى الأسرار التى كشفها شاكر واعترف بها الرافعى ، وإن كان « عزام « قد تعمد ان لا يذكر اسم شاكر ، بلْهَ أن يشيد بفضله وسبقه !!

وها أنا ، وإن كنت قد قرأت كتابيْ طه حسين ، وعزّام أيّام الطلب ، وجالست وعاشرت المتنبى وشعره خمسة وأربعين عاماً ، ولم أقرأ كتاب شاكر عنه الاّ فى طبعته الأخيرة الصادرة سنة ١٣٩٧ هـ . ١٩٧٧ م ، أى بعد تأليفه وطبعته الأولى بثلاثة وأربعين سنة .. ها أنذا أقول معترفا إنه لولا كتاب الاستاذ محمود شاكر عن المتنبى بسفريه الأول والثانى لما استطعت الدفاع عن شاعر مكارم الأخلاق ، ولا توصّلت الى نتائج قد لا يوافقنى على بعضها الاستاذ شاكر نفسه ، ومع ذلك فلو قدّر لهذه المقالات أن تصدر فى كتاب فلن يكون إلاّ ذيلاً لكتابه القيم النفيس « المتنّبى » .

خاتمة

تلك هى صورة المتنبى الانسان الكريـم النسب ، المسلم القوى ، الفيلسوف المحنك ، الفارس العالم المجاهد ، شاعر مكـارم الاخلاق ، والصورة التى رسمها له الاستاذ شاكر فى كتابه عنه هى صورته الحقيقية ، ولا أضيف إليها إلاّ أنه كان « زيدى المذهب » وسيفسرّ هذا كل غموض وحيرة فى أسباب الخصومة بينه وبين بعض فئات الشيعة والعلويين فى زمنه ، وبعد مماته ، ولماذا كتم نسبه ، ولم يعلنه فى مصر أو فارس ، ويجيب على بعض الأسئلة التى تركها استاذنا شاكر دون جواب . وتتبدّد غيوم الشكوك والتلفيقات والأخبار الموضوعة التى افتراها اعداء المتنبى وخصومه وحساده وظلموا بها شخصيته وتاريخه .

وعمود صورة المتنبى وهو يتكوّن من ثمان فقر بيّنها وشرحها الاستاذ شاكر فى كتابه وسبق الاشارة إليها وسردها إجمالاً لن أضيف اليها ـ بعد ما سبق ـ الاّ فقرة واحدة وهى انّه كان شيعيّ الهوى واللسان ، زيدىّ الرأى والمذهب، وكما حورب النفس الزكية وأخواه ابراهيم وإدريس فى الحجاز والعراق والمغرب ، والقاسم بن ابراهيم وأشياعه فى مصر والسودان ، وحفيده

الهادى يحيى بن الحسين واتباعه فى اليمن ، والناصر الأطروش فى الجيل والديلم لأنهم جهروا بمبادىء زيد بن علي واعتنقوها ودعوا الناس إليها فطوردوا وقوتلوا من قبل العباسيين وعمّالهم ومواليهم ، وناصبهم العداء المماليك والشعوبيون وغلاة الشيعة كالباطنيـة والقرامطة والروافض كذلك حورب وطورد وعُودي احمد بن الحسين المتنبى « الزيدى » أينما حلّ وأينما ارتحل حتى خرّ شهيدا .

رحم الله أبا الطيب لقد قاسى فى حياته الكثير من الكيد ، والخسيس من الدس ، والشديد من الظلم والمكر والحسد ، ولكنه كافح وصابر ولم تلن له قناة ، ولا قبل لغير الله حكماً ، ثم حاول اعداؤه وحسّاده أن يشوّهوا تاريخه لكنهم فشلوا ، وكأنّه كان يعلم أنهم سيحاولون ذلك فسجل فى شعره ما يزيف افتراءاتهم إن حاولوا ؛ ولو لم يكن له إلاّ قوله :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث ، والنجل بعضُ من نجلَهْ

وانما يذكـــر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيلَهْ

أنا الذى بينّ الألّه به الأقدار ، والمرء حيثما جعلهْ

جوهرة يفرح الكـــرام بها وغصة لا تسيغها السّفله

ان الكـــذاب الذى أكاذُبه أهون عندى من الذى نقلَهْ

فلا مبالٍ ، ولا مداجٍ ولا وانٍ ، ولا عاجزٌ ولا تُكَلَهْ

وهذه هى صفات الكمال الأنسانى ، وحسبه ذلك وكفى .

وأستغفر الله ، وله الحمد ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

بروملى : ١٤٠٣/١٢/٢٥ هـ / ١٩٨٣/١٠/٢ م

فهرست

الموضوع | رقم الصفحة

* * *

من إصدارات النادى الأدبى الثقافى بجدة

- قمم الأولمب « شعر » للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع
- الساحر العظيم « شعر » للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع
- عكاظ الجديدة « شعر » للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع
- الشاطىء والسراة « شعر » للأستاذ : محمود عارف ـ طبع .
- من شعر الثورة الفلسطينية « شعر » للأستاذ أحمد يوسف الريماوى ـ طبع .
- أنين وحنين « شعر شعبى » للأستاذ : الشريف منصور بن سلطان ـ طبع
- محرر الرقيق « سليمان عبد الملك » « دراسة » محمد حسن عواد ـ طبع .
- من وحى الرسالة الخالدة « اسلاميات » محمد على قدس ـ طبع .
- المنتجع الفسيح « آداب وعلوم » للأستاذ محمد حسن عواد ـ طبع .
- طبيب العائلة د . حسن يوسف نصيف ـ طبع .
- مذكرات طالب (ط ٣) د . حسن يوسف نصيف ـ طبع .
- شمعة على الدرب « نثر » للدكتور عارف قياسه ـ طبع .
- أطياف العذارى « شعر » للشاعر مطلق الذيابى ـ طبع .
- كبوات اليراع « تصويبات لغوية » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .
- عندما يورق الصخر « شعر » للأستاذ ياسر فتوى ـ طبع .
- ورد وشوك « مطالعات » للأستاذ حسن عبدالله القرشى ـ طبع .
- فى معترك الحياة « مجموعة آراء » للأستاذ عبدالفتاح ابو مدين ـ طبع .
- الوجيز فى المبادىء السياسية فى الاسلام « نظرات اسلامية » سعد ابو جيب ـ طبع .
- أوهام الكتاب « تعقبات مختلفة » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .

- علي احمد باكثير « حياته .. شعره الوطني والاسلامي » ـ دراسة للدكتور احمد عبدالله السومحي ـ طبع .
- نغم وألم « شعر » الشريف منصور بن سلطان ـ طبع .
- الكلب والحضارة « قصص من البيئة » للأستاذ عاشق الهذال ـ طبع .
- شعر ابى تمام ـ رسالة جامعية ـ للأستاذ سعيد السريحى .. طبع
- شواهد القرآن ـ دراسات ـ للشيخ أبى تراب الظاهرى .. طبع
- التشكيل الصوتى فى اللغة العربية ـ دراسة ـ للدكتور سلمان العانى .. طبع .
- أريد عمرا رائعا ـ شعر ـ للشاعر عبد الله جبر .. طبع
- المجموعة الشعرية الكاملة ـ للشاعر محمد ابراهيم جدع .. طبع .
- ترانيم الليل ـ المجموعة الشعرية الكاملة ـ للشاعر محمود عارف طبع .
- من أدب جنوب الجزيرة ـ دراسة ـ للأستاذ محمد بن احمد عيسى العقيلى .. تحت الطبع .
- غناء الشادى ـ شعر ـ للشاعر المرحوم مطلق الذيابى .. طبع
- الشمشاطى وتحقيق كتابه الأنوار ومحاسن الأشعار ـ رسالة دكتوراه .. للدكتور عبد المحسن القحطانى .. ـ تحت الطبع .
- الذيابى تاريخ وذكريات . . « للشريف منصور بن سلطان » . ـ طبع
- محاضرات النادى الادبى . القسم الاول . ـ طبع
- السوانح والبوارح ـ « مجموعة مقالات » لمعالى الاستاذ احمد الشامى . ـ تحت الطبع .
- محاضرات النادى الادبى القسم الثانى . . تحت الطبع .
- أمواج وأثباج ـ « دراسات نقدية » للاستاذ عبد الفتاح ابو مدين ـ تحت الطبع الطبعة الثانية .